أحمد بوزفور

ديوان السندباد

قصص

طبعة ثالثة



ديوان السندباد

الكتاب: ديوان السندباد
المؤلف: أحمد بوزفور
الطبعة الثالثة، 2017

الإعداد الفني: خديجة قيسومي

الطباعة: دار أبي رقراق للطباعة والنشر - الرباط
رقم الإيداع القانوني 2017MO4115
ردمك 2-652-99-9954-978

الدار البيضاء
الهاتف: 0650662877
moultakatakafat@gmail.com

أحمد بوزفور

ديوان السندباد

قصص

طبعة ثالثة



ملتقى الثقافات للنشر و التوزيع

MOULTAKA ATTAKAFATE POUR L'EDITION ET DISTRIBUTION

المحتوى

النظر في الوجه العزيز

يسألونك عن القتل

حوار بين الحب والقتل

عيناك السوداوان، فيهما حياة رقراقة سوداء.. أي شيطان أغراني بحبك؟.. بحب هذا السواد في عينيك دون أن يحذرني منك، ومن هذا السواد في عينيك؟ آه لو تعرفين كم قاسيت في حياتي! ومع ذلك فلم أحب أحدا كما أحببتك.. هل أقول إنك: كنت لي الماء والهواء والنور؟ ولكن، كيف يغيض الماء ويسكن الهواء؟ كيف ينطفئ النور؟ إن ذلك لا يحدث فجأة دون شك.. جزء صغير من الينبوع ينقص دون أن نلاحظه، قد يكون قطرة واحدة في بادئ الأمر، ولكن القطرة تعقبها قطرات ونحن في غفلتنا المطمئنة، ونستيقظ على إحساس طاغ بالعطش فإذا الماء.. كل الماء قد غاض، هكذا يخبو الهواء أيضا وينطفئ الضوء.. وهكذا تقتل الفتيات الصغيرات عشاقهن الحمقى. ولكن لماذا يا مني؟ لماذا تشيخ العواطف بسرعة في صدور الفتيات الصغيرات؟ وتبقى نهودهن مع ذلك صلبة وشابة ومرحة؟ لماذا على الخصوص تبقى نهودهن شابة وصلبة ومرحة؟ سليني أنا.. إنهن يستبدلن النسغ.. وإلا فهل كنت تستطيعين المحافظة على صلابة نهديك لو لم تحبي ذلك الولد ال.. أقصد لو

لم تحي هذا الفتى الذي تحبينه الآن، والذي تقتعدين كرسي دراجته الخلفي كل صباح. (الدراجات النارية أكثر تعرضا للحوادث من السيارات، ومع ذلك فقلما تصطدم الدراجات مع بعضها. إنها تصطدم غالبا مع السيارات). لن يحبك أحد كما أحببتك، ولن تقتلي أحدا كما قتلتني. هل ينظر في عينيك ذلك الفتى؟ هل يأخذ وجهك بين يديه ويكتشفه؟ هل يكتشف أغوار بشرة وجهك المختلج الطفل؟ هل يحكي لك عن حياته، وعن.. الحياة؟ ماذا يقول لك؟ ماذا يمكن أن يقول لك؟ وأنت (الضوء الأحمر مرة أخرى. والدراجات النارية أيضا.. هذه الثعابين التي تتسلل من حولك ومحركاتها تقهقه لتسبقك إلى اقتناص الخضرة في أعمدة الضوء)، ولكن.. إلى أين تقودني هذه السيارة الآن؟.. خارج المدينة، وراء الضوء، وراء الأضواء جميعا، سأشم الليل نفسه وأقبله وأطعنه.. سأطعنه حتى يصرخ في الفضاء.. ها.. ها.. من ينجده؟ الضوء مشغول بنفسه في المدينة والمحركات الصغيرة تنشج في حضنه) هل يحبك ذلك الفتى يا صغيرتي؟ بماذا يحبك؟ بأسنانه؟ أم بأظفاره؟ أم بمقعد دراجته الخلفي؟ (. الزواج صعب يا خالتي، وينبغي الإعداد له . لا ينقصك الخير يا إبني، أنت موظف ولك سيارة وسيكون الفرح بسيطا.. إنها تحبك.. وأنا ليس لي إبن) ومع ذلك فقد كنت تحبينني، أليس كذلك؟ فأين ذهب ذلك الحب؟ أين يذهب الحب بعد أن يخرج من الصدور؟ في أي جزيرة يتغرب المنفي المسكين يا كبدي؟ عيناه مسمرتان في الأفق الغائم تستجديان الشراع المستحيل، هل تعرفين أنت؟ هل تعرفين الغربة والنفي والشراع المستحيل؟ هل يعرف فتاك ذو الدراجة هذه الأشياء؟ كيف يعرفها؟ هل رآها في عينيك الزرقاوين يا قطة الخرائب؟ (الشعرات البيض تقول إنك شخت.. يجب أن تعتني بنفسك.. لا تستحم في البحر.. أنت ضعيف أمام البرد.. ضعيف،

ضعيف، هش كالقش.. لأمر ما تتحول الجبال إلى عهن منفوش والفتيات الصغيرات إلى فراش مبثوث والدراجات النارية إلى ألسنة حمراء تحيط بعرصات القيامة) النهار يقرض العواطف بأسنان الليل يا فتاتي، أقصد أن.. الليل يقرض العواطف بأسنان النهار.. أقصد أن.. لا فائدة.

هل قال لك إني قتلته؟ كلا يا أمي هو الذي قتلني، صبّ جرارا من الحزن الأزرق في عيني. لقد أحببته كأعمق ما يمكن أن يحب إنسان بقلبه، أما هو، فلم يحبني قط في أية دقيقة من أيامي معه.. هل قال لك إني قتلته؟ ولكنه كان مقتولا من قبل يا أمي.. أنا فقط اكتشفت جثته.. لم يكن ينظر إلي حين أكون معه. هو كاذب إذا قال لك هذا.. إنه يرى معاني وأفكارا.. لا يرى أجساما أبدا، أو ربما لا يرى شيئا على الإطلاق. عيناه صحراوان يا أمي، لا أدري من أي مقبرة أسطورية سرقهما خابيتان كابيتان. كالشمس في أصيل خريفي.. هل قال لك إني قتلته؟ إنه يكذب عليك يا أمي، لماذا أقتله أنا؟ إنه لم يحبني قط في أية دقيقة من أيامي معه. هو كاذب إذا قال لك إنه أحب إنسانا أو حتى حجرا في يوم من حياته.. الذي يحب يا أمي لا تكون له هاتان العينان.. كان يبحث عني.. يجلس معي.. هذا صحيح.. ولكن مثلما يقرأ جريدته أو يشرب قهوته.. شيئا كالإدمان يا أمي.. لم يكن يحبني، كان يدمنني.. كالقهوة والجريدة والسجائر، كنت في علبته «السيجارة الواحدة والعشرين»، هو نفسه قال لي ذلك يا أمي.. هل تدرين كيف كان يتغزل بي؟ نظم فيّ الشعر نفسه، ولكن.. أي شعر؟

«عيناك ميراجتان.

فمك اقتراح للسلام.

وجهك مؤتمر.

وأنا.. أنا سيناء».

هذا نموذج من شعره لا يزال عالقا بذهني، أجرد يابسا ساخرا كبئر مقلوبة.. كعينيه الكابيتين.. كسطور جريدته، ساهما كان دائما يا أمي وساخراً من الناس والدنيا والكون. «الكون جمل أجرب»: هكذا كان يقول لي يا أمي، قلت له: «لا تتفلسف معي.. أنا صغيرة، وأريد أن تحبني كما أحبك»، وكان يجيب: «أنا لا أتفلسف.. أنا أحكّ الكون.. إسألي عينيك يا قطة الخرائب، فستقولان لك هذا»، حاولت أن أحتج.. قلت له إنني إنسان.. فتاة لا قطة.. ولكنه كان يرد ساخرا: «قطط الخرائب أشرف من فلاسفة الإنسان.. لها عيون بدائية حية ونقية، ونظراتها حادة كأسنان القردة، ولا تعطيك في اللحظة الواحدة إلا معنى واحدا». لم أدر حتى هذه الساعة ما إذا كان يستحليني أو يحتقرني. أما الحب فلم يخطر له على بال، وماذا أفعل أنا يا أمي؟ هل قال لك إنه أحبني؟ كذّاب. لماذا لم يقلها لي أنا؟ لماذا كان يتهرب مني حين أسأله عن هذا؟ وهبه قال لك إنه أحبني.. هبه قالها لي أنا.. فهل الحب كلمة تقال يا أمي؟ أليس هو نظرة حية؟ اهتماما؟ شعورا بالوجود.. بالحياة في النفس وعند الآخرين؟ أليس هو شيئا كالضحك أو كالبكاء؟ هل تعرفين يا أمي أنه لم يبك قط ولم يضحك منذ عرفته.. كان يقهقه، وربما تبسّم، ولكنه لم يضحك قط، وقهقهته كانت شيئا شادخا كالحجر أو كالفأس، وكانت بسمته جمودا أملس كزجاج سيارته.. ونفسه كانت هناك، في كهفه الداخلي، ملتوية ومعقدة ورهيبة وقذرة. في الطريق كان الشحاذ يمد رجله أمام أعين المارة.. لم تكن هذه الرجل تنتهي بساق، فقد كانت الساق مقطوعة.. ولكنها كانت تنتهي بنتوءات لحمية حمراء وسوداء، وأغوار ومنعرجات قذرة ومقززة تلطم عينيك بشيء كالقيء أو كالقمامة أو

كالخبز العفن. حين اقتلعت عيني من رجل الشحاذ يا أمي تذكرته.. هذا الذي يقول لك إنه أحبني، بماذا يحبني؟ بنفسه المقطوعة القذرة؟ حاولت أن أغسل نفسه، أن أنشرها كالقميص تحت قبلات الشمس، ولكنه لم يساعدني، لم يخرج نفسه إليّ، بل أدخلني أنا إليها، أغرقني في بركته الآسنة، حكّني أنا الأخرى، هرش جلدي بجذعه المقطوع، «أنا جذيلها المحكك» ويضحك. قلت له: ماذا تقصد؟ قال: «أنا جميلها الأجرب» ويقهقه. وماذا أفعل أنا يا أمي؟ لقد أغرقني في نفسه المقطوعة، قطع نفسي أنا الأخرى، هو الذي قتلني يا أمي. أصبحت أنا أيضا أتفلسف، سعيد يدهش من أسئلتي ومن أجوبتي، وأنا في أعماق نفسي أتخدر.. أتسطح.. أنثر المسحوق الأبيض على البثور والدماميل وأدمن سعيد، أدمنت دراجته يا أمي، وبعد ذلك.. أدمنته هو، وهربت من الذي قتلني، ولكن إلى أين؟

إلى أين أهرب يا أمي؟ ونفسه المقطوعة قبري، وجربه الكوني قدري، إلى أين؟؟؟

رسائل في سلة القتل

رسالة من يوليسوس

لست أبحث عنك في هذه الجزر يا بنيلوبي العزيزة.. أنا هارب منك لا ساع إليك.. أقول للرفاق: «غدا تبدو شواطئ إيثاكا، ونرى القصر الضاحك الشرفات، ونرى بنيلوب»، وأقول لنفسي: إلى أين يا أوليس؟ أتهرب من بنيلوب بالسعي إليها أم تسعى إليها بالهرب منها؟ قتلتني يا بنيلوب.. وشردتني في أزقة السوقة دون تاج ولا صولجان، أغرقتني في بحار العالم حتى ذاب الملح في

فكري وعاطفتي. ملح هذا الدماغ وملح هذا القلب. جزءا من البحر أمسيتُ تأتدم الشمس بي وتغسل شعرها فيّ. هارب منك أنا لا ساع إليك. ألا زلت تغزلين كفني؟ وداعا يا بنيلوب.. إن كانت الأرض كروية فسأعود لألبس الكفن العنقائي اللون مرة أخرى، وإن كانت مسطحة كالبساط فسأمضي حتى النهاية، حتى أغرس حوافر سفينتي في الفراغ الكوني وأقتحم المجهول.. ولن أتراجع.. قبّلي عني تليماك، وقولي له: «إن الآباء حين يلدون رجالا.. يموتون».

رسالة من توبة بن الحميّر

«وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.. حتى وأنت تمرين بجانب القبر صامتة باردة كقمر الصحراء.. وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.. أما بعد فامزجي لنا القرب بالبعد في كأس واحدة واسقي صدانا المستغيث فإنا "بكل تداوينا فلم يشف ما بنا". وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، أما بعد فإن موقعنا عندك لا نعلمه فآه لو ترين دموع الجندل والصفائح. وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.. ورحمة الله وبركاته

.. وبركاته».

رسالة من عزرائيل

«سيدتي. إنه عندنا هنا في العالم السفلي، ولكن حالته غريبة تماما، كل الناس هنا أصحاء مستبشرون. أما هو فشاحب اللون دائما مرتجف الأطراف.. قلت لنفسي حين رأيته: «سيكون هذا خطرا على مجتمع الموتى.. قد يكون مريضا، وقد يكون مرضه معديا». كانت مشكلة معقدة بالنسبة لي يا سيدتي.. ولكنه مع ذلك كان لطيفا وطيبا وحزينا. أحببناه جميعا.. وأحبنا

. أو هكذا خيل لي. غير أنه يذبل بسرعة. ومنذ ثلاثة أيام فقط سقط صريع الفراش وهو يهتف باسمك.. إن حالته خطيرة جدا، وليس من المستبعد أن يموت بين لحظة وأخرى، وقد رأيت من واجبي كحارس للعالم السفلي أن أخبرك أنت بحالته لأنه لم يذكر في مرضه غيرك. ولم يهتف لسانه طيلة وجوده بيننا بغير اسمك.. وتقبلي سيدتي...».

سؤال عن القتل

– هل هذا هو بيت منى السعداوي؟

– ماذا تريد؟

– أنا ساعي البريد، عندي ثلاث رسائل إلى هذا العنوان باسم منى السعداوي، هل هذا بيتها؟

– لا.. لا.. ليس هذا بيت منى ال.. منى من؟

– منى السعداوي..

– كلا.. ليس هذا بيت منى السعداوي.. هذا بيتي أنا.. علال البصلي.

1970

الغراب

في الحجرة الأولى كنت أنا، وفي الحجرة الثانية أمي وأخواتي، أما في الزريبة المسقوفة فكانت الأربع معزات وجداؤهن الثلاثة، ومن السماء كان الثلج يسقط أبيض في صمت. «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير... تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.. تبارك الذي بيده.. باسم الله الرحمان الرحيم تبارك الذي بيده..».

جلباب أبي من الصوف الأسود، وفيه خيوط طولية بيضاء رقيقة ومتوازية، واسع وفضفاض ولكنه دافئ، وأنا أتكوم فيه «تبارك الذي بيده الملك وهو» «تبارك» ثُمُنٌ طويل مكتوب على جهتي اللوح معا، والثلج يسقط أبيض في صمت. أما أبي فكان في الغابة يقطع أغصان «الكُرِّيش» ذات الأوراق القصيرة الشائكة الأطراف لتأكلها الماعز في الدار. الثلج يسقط، والبرد، أختي لم تسرح بالماعز، وأنا لم أذهب إلى الجامع، و«عاق عاق.. عاق» غراب، قفزت إلى النافذة الخشبية وفتحتها فرأيت البياض، الهضبة المقابلة كانت بيضاء تماما، والسماء بيضاء أيضا، وبينهما الصمت والبرد، ولا غراب. أقفلت

النافذة ورجعت متعثرا في جلباب أبي إلى الحصيرة، لأقرأ «تبارك».

دندنة الحديث تدخل خافتة مكتومة ودافئة، شمرت أذيال الجلباب وذهبت إلى الحجرة الثانية.

أمي تجلس على قطعة مطوية من حصير قديم إلى جانب «الكانون» تُسَخِّنُ الشعير في المقلاة الواسعة، وأختي الكبرى تهرس الشعير المسخَّنَ في مهراس خشبي طويل، وكلما هبطت يد الفأس الخشبية على كومة الشعير في المهراس ترتفع «هَسْ» حادة السين من فم أختي الكبرى، أما الصغرى التي ترعى الماعز فكانت تسرِّح شعرها القصير بمشط أصهب من العظم، وتغمس أصابعها بين الحين والحين في إناء طيني صغير ثم تخلل شعرها بزيت الزيتون المخلوط بـ «دواء البرغوث»، وأحيانا تظفرُ أصابعها بقملة سوداء فتضعها على ظهر المشط العظمي ثم تفقأها بظفر إبهامها.

رفعت أمي عينيها، وابتسمتْ حين ظَهَرْتُ في الباب، ونادتني!

– «آجي آوليدي تسخن».

جلست على فخذها الأيسر أمام النار، فمدت يدها إلى شعر رأسي، وسمعت أخت الصغرى تطرقع بلسانها ثم تقول:

– «غُوغَّش... مُّو يجلس في حجر امُّو».

صرخت فيها: «ومالك انت؟... امي».

ولكني انزلقت بالتدريج إلى قطعة الحصير المطوية، فحذرتني أمي من أن أحرق جلباب أبي بالنار، وقالت أختي الكبرى وهي تباعد بين دقات الفأس في المهراس:

– «ايِّهْ...» وابنها هو المتزوج من النصرانية. فردت أمي:

– ابنها في «الكورس».

– الأقرع؟

– وهل أنا أعرفه؟ «أقرع أو بشعره، يخدم ويرسل الفلوس لأبيه».

– ومتزوج من نصرانية؟

– «هذاك ربيبها، وهو في «لالْمَانْ»».

وتدخلت أختي الصغرى:

– أمي.. وكيف يتزوج من نصرانية؟ أو أسلمت؟ فردت أمي:

– هي أسلمت أو هو كفر، الذي يخرج من بلاده يفعل العجائب.

مددت يدي إلى ذقن أمي لأحول وجهها إليّ، وقلت:

– أمي.. هل صحيح أن الغراب كان رجلا ومسخ؟

فطرقعت أختي الصغرى بلسانها وأسرعت تقول:

– آلوِيلْ؟... هذاك «بَلاَّرَجْ» الذي توضأ باللبن.

صرخت فيها محتدا: الغراب أيضا مسخ، أنا قرأت عنه في القرآن، مسخ أولا يا أمي؟؟

حكت أمي شعر رأسي بأناملها وابتسمت وهي تنقل نظرها بيني وبين أختي الصغرى ثم قالت:

– قالوا يا ولدي إن الطيور كلها كانت بني آدم ومسخت، وقالوا إن الله حين أراد أن يمسخ النملة أعطاها جناحين.

– كانت امرأة.

– كانت امرأة يا ولدي وتزوج عليها رجلها، فرفعت يديها إلى السماء

وقالت: اللهم اعطني جناحين لأطير بهما من هذه المحنة، فأعطاها الله جناحين وطارت، ولأنها سمحت في أولادها وتركتهم ربائب مع الناس مسخها الله نملة.

– والغراب.

– والغراب مسخه الله أيضا و...

ورأيت الغراب يفسخ تكة سرواله الأزرق القصير الرجلين ويقرفص على الأرض مرخيا جلبابه الأسود وبجانبه سطل من الماء الدافئ فوقه بخار فيغرف الماء بيده اليمنى ويرميه إلى حجره المختفي بين فخديه ثم يحك بيده اليسرى... وصوت الماء المرشوش يمتزج مع صوت السطل القصديري المتزحزح باستمرار، ومع صوت الغراب وهو يبسمل ويستغفر، وكان الماء الدافئ لبنا، وكان للغراب شارب كث وأنف طويل، وكانت أمي تتابع الحديث مع أختي الكبرى، وحين رميت بنظري إلى طرف الحجرة المدخنة السقف رأيت أختي الوسطى المريضة مضطجعة تحت البطانية البيضاء ذات الخطوط الغليظة الحمراء، وجهها إلى الحائط وهي تستمع إلى الحديث ساكنة.

وقفت واتجهت نحو الباب، فقالت أمي:

– هات لوحك واقرأ هنا حتى لا تبرد. قلت:

– سأخرج لأرى هل أبي قادم.

الثلج كف عن السقوط ولكن الأرض بيضاء، والسماء أيضا، ولا أحد يمشي في الخارج، الطرق اختفت تحت الثلوج، وعلى الهضبة البيضاء الناصعة الناعمة كانت خمسة غربان سود واقفة، ثلاثة مجتمعة، وعلى مقربة منها اثنان آخران. أخذت من وراء الباب الخارجي حبلا رقيقا من الدوم، رفعت به الجلباب الأسود وحزمته على وسطي، وحملت في يدي اليمنى عودا قصيرا

ثم قصدت الهضبة وأنا أضرب الثلج بالعود، قبل أن أصل كانت الغربان قد حلقت في السماء «عاق عاق... عاق» «عاق عاق... عاق»، بقيت تدور فوق رأسي في الفضاء الأبيض دون أن تنزل أو تذهب، صرخت فيها:

– غراب... الغراب غراب... كْحَلْ الجَلاَّبْ.

ورميتها بالثلج، فسقط الثلج متناثرا على الأرض أبيض مع العقعقات السوداء، وقلت في نفسي: (لابد أن تدوخ وهي تدور هكذا في الجو ثم تسقط)، وفيما أنا أنظر إليها وقبل أن أستدير عائدا إلى الدار، برز أبي أمامي. هو الآخر كان يحزم جلبابه بحبل ويحمل على ظهره حزمة كبيرة من أوراق الكرّيش القصيرة الشائكة الأطراف ويتدلى منها على صدره شاقوره الذي يقبض عليه بيده اليسرى. قبلني على جبهتي بشفتيه الباردتين وشاربه المثلج، وحملني في يده اليمنى، وتابع المشي وهو يقول منقطع الأنفاس، وحول فمه وأنفه سحابة صغيرة من البخار:

– «وليدي... جيت تلاقيني؟ سعدي بوليدي... بردت؟ سأسخن وليدي أمام النار وسيأكل معي الخبز والزيت، وسأصنع له براد شاي بالشيبة، وسيشرب وليدي الشاي في كأسه المزوق.. و...».

قاطعت أبي: «أبّا... صحيح أن الغراب كان رجلا ومسخ؟»

أجاب أبي: «يْكونْ آوليدي يْكُونْ... هذا الزمان يمسخ اللي ما يتمسخ».

حدث ذات يوم
في الجبل الأقرع

سافر في الليل. كان قد جهز كل شيء.. الخبز والسمك والماء والقهوة والمحلة، والبندقية والرصاص.. وضع الأشياء كلها على المقعد الخلفي، ووضع فوقها معطفه، وانطلق في شوارع المدينة الفارغة خفيفا كالشبح.

كانت العجلات تعانق الإسفلت في هيجان صامت، والسكارى يعانقون الجدران في يأس.. خفيفا كالشبح.. كأنما يجري على قدميه لا في سيارته، كأنما هو الذي يجري بأربع عجلات. الأضواء والواجهات تلفت اجيادها مسرعة لتجده قد اختفى.. انفلت من بين أصابع الجدران الملوثة كالماء النقي، وصافحه وجه القمر في الأفق البعيد فهشت نفسه، وخامره حنين مجهول.. خفض زجاج النافذة وشم هواء الليل في عمق وقوة.. فتح الراديو فلطم أذنيه موال مبحوح.. أغلقه، وأخذ يستمع إلى صفير الريح وهسهسة العجلات.. كان عليه أن يذهب بعيدا.. مئات الكيلومترات، وكان ينبغي أن يملأ خزان النفط ثلاث مرات على الأقل قبل أن يصل إلى «الجبل الأقرع».. جبل

الغزلان «الغزلان فيه أكثر من الحصى» هكذا قالوا له.. «ولكن عليك أن تفاجئها في الصباح الباكر أو تنتظر حتى القيلولة».. (سأشرق عليك قبل ضوء الشمس يا أقرع.. أما في القيلولة فسأنام في سفحك بين صفين من الغزلان.. ومع العصر أقفل راجعا.. لأدخل المدينة في الليل كما خرجت منها.. وحين تسأل المدينة عني سأقول لها: ها أنذا.. فيك كنت وما زلت ولم أغادرك قط ولن أفعل.. ها.. ها.. كاللص أسرق نفسي منك يا مدينة، كالفارس أغتصب غزلانك يا أقرع.. كالعفريت أطير بك في أحشاء الليل والريح يا ناقة. الحديد) الريح تغازل الحديد.. تبكي.. تتأوه من اللذة، والحديد يفتح جسدها.. يطعن رحمها في قوة وعنف وهي تتأوه من اللذة وأنا بين جسديهما المتعانقين أسري خفيفا كالشبح الفار..

سار مسافة طويلة على الرمال الندية قبل أن يقف، أطفأ المحرك.. وخرج.. تمطى واستنشق الصباح المتفتح. اتكأ على سيارته ورعى بعينيه الجبل الممتد في الصحراء كديناصور نائم.. قال لنفسه، لو نغزته لانتفض، ولافترسني، وربما متحديا انحنى.. والتقط حجرا، رمى الجبل النائم في خاصرته، فلم يتحرك الجبل.. ضحك.. فملأ النسيم الرطب فمه.. فتح فمه بقوة.. وأطلق يديه.. وعانق الصباح.. تمطى... ثم قال لنفسه: ينبغي أن لا أضيع الوقت. حمل البندقية. ألقمها الرصاصتين.. أغلق أبواب السيارة.. ثم انطلق إلى الجبل دون أن يشرب قهوته.. السلام عليك يا جبل يا أقرع.. عم صباحا أيها الجبل الأقرع.. صديقا جئت لا عدوا.. أريد القرى يا أبا الصحراء.. فأين تخبئ غزلانك؟.. هيا.. لا تكن بخيلا... صعد.. وصعد. تسلق.. وتسلق.. بحث بعينيه وأذنيه.. جال في شعاب الجبل طويلا فلم يعثر على شيء.. لاجئا جئتك يا جبل الحجر والرمل والعرعار.. مستجيرا بك من ظلم المدينة وقهرها

يا وطن الصبح والنسيم، فهل تجيرني؟.. غزالة واحدة أُسكِت بها سخرية الماسورة الثقيلة يا جبل.. يا جبل.. لا شيء غير الحجر والرمل والعرعار.. وغير الشمس التي فتحت عينها المحمرة في غضب وقد ضبطته متلبسا بالوجود.. هل تريدين أن أمحو نفسي يا عاهرة؟.. آه لو كنت على الأرض.. اهبطي إن استطعت، وسأقطع يدي إذا لم أصطدك بالرصاصة الأولى.. هيا إذن.. تغضبين في السماء..؟ الغزالة أيضا تغضب في الكناس.. ولكن.. هل تستطيع الخروج.. تصبب العرق من جبينه.. وقف، فزلت قدمه واستوى جالسا.. رمى البندقية في غضب.. مسح العرق بمنديله ورمى الشمس بنظرة حاقدة.. التقط حجرا. قذفها به.. فلم يصبها.. فجأة.. سمع حركة خفيفة، التفت فرأى غزالة تجري.. أسرع إلى البندقية.. نزع صمام الأمان.. أطلق الرصاص في لهوجة فأخطأها.. جرى من ورائها فلم يلحقها.. وقف على مرتفع وأشرف على السفح البعيد.. فلم ير غير الضباب.. لسعته ريح خفيفة.. أراد أن يمسح العرق بالمنديل.. فلم يجده.. غضب.. هدأ.. غضب.. هدأ.. حزن.. جلس حزينا.. رمى البندقية.. نفض رأسه والتقط حجرا وضرب.. حجرا آخر.. ثالثا لا شيء.. أحنى رأسه وأخذ يلعب بالحصى بين رجليه وهو حزين.. مرت في ذهنه صور كثيرة متلاحقة! أشجار وغيوم وسواق، عيون وشفاه وأثواب، ضحكات وهمسات.. غروبات حالمة.. قطعان ورعاة.. استلقى ونظر إلى السماء.. وضع ساعده على عينيه.. وفجأة.. أخذ يبكي.. شهق.. شهق.. والتقطت أذنه حركة خفيفة.. تسمع هادئا.. فاقتربت الحركة.. اقتربت.. أزاح ساعده في صمت وهدوء.. فغرقت في عينيه الباكيتين عينان واسعتان سوداوان.. كانت الغزالة تطل عليه. قربت فمها من عنقه.. شمته.. فانتفض واقفا وهو يحاول أن يُمسكها من قرنيها.. ولكنها أفلتت. أسرع إلى

البندقية وأطلق الرصاص.. تك.. تك.. لا رصاص.. غضب أخرج الرصاص.. شحن بيت النار وهو يلتفت.. كانت الغزالة قد اختفت. غضب.. أطلق رصاصة على الحجر.. فلم يسل دم.. التفت إلى قمة الجبل غاضبا.. رمى البندقية.. وأخذ يجري.. والقمة تغمزه.. جرى.. جرى.. صعد.. صعد.. وسال العرق.. وسالت الشمس.. وسال الرمل.. وسالت الدنيا.. وتعب.. ارتمى على الرمل منهكا.. استلقى على بطنه.. أطلق يديه ورجليه.. ونام.. حاول أن ينام.. استرخى طويلا متحديا أشعة الشمس.. وفجأة سمع الحركة.. فتحفزت حواسه.. ودق قلبه، وأمال رأسه في بطء.. فتح عينه اليسرى فرآها.. قريبة منه.. قدّر في ذهنه المسافة.. ترجمها لعضلاته.. قفز.. فتلقفته الرمال.. ووقفت الغزالة على بعد آخر تنظر مدهوشة.. استلقى مرة أخرى.. ووضع رأسه على يديه.. وأخذ.. يفكر: لا فائدة.. ستقتل نفسك قبل أن تقتلها.. أعني قبل أن تصطادها.. قبل أن تعانقها.. فجأة أحس بأنفاس رخيّة تداعب قفاه.. انقلب على ظهره وبقي مستلقيا.. نظر إليها.. ابتسم في حزن.. خاطبها متلعثما: أنا حزين يا سيدتي.. حزين وتعب ومريض.. أنت لا تفهمينني.. أنا.. أنا هارب.. أنا.. ورائي المدينة.. ورائي الحديد والجدران.. أقصد أن... أنهم يصطادونني.. هل تفهمينني؟.. سرطان من الأزقة والجدران والسيارات والأعمدة والأضواء والكلمات... أنا هارب.. هربت... ولكني مصاب.. هل تفهمينني؟ أصابني السرطان في كبدي من الطلقة الأولى.. أنا هناك وهنا.. المدينة هي التي أطلقت عليك النار لا أنا.. أنا.. أنا.. أنا إنسان محتل.. هل تفهمينني؟ كلي مستعمرات.. في مخي.. في قلبي.. في دمي.. كل الكريات البيضاء والحمراء جنود يسكرون ويكسرون زجاجاتهم في عروقي.. هل تفهمينني؟ أنا.. أنا.. لا تفهمينني؟.. آه لو فهمت يا سيدتي.. لو فهمت

الدنيا.. لو فهمت الأشياء.. لو فهمتني دون أن أتكلم.. كم سيكون العالم حلوا حينئذ!.. هل.. هل.. تفهمينني؟..

جلس.. ووضع يديه على ركبتيه.. وضع عليهما رأسه وانخرط في البكاء.. اقتربت منه.. شمته.. حكت عنقه بشفتيها.. شفتاها طريتان.. وباردتان.. هل تقبله؟.. تدغدغه في رفق.. تدغدغ.. تدغدغ.. ضحك في صمت.. آه لو فهمت؟.. كيف يحكي لها؟.. الأشياء في ذهنه معجونة كالوحل.. مختلطة غائمة ثقيلة.. أقول لك.. ماذا أقول؟.. الوداع يا سيدتي.. أنا إنسان مدنس.. اعذريني.. سامحيني.. لوثت صمتك الطاهر بالرصاص.. والكلام.. وداعا. تابع الجلوس قليلا.. ثم نهض.. وأخذ يهبط الجبل في إعياء.. وذهنه فارغ.. سار.. سار.. هبط.. تكسر الضوء في عينيه.. رأى بندقيته.. انعطف إليها.. حملها.. التفت.. فرأى الغزالة تنظر إليه صامتة.. كان ذهنه فارغا. أدار البندقية.. صوّبها في هدوء، أطلق النار.. وهذه المرة، أصابها..

1972

الرجل الذي وجد البرتقالة

في الشارع

كنت جائعا، ولم أجد ما آكله في شوارع المدينة. في الحقيقة كانت شوارع المدينة حافلة بالخبز والفاكهة، ولكنها كانت تباع بالنقود. وأرهقني الجوع والإعياء، ونظرت إلى الشارع فرأيت سيارة صغيرة حمراء، فوق رأسها عصابة صفراء مكتوب فيها «طاكسي صغير». كانت حلوة وشهية وجلدها الأحمر جميل ومغر. تلمظت وأشرت لها، فلم تقف وجاوزتني، فجريت وراءها حتى الضوء الأحمر. حملتها في كفي، وأخذت أقشّرها كالبرتقالة، وكنت ألقي بالقشور على الرصيف فوقف أمامي شرطي طويل وسدّ الطريق في وجهي. رفعت إليه بصري محتجا، فقال في قرف: «أنت لا تحافظ على نظافة مدينتك». كان عابسا متجهما مرهقا يعلو وجهه الغبار والكآبة، أشفقت عليه ومددت له البرتقالة:

– هل أنت أيضا جائع؟ لنتقاسمها.

صرخ في وجهي: وترشوني أيضا؟ تعال معي.

– إلى أين؟

– إلى الكوميسارية طبعا.

في الكوميسارية سجلوا اسمي وأصلي وفصلي وأخذوا صوري وبصماتي، وقالوا لي في الأخير:

– أنت متّهم بتوسيخ المدينة ورشوة الشرطة، ماذا تقول؟

قلت لهم، إنني كنت جائعا وإن الشرطي كان جائعا مثلي، وكان مرهقا وحزينا...

قالوا لي: إن رجال الشرطة يأخذون مرتباتهم، وإنهم ليسوا جوعى، وإنني أحرض الشرطة على الشغب وإن هذه تهمة أخرى تضاف إلى تهمي السابقة.

قلت لهم إنني لا أعرف شيئا عن هذه التهم، وإنني لست سوى رجل جائع وجد برتقالة فأراد أن يأكلها ف...

– برتقالة.. ها.. وصلنا إلى البرتقالة، من أين أتيت بها؟

– أتيت بها؟ لم آت بها.. وجدتها.

– هممم... وجدتها! كأن البرتقال يسقط من السماء، أين وجدتها؟

– في الطريق.

– أي طريق؟ لابد أنك سرقتها، وهذه تهمة أخرى، تعال معنا إلى «عين المكان».

وصلنا إلى الرصيف الذي أخذوني منه، وقلت لهم:

– من هنا أخذت البرتقالة.

وطرحتها على الإسفلت، فجرت سريعا نحو الضوء الأحمر، وكانت قد

أصبحت «طاكسي صغير»، وهتف رجال الشرطة:

– ساحر... ساحر... أخيرا انكشفت.. تعال معنا، وأخذوني إلى السيرك الوطني، وأدخلوا نمرتي في البرنامج العام، وقالوا لي:

– هنا ينبغي أن تمارس مواطنتك، هذا مكانك المناسب، وسيعطونك خبزا أيضا إذا أديت دورك كما ينبغي.

وذهبوا.

في السيرك

أعطاني مدير السيرك قبعة وقال لي: ادخل إلى الحلبة، وقف في الضوء أمام المتفرجين، واخرج من القبعة الفارغة حمامات ومناديل.

حين دخلت الحلبة وفي يدي القبعة الفارغة، هتف لي المتفرجون وصفقوا، فاحمر وجهي خجلا، وارتبكت، ولم أدر ما أفعل، وأدَرْت وجهي نحو الكواليس فرأيت المدير يشير لي نحو القبعة المحتارة في يدي اليسرى، وسرعان ما تذكرت مهمتي فأدخلت يدي في القبعة وأخرجتها ملأى بالسكاكين. ولأنني لم أدر ماذا أفعل فقد شرعت أوزعها على الجمهور. بعضهم كان حائرا مرتبكا مثلي، والبعض صفق لي، وآخرون كانوا يقذفونني بسكاكيني. وامتلأ المدرج بالصفير والتصفيق، وارتفعت الضجة، وسرعان ما أحاط بي رجال الشرطة واستردّوا السكاكين من الجمهور وفرقوه.

أدخلوني مكتب المدير وأجلسوني على كرسي أمام المكتب الذي جلس عليه الضابط ووقفوا حولي صامتين طوالا كالجدران.

تنهد الضابط ووضع مرفقيه على المكتب وتطلّع إلي بعينين ساخرتين:

– والآن قل لنا، من أنت؟

– أنا رجل جائع وجد برتقالة في الطريق ف..

– لماذ أخرجت السكاكين من القبعة؟

– المدير أعطاني قبعة قديمة وقال لي أخرج ما فيها، وكان فيها سكاكين. لو كان فيها شيء آخر لأخرجته.

وجاءوا بالقبعة فوجدوها قديمة فعلا، ومطلية بالزيت والبنزين، أعطوني قبعة جديدة فأدخلت يدي فيها، ولكن يدي خرجت من الطرف الآخر.

– إنها مثقوبة.

– القديمة فيها سكاكين، والجديدة مثقوبة. أين سحرك إذن؟ ألست ساحرا؟

– أنا فقط رجل جائع وجد برتقالة ف..

– كف عن ترديد هذه الأسطوانة. إذا رددتها مرة أخرى فسنسل لسانك.

– ماذا أقول إذن؟

– الحقيقة.

– أنا لست.. رجلا جائعا.. لم أجد برتقالة لم آكلها.. لم آكلها.. أقسم أقسم لم آكلها.

كانت الضربات تنهال على رأسي ووجهي وعنقي من كل اتجاه، ماذا أقول؟ قل لهم إنك ساحر وفض القضية.

– ساحر ساحر.. أنا ساحر.

– ها.. أرأيت... الاعتراف خير، وهو وحده الذي ينقذك.. اسمع، أنت

تعرف السحر، أليس كذلك؟

– أعرفه.. أعرفه.

– ولكنك تعرف أشياء أخرى أيضا.. هيا قل.. هل تعرفها؟

– نعم.. أعرفها.

ونزلت الضربات.. وارتفعت القهقهات.

– تعجبنا صراحتك، حسنا.. اسمع. السيرك الوطني في حاجة ماسة إلى السحرة، إلى السحرة المخلصين، وسنعطيك فرصة عام واحد لكي تخرج لنا مجموعة من الصبية في جميع فنون السحر. هل تقبل؟

– ولكن..

– نعم، أولا، هل تقبل؟

– إذا شئتم.

– تعال معنا. وقادوني إلى مدرسة ابتدائية.

في المدرسة

كان القسم الذي أعطوني إياه كبيرا وفيه مائة صبي، وجدرانه تخفي ميكروفونات وكاميرات صغيرة خلف الصور واللوحات، وفي المقاعد. خفت، ارتعدت مفاصلي، وكدت أسقط على الأرض هلعا. كنت كذبابة مسكينة وقعت في هذا الشرك الملعون من الميكروفونات والكاميرات وعيون الأطفال. داريت خوفي، وقلصت شفتي لابتسم، وقلت بصوت مرتجف:

«أيها الأبناء الأعزاء.. درسنا الأول سيكون عن أوجب الواجبات، وأكرم الأخلاق، وقاعدة القواعد في كل زمان ومكان، ألا وهي: حب الله ورجال

الشرطة».

فصفر الملاعين الصغار ودقوا الطاولات والأرض بأقلامهم وأقدامهم، حاولت تدارك الأمر:

«اشش.. ينبغي أن لا نبدأ عامنا الدراسي بالتنافر».

قالوا: نحن نكرهك، ونكره رجال الشرطة.

فهتفت مرتاعا:

«لا.. لا.. اكرهوني أنا إذا شئتم، هذا مباح لكم، أما رجال الشرطة..».

– نحن نكرهك لأنك عميل لهم.. أيها العميل.. أيها العميل.

حينئذ جلست على مكتب القسم، وفتحت الكتاب المدرسي، وأخذت أقرأ عليهم مناقب الشرطة في التاريخ البشري، وما بنوا من المدن وشيدوا من النظم وحفظوا من الأمن، وأقاموا من العدل منذ الفراعنة والآشوريين حتى اليونان والرومان.. وحين وصلت إلى عصر هارون الرشيد وبغداد العامرة الزاهرة، الحافلة بالأمن والنظام والهيبة والسلطان، سمعت شخير الصغار، كان الملاعين قد ناموا جميعا.. ربما منذ عصر الفراعنة نفسه. فأُسقِط في يدي، والتفت إلى الباب فوجدته مفتوحا ورأيتهم ينظرون إلي وإلى الأطفال النائمين. وبدأوا يدخلون: الشواش والمعيدون والكتاب والحراس العامون والنظار والمديرون والمفتشون والمناديب إلخ.. إلخ.. وقلب أحد المفتشين ورقة صفراء طويلة وتابع القراءة:

«ولم يثبت فقط عدم اطلاع المعني بالأمر على دقائق علم التربية وطرائق علم النفس، بل ثبت أيضا ومما لا يدع أيّ مجال للشك أن المعني بالأمر لم يقرأ قط خلال عمره الطويل، ورقة واحدة من كتاب «إميل» الذي أخذه

مؤلفه الأوربي بحذافيره من كتاب عربي جليل، هو رسالة «أيها الولد الجميل» لأبي حامد الغزيل..».

وأدار المفتش بصره في الحضور وقال شارحا:

– هو طبعا حجة الإسلام الإمام الغزالي، ولكني غيرت من اسمه بما يناسب جمال العبارة، ودقة الإشارة، تمشيا مع طريقة القرآن الكريم الذي يقول في هذا المقام: «سَلاسِلاً وأغلالا وسعيرا»..

فارتعدت فرائصي رعبا، أما الحضور فقد هزوا رؤوسهم فهما وإعجابا، وأما المفتش فتابع القراءة بصوت فخم ولهجة حازمة، وفهمت منه في الأخير أنهم قرروا طردي من سلك التعليم، فشكرتهم بتمتماتي المرتبكة وخرجت إلى الشارع.

في الشارع

لم يطل فرحي، فقد كنت جائعا... وهكذا ما أن أبصرت السيارة الصغيرة الحمراء حتى أمسكتها، وأخذت أقشرها في لهفة، وإذا بظل طويل يسد الطريق في وجهي.

الألوان تلعب الورق
أو مصطفى وخديجة

الألوان في جَلسة رقم 1

الأبيض: عشر سنوات كاملة عقاب عادل.

الأسود: كاملة! رغم أنه قتل.

الأزرق: قتل أجنبيا... خمس سنوات مثلا...

الأسود: شوفينية حمقاء. الأجنبي بقة؟!

الأزرق: الشوفينية ولا الخيانة.

الأسود: الخيانة؟

الأبيض: أيها السادة.. أيها السادة.. أرجوكم.

الأسود: إنه يتهمني بالخيانة، هذا الحفرية المتحجرة، أمّا الإخلاص والوطنية فهما قتل كل أجنبي، ثم بالطبع قتل كل مواطن، حتى لا يبقى غير وجهك الأزرق اللعين.

الأزرق: انظروا إلى الذئب يبكي على الغنم.

الأسود: المواطنون ليسوا أغناما.

الأزرق: ولذلك تريد تخليدهم في السجون؟!

الأسود: إنه قاتل.. قاتل. قتَل يا أخي قتَل. أزهق روحا بشرية. أين حسّ المسؤولية؟

الأزرق: نعم.. نعم.. أريد أن أقول... هناك ظرف مخفف.

الأسود: الوطنية!.. همهم!

الأزرق: لا أقبل أن تمس هذه الكلمة المقدسة بالسخرية.

الأسود: طبعا. منها ترتزق.

الأزرق: خير من أن أستغل بالخيانة.

الأسود: الخيانة أيضا؟ ويقول الاستغلال. هذا «الشيلوك» المنافق.

الأزرق: التاريخ القريب يشهد، فننشر صفحات الماضي.

الأسود: ولم لا ننشر الحاضر؟!

الأزرق: فلننشرهما معا.. هيا إذا استطعت.

الأبيض: أيها السادة.. أيها السادة.. أحذركم.

الأسود: لا أدري كيف يدافع الإنسان عن قاتل.

الأزرق: لا أدافع عن القتل.. أطلب مراعاة الظروف.

الأسود: هل حضرت المحاكمة؟ ابحث عن المرأة يا سيدي. هل تسمى المرأة وطنية أيضا.

الأزرق: لا أعتقد أن الأمر كان يبلغ حد القتل، لو لم يكن الجاني أجنبيا.

الأسود: الجاني؟.. إنه مات.. قتل.

الأزرق: قبل أن يموت خطف فتاة مغربية من خطيبها. كما في الاقتصاد كذلك في الحب: الخطف هو وسيلتهم.

الأسود: كانت الفتاة تحب «أندري».

الأزرق: ولكن مصطفى كان يحبها.

الأسود: الحب لا يكون بالسكين.

الأزرق: كان خطيبها.

الأسود: حتى لو كان زوجها.

الأزرق: لا تهمكم كرامة وطن بكامله. فكيف تهمكم حرمة الزوجية المتهكة. إن لنا تقاليد أيها السيد.

الأسود: «إلى الدير.. إلى الدير اذهبوا... واسرعوا».

الأبيض: القانون يراعي تقاليد البلاد.

الأزرق: ليس دائما.. للأسف.

الأسود: بل دائما... للأسف.

الأبيض: نحن لا نعيش في غابة. هناك طرق ديموقراطية لتعديل القانون.

الأزرق: روتين الإجراءات يضايقني.

الأسود: المهم هو التطبيق. كل قانون صالح. إذا كان مطبقا.

الأزرق: والتقاليد؟ والأصالة؟ والتاريخ؟ والشخصية القومية؟ ألا تعني هذه الكلمات شيئا عندك؟

الأسود: والنظام؟ والأمن؟ والإنتاج؟ والتقدم؟ ألا تفهمها.

الأزرق: أنت لا تريد غير الربح، ترى بأي ثمن تبيع الوطن؟

الأسود: أنت أدرى يا سيدي. يقولون: سل المجرّب.

الأبيض: أيها السادة. ألا تكفّون عن النقار؟ هناك قضية تبحث. وهناك ألوان أخرى تريد الكلام. تكلم أنت.

الأصفر: الآن فقط تحتاجون إليّ.

الأبيض (في حنق): لست وحدك في البر. تكلم إذا شئت أو اصمت. قد يكون الصمت خيرا أحيانا.

الأصفر: كنت أود... ماذا لو أخرج من السجن وهيئت له حياة معينة تكيفه مع المجتمع؟

الأسود للأزرق: أرأيت نتيجة تساهلك؟ غدا يطلب أن تعلق الأوسمة للقتلة.

الأزرق: بل إنها نتيجة تطرفك. الضغط دائما يولد الانفجار.

رمادي: قا.. قا.. قي.. قي.. قو.. قو..

الأزرق: ماذا هناك أيضا، من يتكلم؟

الأبيض: لا أحد. لم أسمع شيئا.

الأزرق: بلى سمعت صوتا.

الأسود: أذنك تسمع الهواء. قد يكون عفريتا. أه؟

رمادي: قي قي قي قا قا قا قو قو قو..

الأزرق: ألم تسمعوا؟ كأنها دجاجة تقوقئ. من يدري ماذا تلد غدا؟

الأبيض: لا تهتم. الدجاج لا يطير. ولا يلد إلا دجاجا أيضا.

حين خرج مصطفى من السجن

اتكأت على الجدار الأصفر العالي ورعت بعينيها باب السجن الكبير. سيخرج الآن. هل تعانقه؟ حولها كان يدور شاب طويل القامة.. يدخّن في عصبية، ولا يكف عن الحركة. صديق له. أو قريب؟ ولكنه طويل جداً. ونحيف يكاد ينقصف. لحيته تخفي معالم وجهه، وعيناه لا تستقران على شيء، حين تضبطهما تطيران مذعورتين نحو الباب الكبير فتطير معهما عيناها وتحبط نفسها كالحصاة إلى غور ركبتيها. وقرقع الباب.

لم يغمض عينيه الضيقتين كما تخيلت من قبل. وبدا عاديا: قصير القامة، قصير الشعر، وبشارب، لحيته حليقة وبخده الأيمن الجرح نفسه. ارتجفت ركبتاها. وصعدت نفسها ولم تتحرك. وسبقها إليه الشاب الطويل. عناق قصير وكلمات قليلة و...

— خديجة؟ أهلا.

— الحمد لله على السلامة.

احتفظت بيده الهاربة، ولم تعانقه. لم يعانقها.

— خديجة... عبد العزيز... هيا بنا نتحرك.

صافحت الطويل الذي كان يحمل الحقيبة. أخذها منه مصطفى وتحركوا على الطوار صامتين.

مصطفى يقول لخديجة أنه عيان

وحدهما أخيراً يمشيان صامتين.

(الطويل سبقهما) مصطفى.. مصطفى.. إلى أين تهرب الحروف الحبيبة

الخضراء؟

لا لهفة ولا عتاب.

وأين الفرحة وال.. والبطولة؟ كيف يكون الإنسان غريبا هكذا كأجنبي، وعاديا جدا كـ... كأحد المارة؟ هل ينتظر أن تبدأ هي الكلام (بالدم أبكيك يا حبي البعيد.. بالدم أبكيك لا بالدموع. لم يجد دمي جرحا يتنفس منه يا حبي فخرج من عيني. فسبحان الذي لو شاء مسخ الفراق لقاء كما مسخ الدم دمعا. كما مسخ الدم دمعا يا حبيبي) مصطفى.. مصطفى.. مصطفى أين الحروف ال...

– لماذا لا تعاتبني؟

– نعم؟... أعاتبك؟ علام؟

(كأنما فوجئ.. أين كان).

– لم أزرك في السجن ولا مرة.

– آه. صحيح. كنت أقول لنفسي: الغائب حجته معه.

– أنا الآن حاضرة.

– لابد أن لك عذرا. على أي حال أشكرك على مجيئك اليوم.

– تسخر؟

– لا. لماذا أسخر؟

– في البداية كنت خائفة... ومن بعد لم أرد لفت الأنظار. وتساءلت عن جدوى زيارة قصيرة باردة. بدلا من ذلك فعلت ما هو أهم.

– ....

– انتظرتك.

– ....

– كنت أعد الأيام.. وأخاصمهم. وأرفض كل المشاريع. ويوما عن يوم كان... كنت أزداد لهفة وشوقا. أتى هذا اليوم أخيرا. وها نحن معا تحت السماء.

– ....

– لماذا لا تتكلم؟

– ماذا أقول؟

– قل أي شيء.

– أنا عيان قليلا.

– مريض؟

– لا. لا. فقط عيان. أحتاج إلى بضعة أيام من الراحة. أنام فيها وأدخن وأستجمع نفسي.

– ....

– لعلنا نكون أقدر على الحديث فيما بعد. أليس كذلك؟

– إذا كنت تريد أن... كما تشاء. أين ستكون؟

عند عبد العزيز مؤقتا. إذا شئت أن تزوريني بعد يومين أو ثلاثة فتعالي. هل أعطيك العنوان؟

– إذا لم أزعجك.

– أرجوك... معك قلم؟

– نعم.. قل لي العنوان.

خديجة تتحدث مع نفسها

هل فوجئ بإقبالي؟ لم يكن ينبغي أن تتهافتي عليه هكذا. لماذا لا يحبُّ الناس بعضهم في بساطة؟ لماذا أحب الذي لا يحبني ويحبني الذي لا أحبه، وحين تقبلين على الناس يعرضون عنك، وفقط حين تعرضين عنهم يلحون عليك كالذباب؟ هذه الدنيا غريبة كآلة معقدة. الأفق الملون المثير، الأشقر الفاتن الحلو يصبح فجأة حبة بطاطس متسخة، والعاشق المفتون الفارس البطل ينظر إليك من زاوية العين دهشاً ومستفسراً كأجنبي (يا قلبي.. يا قلبي.. يا قلبي الغالي) هل لأنني قتلت الآخر؟ حبة البطاطس المتسخة الشقراء منطرحة على أرض الحديقة العمومية كورقة كبيرة صفراء. وأضواء المدينة البعيدة تحذر من الحركة وتغري بالهرب معاً. وفجأة ينبثق كالرحمة إلى جانبك. ويحتضنك في عنف حتى تتّقد في أعماقك الرعشة المقرورة ويردد في أذنك (يا قلبي.. يا قلبي.. يا قلبي الغالي) يرى.. يسمع ويعاتب ويثور ويتهم ويسب، ولكن يتبع دائما. ظلك كان. وحين تحتاجين إليه يسبق العالم إلى عينيك ويقدم نفسه فداء حين تحيط بك الشبهات (يا قلبي.. يا قلبي.. يا قلبي الغالي) آه. لو لم تفعلها.. لما كانت مدينة لأحد بشيء. أو لو حين فعلتها كانت شجاعة حتى النهاية. الآخر كان لا يستحق القتل، يستحق البصاق فقط. التافه المهزول الحقير. الدودة العفنة. كلا، كان يستحق القتل. هل هو قريبك؟ ألف قتلة يستحق. أنا أيضا. نفس السكين كانت كفيلة بتحرير كبريائك المحاصرة لو لم ينبثق فجأة من ظلام الليل، كبريائك التي احتضنها بين ذراعيه في عنف وفتّتها (يا قلبي.. يا قلبي.. يا قلبي الغالي) وأنتِ بكيت. اعترفي. ودمعك سقط على وجهه ويديه مالحا ساخنا وذليلا. ولكنه بكى أيضا. من الحب، لا من الخوف. واحتضنك. وقدم نفسه فداء لك (انسي ما حدث تماما. علاقتكما

ظلت عادية، ثم لم تعودي ترينه. لا بأس من أن تسألي عنه بعض معارفه).

– ... لكن... أين أندري؟ لا أراه اليوم.

– أوه القط البري؟! سترينه بعد قليل ومعه موديل جديد.

يرسم قال.. أنا أيضا رسمت. أنا التي رسمت اللوحة كلها في الأخير. بل هو الذي رسمها (طبعا سيستدعونني و«سأعترف». أنت خطيبتي. بضع سنوات وأخرج. أما أنت فظروفك العائلية..) يا حبي البعيد «بالدم أبكيك». يا «قلبي الغالي» لماذا يرخص كل شيء كالتراب؟ خديجة. هل تعرفين؟ التراب يغطي العالم.

(نسيت أن أقول لك.. إنني كنت أحبك دائما. أعرف هذا) هل هي الكلمة التي حطمت كل شيء؟ أم السجن؟ سأعرف منه.

حبيبات الرمان الحمراء

من النافذة رآها. تتفحص الأرقام في أبواب العمارات. الفستان أبيض، والصاك والشعر أسودان. الشارع فارغ تقريبا، والصيف يسخن الهواء الراكد باللهب. كأنما أحست به يراقبها، لم يتحرك وهي تنظر إليه، وحين رفعت يدها اليمنى رفع يده دون شعور. وغابت في باب العمارة.

الماضي كله، يمشي على قدمين. يتفحص أبواب العمارات، يلبس الأبيض ويدق الباب في رقة، وقد يعرض نفسه في سوقك أيضا، ويحيطك بذراعيه اللزجتين كالعنكبوت. هل الأسطوانة متحفرة؟

سلمت في أدب باسم، وحين كان يغلق الباب نفخ رائحة العطر من أنفه فلم تخرج. جلست وجففت وجهها وروحت بجريدة قديمة دون جدوى.

– مرحبا.

– أين صاحبك؟

– عبد العزيز؟ في محطة القطار.

– سافر؟

– يعمل.

– أعزب؟

– مطلق.. دون أولاد.

– آه.. لم تسافر؟

– إلى أين؟

– لزيارة الأقارب.. مثلا.

– لا أقارب لي.

ابتسامتها سائلة، وأحمر الشفتين باهت. ذراعها الأيسر العاري ناعم متهدل يمتص زغبه الأملس الضوء الساقط على الأرض في انحراف.

– ألم تبحث عن عمل؟

– سأبدأ بعد أسبوع.

– أي عمل؟

– شطاب.. في محطة القطار.

– ألا يمكن أن تجد عملا أحسن؟

– ...

– على أي حال سأكون معك حيثما كنت.

هذه هي الطَّامة الكبرى سيدتي.. هل أعمل أو أتزوجك يا سيدتي؟ البداية منك وفيك وبك. أما النهاية فلن يرسمها أحد غيري.

– مصطفى.. لنتحدث بصراحة.

– نعم؟

– قبل أن نفترق منذ عشر سنوات قلت لك إنني كنت أحبك دائما. وقد ظللت أنتظرك طوال هذه السنوات.. أريد أن أعرف الآن حقيقة شعورك نحوي.

– تريدين الحقيقة؟

– لا أريد غيرها.

– أنا لا أشعر بأي شيء الآن.

– هذا يعني أن..

– لا يعني شيئا على الإطلاق لا سلبا ولا إيجابا.

– وسنوات الانتظار الطويلة ألا تعني شيئا؟

– عشتها في السجن.

– كنت في سجن أنا الأخرى. ألا تفهم؟ سجني كان أقسى... احتد صوتها، وها هي الدموع تطل أيضا (تماثيل، أجنحة كبيرة من الرخام، أتظن حتى لو أنها على كتفيك أنك تقدر أن تطير؟). خدك الأيمن يلتهب. الملح يفترس الجرح.

– لو عرفت.. لو عرفت أنك ستخرج غريبا هكذا... تعاقبني؟ آه؟ تنتقم مني؟ أنت الآخر.. أنت والزمن.. وهم.. وكل الناس.. آه؟ أنت أيضا..

اللحم.. اللحم. اللحم الأبيض العرقان والزغب المبلول. الابتسامة السائلة

اللزجة والكلمات الأصوات الشفاه الأصباغ النشيج الخيوط القطرات الدقائق الوحل السيلان البياض البيوضة الطراوة الزغب العرق اللمعان البريق اللزوجة الرحم الخيانة الصراخ الضحة الحر الحر الحر السكين الجفاف العرق اللوثة الدم الدم. اقضم اصبعك السكين.

آآآه عععع...

وتناثرت فوق أرضية الغرفة وفوق الفستان الأبيض حبيبات الرمان الحمراء.

الألوان في جلسة رقم 2

الأبيض: التحقيق جار والبحث عن القاتل مستمر.

الأزرق: المهم الآن هو القبض على القاتل. أما إلقاء المسؤولية على الآخرين فحرفة نتقنها جميعا.

الأبيض: المهم هو القبض على القاتل. أعتقد أن القضاء سيحكم بالإعدام هذه المرة. ولو غيابيا.

الأصفر: ما رأيكم في الحكم بالبراءة؟

الأبيض والأسود والأزرق معا: ماذا تقول؟

الأصفر: حلمكم أيها السادة. لو منح البراءة في المحكمة فسيظهر حتما. تحكمون عليه بالإعدام وتنتظرون أن يقدم عنقه للمشنقة؟ سيغوص في أعماق الطبقات الأرضية، ويشعل النار والجريمة في آبار البترول.

الأزرق: فكرة ذكية.

الأسود: (مترددا) أخشى أنه يصعب تبرير البراءة قانونيا.

الأبيض: لم يتهم شخص معين حتى الآن رسميا.

الأسود: الفكرة تحتاج إلى المزيد من الدراسة.

رمادي: قي قي قي.. قو قو قو.. قا.. قا.. قا..

الأصفر: وها هو حضرة القيقيقي. من يدري؟ قد يكون قاتلا أيضا!

الأزرق: الألوان تفرخ كالجراد هذه الأيام. ولا يعرف إلا الله ماذا تخبئ تحت زعقاتها المتشابهة.

الأسود: القيقيقي يقتل؟ أنتم تخافون من حلاليبكم.

الأزرق: الاحتياط لا يضر وقد يفيد.

حبيبات الرمان تغني

نحن حبيبات الرمانْ

نخرج من تاريخ الجدرانْ

نسخو بالحب ونسخو بالدمْ

ونشق القشرة عن جسد الإنسانْ.

الألوان تلعب الورق

الأزرق: روندا.. ارشم.

الأسود: في جوج.

الأصفر: ما ترشمش.. ثلاثة.

الأبيض: ربعة.. ارشم ربعة.. لرباي.

الأزرق: وأنا لرباي. كشفو الوراق.

الأصفر: وأنا لرياي.

الأسود: مستحيل.. وأنا لرياي. كشفو الوراق.

الأبيض: ثمانيا دلرياي؟ كيفاش؟ السادات! لكارطا خاسرة.

1976

السعال

العصر، والجو بارد رغم الشمس، الريح تجلد الجبال والسهوب، وتجعد المياه في الأودية، وهي جالسة على مزود محشو بالتبن أمام «الكانون». ابنها لا يسمع له صوت في الدار، لابد أنه ذهب يستلف الشعير. «البغل»... يتيه في المطر والبرد، ويطرق أبواب الناس، و«العقرب» تأكل خبز القمح وحدها في الخفاء... يا خيبة الأولاد! مدت يدها إلى الرف، وتناولت كسرة الخبز اليابسة ووضعتها على المجمر. أبوه هو الذي زوجه، بحث في كل الجحور حتى اختار له «العقرب الصفراء» وزوجه بها ثم طرده... حين تتذكر الماضي تتحسر على العمر الذي قضته تحطب وتشطب وتخبز... كالعبدة كانت، حين رحلت بناتها إلى دورهن تزوج عليها «شيبة الحمار» وطردها إلى دار ابنها لتحطب وتشطب من جديد في دار «العقرب الصفراء». شمت الرائحة فاختطفت الكسرة المحترقة ونظرت إليها ثم أعادتها إلى الرف.. لولا هذا السعال.. كانت السعلة واقفة في جوفها تهم بالخروج فتزم شفتيها وتحبسها في الداخل.. لو انطلقت لما وقف الكح حتى تلفظ الدم. الريح تعوي في الخارج

كالكلبة، والبيت طويل وخاو وبارد كالقبر. حين تتذكر العمر الطويل تطلب الموت ولا تجده، والعقرب الصفراء تحيط نفسها بأولادها وتمضغ.. هل يحقر الرجل أمه وينساها بدون سحر؟ سحرت له العقرب الصفراء.. سحرت له. وارتجفت كتفاها وانطلقت السعلة... وتتابع الكح، وضعت يدها على صدرها وتقوست حتى كاد شعرها يلامس الجمر... ستلفظ كبدها على هذا الجمر وتشوى... وأنّت أنينا خافتا ممطوطا. لولا هذا السعال... لو فقط «زوّرها» ابنها، يحملها على الحمار ويتركها في «سيدي عيسى» تجاور عشرة أيام حتى تصح... هل يحقر الرجل أمه ويهملها دون سحر؟... لو عاش الغائب البعيد لما ذلت... الحبيب... نبت العشب على قبره وأكلته البقر... تفتت العظام الطرية... عشرون سنة مرت. في البداية كانت تراه راكبا على حصان أبيض، وحين تخشى عليه السقوط وتجري إليه كان يبتسم وتنحفر الغمازتان في وجهه الحلو الصغير ثم يطلق العنان لحصانه الأبيض ويغيب في الجبال. ومر زمن طويل لم يزرها فيه، وها هي تراه في هذه الأيام.. تراه دائما واقفا في جلبابه الصغير ينظر إليها ويبكي... وحين تجري إليه ملهوفة تصدمها اليقظة... الحبيب الصغير... الكبدة... وتجمعت السعلة في جوفها فهربت منها بالتفكير في الجبال والغابات والريح والغروب البارد الصامت، ودفع الباب، ووقف طفل صغير ينظر إليها ولا يكاد يتبينها في رأس البيت، فابتسمت ونادته في بطء محاذرة السعال: «عبد رحمان...».

خرج صوتها ملتويا ممطوطا خافتا كنداء من الغيب، فخاف الطفل وصرخ، ورجع هاربا دون أن يسمع بقية ندائها، ارتجفت واصطكت أسنانها، ولم تعد تفكر في شيء.. كانت تحس فقط بالخواء... والبرد.

اليدائية

الإنسان حيوان ذو يد. هذا أمر يقر به كل العلماء. وهو متأكد من ذلك تماما. ولكن المسألة تحتاج إلى شيء آخر، إلى لَمِّ التفاصيل ونظمها في نسق واحد. ليس عليك إلا أن تبدأ النظرية، وسيأتي التلاميذ والمريدون في الأجيال المقبلة ليطوروها. الفلاسفة الكبار يدشنون فقط قصور النظريات، والأتباع هم الذين ينوِّنها: «اليدائية فلسفة المستقبل... فلسفة المصير الإنساني... فلسفة الشباب... إلخ.. إلخ..». لأمر ما كانت البصمات هي التي تفرق بين إنسان وإنسان، ولنفس الأمر ربما، يقرأون الكف أو يرسمونها طردا للحسد. عليه هو أن يكتشف هذا الأمر، وأشياء أخرى مشابهة.

حين تعي يدك، حين تدرك أن لك يدا، وأنها موجودة الآن أمام عينيك، موجودة تماما بعروقها ودمها وجلدها وتعاريج كفها وعقل أصابعها، ماذا يحدث عندئذ؟! أما أنا فيصيبني الرعب وأنظر إليها كحيوان غريب لا فصيلة له، لو انتبهت قليلا لسمعت شخيره البدائي من المسام الدقيقة المتجاورة. المعرفة ضرورية وعليها يتوقف مصيرنا مع هذا الحيوان. نحن لا نخاف الأشياء

حين نعرفها... أنت تخاف الشيء لأنك تجهله... دع عنك أننا أحيانا نجهل الشيء لأننا نخافه، وأننا نخافه لأننا... إلخ.. إلخ.. فتلك مسائل أخرى، وعلى أي حال فهذا كله يحتاج إلى نظرية كبرى تجمع الأجزاء. «اليدائية.. لصاحبها الفيلسوف الكبير... إلخ.. إلخ.». الكتاب الأول عن يدي الإنسان في حالة النوم.. حين حكى لأصدقائه عن هذه الهموم الكبرى ضحكوا منه في استخفاف: «أيها البورجوازي الصغير المتعفن، إذا كان الإنسان حيوانا ذا يد، فليكن، إنه ذو يد يعمل بها لا ذو يد يراقبها». الكتاب الثاني عن يديه وهو وحده، الثالث والرابع عن يديه وهو مع زوجته، الخامس عن يديه وهو في الشارع وفي المقهى وفي أسبوع الشجرة... إلخ... إلخ.. لا يهم، كل نظرية جديدة تلاقي السخرية والاضطهاد في البداية، ثم إننا لا نتحدث في الإيديولوجية، أيها السادة، بل في اليدولوجيا، ذلك لأنني بعيني رأسي هاتين . وأكلهما الدود إن كذبت . رأيت الجيولوجيا تخاصر الانتروبولوجيا في حلبة الرقص، وكانت السوسيولوجيا تعزف والبسيكولوجيا تغني، فقطعت الصالة شامخا في لا مبالاة، وتابعت بحثي عن رفيقتي الحسناء الماكرة: اليدولوجيا.

أيدي الفلاحين مشغولة بالمحاريث وكؤوس الشاي، وأيدي العمال مشغولة بالآلات والسجائر، وليس إلا يدك أنت غير مشغولة بشيء، أنت هو المشغول بها وبأيدي البشر عامة. إذا استطعت أن لا تنظر إلى يديك بالمرة 24 ساعة كاملة، أنت يدائي كبير، أما إذا فشلت فأنت تعرف على الأقل لماذا. إننا ننظر إلى أيدينا لأننا لا نعرفها.

حط على يدي وزقزق.. كانت كفّي فارغة، ولكنه كان ينقر فيها برفق وعذوبة كأنما يقبل. نظرت إليه وأحببته. صغيرا وحلوا وساذجا كفرحة طفل. مشى فوق كفي وزقزق.. تتبع أخاديد كفي الغائرة أخدودا أخدودا كقطرة

ماء. سافر فيها وعاد وسافر وعاد.. وتاه. صحراء كانت يدي والماء كان سرابا. امتدت أناملي دون وعي فربتت على ظهره وجناحيه ورفعت كفي وقبلته، أردت أحسوه فدغدغ الريش الناعم شفتي وذاب قلبي حنانا.. وأفقت. يكايدني... الطفل الطائر الماكر... يا حبيبي الصغير فلتقبل في الضوء أو فليستمر الحلم، ولكن عصفور اليقظة نفور.. يقع على أرض الشرفة وينقر فتات الخبز في حذر، ملونا وجميلا وغامضا كحلم، أسير إليه فيفر.. أمد يدي فيبتعد.. لو لمسته... رغبة اللمس تستعر في كفي وتأكلها، تشعل النار في الأخاديد وتحرق الدقائق الشهيدة دون جدوى، والريش الملون تحت أشعة الشمس مغر. مغر.. بعيد بعيد كوطن وراء البحر... يا حبيبي الصغير طر فوق الماء المالح أو علمني الطيران. رميت فتات الخبز فالتقطه بحذر.. نحن أصدقاء كما ترى، ولا قفص عندي، وضعت الفتات على كفي وقدمته له، فرفرف وزقزق، وحط قريبا، ارتميت فوقه بكل جسمي.. أمسكته ولم أصدق.. كان في كفي.. كنت أراه، أراه في كفي ولكن يدي لا تحسه.. ذبحته ولما أصدق، نظفته ووضعته في القدر مع الماء دون زيت ولا ملح ولا توابل، وحين أنضجته النار أكلته، وجمعت عظامه في كيس صغير وضعته تحت وسادتي ونمت. في الحلم حط على يدي، صغيرا وحلوا وساذجا، عذبا كنسمة. أحسست أنني أنا هو، لي أجنحة وريش ومنقار، وصغير وخفيف، وأحط على كف ذات أخاديد. كنت أنقر من منقاره وأزقزق بلسانه وحين طار طرت فيه. حلقت في السماء وطرت شرقا حتى وصلت الأفق، فوجدت القضبان. طرت غربا حتى وصلت الأفق فوجدت القضبان. طرت شمالا وجنوبا فكانت القضبان، أحسست بالاختناق، رفعت منقاري إلى السماء وأخذت أثقبها، أنقر ثقبا فيلتئم، أفتح ثقا آخر فينجبر. كندف الصوف كانت السماء. رئتي

صغيرة والكون ضيق وفي الأفق القضبان. حططت على يدي ونقرت الخطوط والتعاريج، عششت في عقلة خنصري ونمت. حلمت أنني نمت. وأنني أحلم. أي نوم سأخرج منه حين أفيق؟ وأية يقظة أدخل؟

انتهى الأمر... وها أنتذا تبصر في الطريق بقرة وترى وراءها عجلا أيضا بينما تكون البقرة في الحقيقة شاحنة، ولا عجل وراءها بالطبع. نهايتك مستشفى المجانين، ولكن العزاء هو أن الإنسان لا يجن بالرغم منه. إنه يجن بإرادته... ذلك شيء أكيد قرره العلم، ويجب أن يجد مكانه في النظرية الكبرى. خذ شفرة حلاقة واحفر بها تعريجا في كفك، لعلك بالألم وبالدم تعود إلى الحياة وترتبط بالعالم من جديد. في الحقيقة ليس العينان، كما أعتقد، هما ما أحب في الوجه الجميل، كلا... إنه الجبين، هذا ما عرفته مؤخرا، وعلى الخصوص صفاء الجبين، صفاء البشرة عموما، في الوجه والساق والبطن والعنق والكلام. في البيت تختنق. نفس زوجتك كالريح السموم وهي لا تدري لم تكرهها ولا لم تكرهك. هل أنت تدري؟ احمل حقيبتك وهاجر في أرض الله الواسعة.

العمل مرهق.. الزوجة طبق زبدة مقرف، حرمنا المصون سقطت بين العرق والعطر، والبارمان كالبقول. رفع رجله اليمنى، وضعها فوق رأسه أمام المرآة وقال لنفسه: «شوع» وضحك. لو رأتك الآن لنادت على الشرطة.. ياليت.. أخشى ما أخشاه في مستشفى المجانين، المجانين أنفسهم. لم لا يضعون مستشفى للعقلاء المجانين، المجانين العقلاء؟ تصوّف واصعد إلى قمة جبل، وسينزل عليك العسل والماء وعناقيد العنب، وصل واعبد الله حتى يقصدك الناس من الأقطار. أنت مصاب بداء اسمه الناس، وداوني بالتي كانت هي الداء. دواؤك صبية عذراء في الرابعة عشرة كالبدر.. كلوليتا.. لو

فهمتك زوجتك... كلا.. هذه عقلها من عجين، ولا تفهم إلا في النار والفرن والخشب وما شاكل ذلك. كن خشبا أو نارا. أنت رماد، والقمامة وطنك. ماذا تكره في الحياة أيها الغراب المكشر؟.. انظر كم هو جميل هذا الغروب على البحر!.. الأفق الأحمر.. المياه الساجية.. الـ.. وماذا أيضا؟؟ تابع إذا جرؤت على أن لا تضحك من نفسك.. وقف، وأخذ يدفع جدار العمارة.. هرقل الكبير نفسه لا يدفعها.. لو كنت تعرف السباحة لقطعت المحيط.. أليست جميلة هذه؟ بل رائعة، وتمشي مع هذا الكركدن! شفتاها شهيتان. ماذا لو قبلتها؟ في الحقيقة ما يعجبني في الوجه هو الشفتان... ذلك أكيد. أمسك بكتفيها في بساطة وقبل شفتيها.. الكركدن ينفجر.. اهرب.. اهرب.. ولكن.. لماذا لا يقبل الإنسان شفتين أعجبتاه؟ لو كان الأمر بيدي لأطلقت الحرية لـ... للأشياء أولا لا للبشر.. أيها الآباء.. أيها الأغنياء.. يا رجال الشرطة والجمارك. جاءكم الزلزال.. اخرجوا عراة كالفئران من عماراتكم، واتركوا كل شيء في مكانه.. الكراسي والمناضد والأسرة والمكانس.. الصحون والملاعق والثلاجات والنقود والحقائب.. اخرجوا عراة كالفئران من عماراتكم، واتركوا كل شيء حرا.. السكين يغازل الملعقة دون خوف، الكرسي يرفع يده لأول مرة في التاريخ ويحك بها عنقه. أيها الشوك والملاعق والكراسي والحقائب والنقود.. أيها الأشياء كلها.. خذي حريتك. حينئذ.. حينئذ فقط ستتحرر أنت، وتتحرر زوجتك. الجارية اللعينة.. بعها في المزاد.. مزاد علني، ناد عليها في السوق وصفها، امدحها بكل ألسنة النخاسين، حدثهم عن الزبدة الطرية اللزجة كيف تأكلها والدهن يفيض على شفتيك. الدهن يسري ثقيلا بطيئا مغثيا نحو جوفك، يختلط الودك بالمصارين ويدخل في الأمعاء، تطبق اللزوجة على المعدة والمريء، يختلط البياض والرخاوة واللزوجة في عينيك

وفمك ومعدتك، قل لهم عن يدك في الليل حين تضعها على بشرتها العارية فيصيبك الرعب لأنك قريب كل هذا القرب من هذه الحشرة الكبيرة، وحين تسقط على رجليك: مولاي لا تبعني، ارحم قلبي الذي لا يحبك، قل لها: أريني هذا القلب الذي تحملينه، خذه واغسله بالصابون سبع مرات، وافتحه بموسى وأفرغه من الزبدة، ثم املأه بالدم، ورده إليها، أو ارمه في البحر.. نعم.. في البحر.. سار على الرمل بطيئا فارغ الذهن، لا انتظار.. لا ذكرى.. نزع حذاءه فقط وجوربيه، ولمس الماء البارد في حذر، وتابع التقدم ببطء، وصل الماء إلى ركبتيه.. إلى بطنه.. إلى عنقه.. غاب تماما.. وانداحت دائرة من الودك فوق سطح الماء.

رؤيا حمداش

الفصل الأول

قالوا له: «تعال يا حمداش». وضعوا على عينيه نظارة ملونة، وركبوا في فمه طاقم أسنان مذهبا، وأطلقوه في الشوارع مزهوا يتفرج على وجهه المتحضر في مرايا الفترينات.

السفر الطويل الطويل.. السفر الطويل وراء الضحكة التي سبتها من فم الطفل كتائب الغربان. السفر الطويل المتعب والجوع والعطش والحزن والقهر، هل انقضى كل ذلك حقا؟ تَذَهَّب هذا الفم الأدرد وانبجس في العيون قوس قزح، ولكن شيئا في مؤخر الجمجمة يشكه كالإبرة، ويدفع إلى وجهه المتشارق بالعبوس القديم.

«مؤسسة لوي لوكنت. السحب غدا. اشرب يوكي. باطا. ومنين أنا ومنين انتايا. ريال على الله. الأرقام الرابحة. تسيري؟. عندك شي الف فرنك حتى لغدا. بنات البارات وبنات الليسيات. واحد فيو باب آلعربي. سوير سوير ماروكسوير. هنا الرباط..».

كان الوقت صبحا. الأفق مذهب والنسيم حي والحقول تتهامس في خفوت. متواطئة كانت الحقول، والأفق فخ، والنسيم ريبة. الضحكة كانت هناك، على فمه الطفل مترعة بالفرح والغبطة لا تسعها السماء المغسولة الرحبة. وفجأة، وكما ينقطع تيار كهربي، اختفت الضحكة. أظلم الأفق وزأرت الغابة ونعقت الغربان. أسرع يعدو لا من خوف، يعدو ويلهث لا من خوف، كان يندفع إلى الأمام وراء الغربان الناعقة مغتاظا مقهورا. منذ ذلك الصبح وحمداش يعدو ويلهث من أمل لا من خوف، حتى أحاطوا به وجروه إلى الأرصفة قائلين:

«تعال يا حمداش» وذهبوا فمه الأدرد وقوزحوا عينيه اللاهثتين وأطلقوه في الشوارع مزهوا يتفرج على وجهه المتحضر في مرايا الفترينات. ولكن نسغا في مؤخر الجمجمة كان يخزه كالإبرة مرة ومرة قبل أن ينفجر كرمانة ذات مساء.

الفصل الثاني

أنا حمداش. أخاكم وشريككم في الضيق والحسرة والجراح. سافرت شهورا في قاع العين الحمئة التي عند مغرب الشمس، ما رأيت أريكم، ما سمعت أبلغكم، لكن أبدأ من أين؟؟

في البدء رأيت غابة عذراء، وكان الوقت فجرا، رأيت المياه والأشجار والأعشاب، ورأيت الأحجار والتراب الأسود الساخن الخصب، شممت عطر الأرض وسمعت موسيقى الأرض وأترعني الصباح الطفل حتى الحافة فدُخت. تراءى لي الضوء والصوت والأملاح والأوكسجين وبيكاربونات الصودا والموشحات والمداد والعقارب والأوراق والثمار والصراصير والطيور والظباء والأرانب صحت:

وأين الناس؟ سقطت مدينة عظيمة كما لو من قرن الشمس البازغة وسقطت معها الكهرباء والدخان ورأيت السكارى يبولون في الشوارع وامرأة متوجة على باب الميناء شاردة النظرات وراء حبيبها البعيد قلت من أنت يا سيدتي. قالت: أنا الملكة ديدو. غضبت حتى اشتعل أنفي وصرخت: اقتلعوا حجارة قرطاجة وارجموها ولتحترق مع أشجار الغابة كل الأخطاء وكل الخطيئات.. جردوا الملكة الزانية من ثوب المجدلية وارجموها. سمعت في الفضاء قهقهة ورأيت إصبعا نحوي تمتد.

الفصل الثالث

جريت وكانت الدقائق تزحف كالخيول ركبت سيارة خرجت بي من المدينة نحو أرياف مقفرة جرداء قلت: هذه طريق أنوال، ضحك السائق وأجابني: لم يشق إليها طريق بعد، انزل هنا وسر مسافة سبع ليال على قدميك واسأل البدو يرشدوك هل أنت غريب؟ نزلت دون أن أرد... جردني البدو من الحقيبة والساعة والنظارة والبذلة وشهروا علي السكاكين، قلت: أنا حمداش أنا أخوكم، فما نطقت إلا السكاكين ولا منقذ أعرف مكتوب من مات مرة لا يموت أخرى، ومن لدغ مرة يلدغ مرات حتى يؤمن يا سيدي يا ابن طفيل أنا «حَيٌّ» وأنا ملدوغ فأشاح وحجب عني معرفة الخواص. نبت أمامي رجل أصلع أكمد الوجه مكتوب على جبينه «سقراط» قلت يا سيدي.. قال: اعرف، قلت: أنا جاهل، قال اعرف نفسك، قلت: وراء ظهري الحائط وأمامي البنادق وأنا شاب يقولون فاسد، قال: مت. ورأيت يوحنا وسمعته يهمس: «من غلب فإنني أوتيه المن الخفيّ وحصاة بيضاء مكتوبا عليها اسم حديد لا يعرفه أحد إلا الآخذ»، قلت فوق رأسي صقيع القطب وتحت قدمي

خط الاستواء، لا تكن فاترا قال ومر يسعى وراء حصانه البيضاء. جريت عاريا كجدي آدم في القفر الموحش حتى انقطع ورائي الخطو لا شجرة في القفر فأخصف من ورقها ما يقيني البرد والحر والحيرة. وحيدا كنت كحصاة مصمتة فوق التراب:

«يا أيُّها الترابُ الأسْوَدُ الخائنْ

يا أيُّها الترابْ

كُلُّ الأحبَابْ.

خَلْفَ البحْرِ وخلْفَ القبر وخلف الجدرانْ

وَأنْتَ حتَّى الآن

أيُّها الأرْمَلُ الخَائِنْ

سخيّ سَخِيّ وسَاخِنْ»

صرخت حتى كاد ينشق جدار الحصاة: «يا تراب» . ما اسمك؟ . حمداش . ما اسمك؟ . حمداش . ما اسمك؟ . أنت ثقيل السمع . أنت خافت الصوت . لساني مغلول . لا تكن فاترا. صرخت: ها أنذا عَارٍ. قالت نملة: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، قلت: ها أنا عَارٍ، قيل: اكشط جلدك، قلت: يسيل الدم، قيل: تعرى . «يا تراب» . ما اسمك؟ . ورائي عبد الكريم وأمامي الغد . من أنت؟ . سمني . لم تولد بعد . كن قابلة . أين وجع الطلق؟ . على جبيني العرق . ماء . على جبيني الطوب والتراب والغبار . ماء . أكاليل الشوك . ماء . الدم . ماء. قلت: فلأمت، قال الموت: لا أقبل الاستدعاء إلا من الأحياء. يا رياح الكون الأربع فلأكن ذرّة غبار، صفرت الرياح ومرت بي ورأسي منحن إلى الأرض فلم تهزني ونعمت يائسا بالسلامة الآسنة.

«رُسُلَ الماضِي والحَاضر والمستَقْبَل كالطَّيْر مُعلَّقةٌ أنْتِ عَلَى عُنقِي قُلْتُ وقُلْتُ مَلامِحَ وَجْهِي الضائِعِ كَيْفَ ألْمُّكِ..».

يا أنا صرخت فما رد شيء.

الفصل الرابع

دَبَبْتُ على الأرض كما الحشرة نفَّضتُ قرون استشعاري ودببتُ فأطللتُ على مثلِ المحشرِ، أبصرتُ ألوفا أطفالا ورجالا ونساء. من أنتم؟. كنا أطفالا قتلى في جرسيف وقاتلُنا. قالوا. بوحمرونٌ فهل حُوكم؟ لم أكُ أعرفُ، من أنتم؟ .كنا عمالا بالنفق 38 وأضربنا. أنتم؟. كنا فلاحين وكنا قبل 1912 نملك أرضا في الغرب. وأنتم؟. مرضى في كل المستشفيات. وأنتم؟. نكنسُ. نمسحُ . نصبغُ. نطحنُ. نصهرُ. نبني. نرصفُ. نشحذُ. نسرقُ. نحيَا بالكادِ ونعملُ حتى فاض على جبهتنا العرق المالح أحمر متسخا وتساقطَ في الأيدي الناعمة البيضاء ملاييرَ من الورق البنكيِّ جديدا يذبحُ أعناق الطير، ومن خلفي كانت تمشي امرأةٌ مذبوحة. يا سيدتي قلتُ ومن أنتِ؟ (من أين لها هذا الدمُّ؟ رأيت الدمَ يقطر من زمنٍ والمرأة تمشي، من زمنٍ والدمُ يقطر لا وقفتْ لحظة تستريحُ ولا انقطع الدمُ) يا سيدتي قلتُ ومن أنتِ؟ فما ردت. يا زمَن الخلف أين زمان الأمام ويا تراب، أرني نفسك، أرني نفسي، اللحظةَ شختُ وما زلت سجين القاع... استيقظ حولي سمكٌ يفغر فاه، أيا سمكَ القاع أنا لست نبيا لؤلؤُ هذا البحر يفر إلى الأعلى فلترفعني رافعة اللؤلؤ فلترفعني رافعة اللؤلؤ. ما أن تظهر حتى يلقطك التجار. ناديت الغرقى في كل بحار العالم واسْتَوْفَزْتُ اصَّاعَدْتُ رأيت القمر الغارق يبكي ضوءا ورآه الغرقى فتناثرت الطلقات من الشطآن فجئت إليكم وأنا أعلم أن العالمَ ليس كما نقرأ في

الجغرافية قارات خمس. العالم قارتان: قارة الغرقى وقارة التحار فأين تقعون.
فررت إليكم أنا حمداش. أحاكم في الضيق والحسرة والجراح. أسألكم:
أين تَقَعُونَ تَقَعُونَ تَقَعُونَ تُوقَعُونْ.

الأعرج يتزوج

«العشب ينمو. العشب ينمو»

«أنا أحني رأسي لك يا عشب»

(شاعر ألماني)

مرزوقة شفتاها بلبلتان

مرزوقة؟.. هي. على ظهرها صرة تحملها تحت الإزار، وفي أذنيها تلمع الأقراط. الشمس حامية والأقراط الكبيرة تعمي العيون. مرزوقة تقترب وأنا أقترب، أسلم عليها؟ (أقبل يدها فتقبلني في جبيني أقبل خدها الأحمر كشمس العصر وأقول لها: احعليني ابنك، واحمليني كالمزود فوق ظهرك).

مرزوقة اقتربت وأنا لا أعرف ماذا أفعل، أهرب؟ لماذا؟ هل هي غولة؟ ولكنها تقترب، لو أنها تبقى هكذا... لا تصل أبدا ولا تغيب أبدا، مرزوقة... مرزوقة... مرز..

– ولد من أنت يا حبيبي؟

– ولد حمداش.

– آه... ولد رحمة، والله ما عرفتك، امك لابأس عليها؟

– لابأس.

انحنت مرزوقة على وجهي، وسوسة الأقراط.. السواك.. الصفصاف.. السنابل.. الضحك.. نبض اللحم..

– سبحان الله.. حروفه علي جروف أمه، ورفعت ذقني بسبابتها، وقبلتني في فمي، شفتاها رغم الظهيرة بليلتان، وأنا أحببتها.

زمن الرجال

«الحاج مهدي رجل ولا كالرجال، ملك التراب وتزوج النساء وقتل الأرواح، وعرف من الحلو والمر ما لا يعرفه الناس اليوم.

في أيام «السيبة» قبل الاستعمار، أطلق النار من «شرقيته» في كل القبائل المجاورة، ووصل خبره إلى المدن، وحين غلب المستعمرون، وجردوا الناس من أسلحتهم، استغمل سكينه، قتل مخزنيا من حرس الكابتن، وغنم بندقيته، وفر بها إلى الجبال حيث أصبح «قائد مئة» في جيش عبد الكريم، ذلك زمن يومه بعمر. شرب الشاي مع عبد الكريم نفسه وقتل من المستعمرين ضعف ما قتل من المغاربة في أيام «السيبة» أو يزيد. لم يكن يحسن التصويب، ولكنه كان من الشجاعة بحيث لا يضرب إلا عن قرب. وحين رأى الخيل والأحزمة الصفراء في ذلك اليوم العصيب لم يتراجع. ربض بين صخرتين ولف بندقيته الساخنة بعمامته وظل يضرب حتى دخلت الرصاصة الملعونة في عموده

الفقري. من يومها فقد المهدي طعم الحياة وتحكّم المستعمرون في رقبته كما تحكموا في رقاب الآخرين، عاش بتلك الرصاصة أربعين عاما قبل أن يموت. ولكنه كان قد فقد طعم الحياة، احدودب ظهره واعتمد علىالعكاز وعلى ابنه «المخَتار»، و«المختار» لم يكن رجلا، كان تاجرا. يتصرف بالفلوس لا بالرصاص، النار تلد الرماد، قالها الأولون. جاء زمن التجارة والأسواق الآمنة والكتان الملون، فانطفأت النار، ولمع الرماد.

حج المهدي إلى بيت الله مرتين، ووضع في يد ابنه الأرض والماشية، وانزوى في غرفة صغيرة يأكل الكسرة و«يقرقب» السبحة، ويحكي –إن وجد السامع– عن زمن الرجال.

«المختار» لم يركب الخيل، سار على قدميه وراء البغال المثقلة بأحمال القماش المهرب، أكل مع المستعمر، زور عقود الأرض، وسخر مع ضيوفه التجار من شيبة أبيه.

لعن الحاج المهدي الزمان واستبطأ عزرائيل. فقط حين سمع بأذنيه الثقيلتين لعلعة الرصاص ورأى البنادق على أكتاف رجال جيش التحرير، فقط حينئذ أفاق لنفسه وقرر أن... يتزوج.

ولم يفطن «المختار» حتى وجد مرزوقة في الدار، وعرف أنها زوجة أبيه الجديدة، فصفق كفا بكف «لا حول ولا قوة إلا بالله، الدنيا كلها أصبحت مجنونة هذه الأيام» ودخل مع أبيه في صراع مرير لم يطل، فقد مات الحاج المهدي، مات وسط ضجة الاحتفال بالاستقلال فلم يأبه أحد بالهمسات الخافتة التي تسّارت بها النساء عن سبب موته، ولكنه لم يمت حتى ترك مرزوقة حاملا، فولدت محمادي، وغدت خادمة في بيت ربيبها «المختار» تشطب وتحطب وتجلب الماء وتحكي لابنها الصغير عن أبيه وعن زمن الرجال.

مرزوقة لا يحبها الرجال

مرزوقة كانت في الأربعين، وأنا كنت طفلا في العاشرة، وحين لهث الكلب قفزت خارجا من الدار فوجدتها تهدد الكلب الشرس بقصبة رقيقة.

– خالتي مرزوقة؟

– لولا القصبة في يدي لأكلني.. هو الذي يمنعني من زيارتكم... ماذا تفعل أمك؟

كانت أمي تصبن في مراح الدار المشمس، عانقت مرزوقة، وتبادلتا قبلا كثيرة على الخدين، وجلست أمي تتابع التصبين وإلى جانبها جلست مرزوقة. حملت أنا الثياب المغسولة وخرجت لنشرها فوق السطح، وحين عدت كانت مرزوقة تحكي عن محمادي :

– يريدونه راعيا يظلع طول النهار وراء غنمهم التي يحلبونها وحدهم. قلت لهم انتظروا حتى تموت مرزوقة أولا. أبوه قبل أن يموت أوصى بإدخاله إلى الجامع، فلماذا يخرج منها؟ طفل صغير يا أختي ويتيم، وبرجل واحدة، كيف يرعى الغنم؟

قالت أمي:

– محمادي يرعى الغنم، وابنه هو يجلس في الدار ويأكل الزبدة.

– يا أختي ابنه بشاربه ولا تراه الشمس «عبد السلام زد هذا الكاس... عبد السلام كل هذا الفخيذ، عبد السلام نائم... اسكتوا».

– آه يا سيدي.. ابن القايد هذا..

– ولولا عيني على محمادي في الليل والنهار لقتلوه قتلا.

– يفعلونها وأكثر منها، ألم يرموه المسكين من سطح الدار حتى كسروا

رجله. قلت لمرزوقة لماذا رموه يا خالتي؟

– لأنه يتيم يا ولدي، «الله يخلي لك امك واباك». قل لي: هل يضرب الفقيه محمادي في الجامع؟

قلت لها: إنه يضربنا جميعا، أنا أحب أن أرعى الغنم.

– لا.. يا ولدي. لا تقل هذا، ضرب الفقيه ولا الشمس والشوك والجوع.. هاتي عنك يا أختي.. استريحي ودعيني أكمل التصبين.

وضعت القصعة الكبيرة بين رجليها وأخذت تضرب القميص المتسخ في الماء الدافئ حتى تصاعدت رغوة الصابون، سروالها أزرق فيه ورود صغيرة حمراء وصفراء، وفخذها رحب، قامت أمي لتقلي بيضتين، وأنا وضعت رأسي محرجا على فخذ مرزوقة الدافئ، وأغمضت عيني وتضاحكت مرزوقة:

– أيها الشيطان الصغير، تريد أن تنام في النهار.

وهدهدت فخذها تحت رأسي:

«أنعس آوليدي حتى يطيب عشانا»

«وان مطاب عشانا يطيب عشا جيراننا»

صرخ أبي وهو يدخل: أين أنت؟ أجابت أمي داخل البيت: أنا هنا.. ما لك؟

قفزت أنا واقفا، وقامت مرزوقة لتسلم على أبي ولكنه زوى ما بين عينيه وحول وجهه نحو باب البيت المظلم، وفيما هي تحاول تقبيل يده الهاربة كان هو يشخط في أمي:

«الصابون.. الصابون.. الصابون.. من أين آتي أنا بالصابون، لا تفعلون شيئا غير التصبين، هل أنا أذوّب الفلوس».

لم يلق على مرزوقة نظرة واحدة.. دخل إلى البيت مهمهما، ومرزوقة انكمشت كالقطة في جلدها، لماذا لا يحبها والدي؟ مرزوقة لا يحبها إلا النساء والأطفال أما الرجال الكبار فيزورون ما بين أعينهم ويتجاهلونها، التقطت طوبة ورميت بها دجاجة قريبة فتصاعدت قوقأتها في السكون المشحون وهي تفرّ إلى خارج الدار، فتبعتها.

الأعرج يأكل السمن والبيض

محمادي لم يحضر إلى الجامع منذ ثلاثة أيام، والفقيه سألنا عنه: أين الأعرج؟ قلنا له لا نعرف. كل الأطفال ينادونه: الأعرج، مثل الفقيه، أنا خفت، وخجلت.. وقلت له مرة: محمادي، ثم حفظته وصرت أناديه دائما: محمادي. يطوح برجله اليسرى بعيدا قبل أن يطرحها معتمدا على جانبه وهابطا نحوها بكتفه، ثم يرفع اليمنى ويعود جسمه إلى الاستقامة. الأعرج.. الأعرج.. الأعرج.. وأنا أقول له: محمادي. أنفه صغير ليس كأنف أمه ووجهه صغير أيضا كوجه الفأر، وحين تقول له: الأعرج، يقول لك: الأعور، ولا يسكت لك، أنا أخاف مثل هؤلاء الأولاد، صغير كالحمصة وحاد كالشوكة، أمه أحسن منه. ولكنه لم يحضر منذ ثلاثة أيام والفقيه سأل: أين الأعرج؟ قلنا له: لا نعرف.

في الظهر بعد أن خرجنا من الجامع، لقيت «عبد السلام» بن المختار عائدا من السوق، كان يركب بغلة أبيه، ورأيت في الخرج بطيخة كبيرة، سوداء، سيعطيني الحلوى إذا طلبتها منه، هل يحسب نفسه رجلا؟ شاربه ظهر، ولكنه طفل أيضا ولو كان كبيرا. سألته: أين محمادي؟

– محمادي؟ الأعرج؟ هو في حضن أمه، يقول لها: أنا مريض حتى تعطيه

السمن والبيض.

– هل عندك حلوى؟

– الحلوى؟ ألنت صغير حتى تطلب الحلوى؟

وابتعدت البغلة به. كالمخزني الذي يأتي إلى دار «الشيخ». ينظر إليك من فوق ويقول لك: أنا أحسن منك، وإذا لم تصدق ضربتك. لو كان «عبد السلام» في الجامع لضربه الفقيه حتى يزرق جلده الأحمر، حين أكبر... إذن محامدي مريض؟.. الأعرج مرض! الأعرج يأكل السمن والبيض.

برد الصبا

في الصباح التالي.. حين كنت خارجا من الدار، رأيت أبي يحمل الفأس ويسبقني، وحين لحقته أمسك بيدي وسرنا معا، الصباح بارد، والضباب مخيم، الضباب يتراجع صامتا أمامنا كلما تقدمنا... قرب للمقبرة وقفنا، ورأيت رجالا يحفرون، أقفل أبي صدفة قميصي العليا وقبلني:

– يالله.. إلى الجامع.

قلت له: من مات يا أبي؟

– إلى الجامع.. قلت لك.

– قل لي أولا من مات؟

نظر إلي، قال بسرعة: ولد مرزوقة. وانحرف نحو الرجال.

الفطيرة مالحة

«يا مختار، مرزوقة امرأة أبيك.. لمن ترميها؟» كل جمعة تحمل مرزوقة

فطيرتها وتذهب إلى القبر. في البداية كانت تنوح وتحثو التراب على رأسها وتنادي محمادي، ثم أصبحت تجلس صامتة جامدة في إزارها الأبيض كشاهدة القبر، وحين يمر الناس في الطريق القريب تناديهم «تعالوا كلوا من الصدقة» فيسرعون في خطوهم دون

أن يردوا.

«يا المختار، ابنها مات.. اصبر عليها قليلا». ولكن المختار صمم على طردها من الدار. فهو يريد أن يزوج ابنه عبد السلام، ويسكنه في غرفتها، ثم إن مرزوقة لم تعد تعمل شيئا، في النهار تدور في الحقول المحروثة، وتجلس على أحجار الحدود، وفي الليل تأوي إلى حجرتها الصغيرة بدار المختار، وكل جمعة تحمل فطيرتها وتذهب إلى القبر. «تعالوا كلوا من الصدقة».

وقلت لنفسي: لماذا أهرب منها؟ هل هي غولة؟ وعرجت نحو المقبرة، اقتربت ببطء، ولم تربي. كانت تلعب بالحصى على القبر، قبر محمادي صغير جدا ومحصور بين حجرتين طويلتين. كيف يتسع له؟ حين سقط ظلي على القبر رفعت مرزوقة عينيها ورأتني.. ارتبكَت، ثم بحثت بعينيها عن الفطيرة ومدتها إلي «تعال يا ابني كل من الصدقة» أردت أن أقول لها: شبعان، ولكنني... لم أعرف... لم أقدر. كسرت قطعة صغيرة من الفطيرة ومدتها: «كل هذه فقط» فأخذتها وجلست إلى جانبها أنظر إلى القبر وأمضغ اللقمة المالحة في صمت.. مدت إصبعها إلى القبر «أرأيت؟ الربيع نبت على قبره».

أجهشت بالبكاء «أأخفتك؟ لا تبك.. أنا لا آكل الأطفال... تسمع يا محمادي؟ الأطفال يبكون مني. أمهاتهم تخوفهم بي، لمن تركت أمك يا ناكر الجميل؟ حتى أنت تهرب مني وتتركني وحيدة. ارجع يا حبيبي أو خذني معك، محمادي.. أتسمعني؟ محمادي.. قتلوك يا حبيبي.. قتلوك».

كانت تتكلم في خفوت، وأردت أن أقول لها: أنا أبكي لا من الخوف.. ولكنني.. لم أعرف.. لم أقدر، وحين نهضت لم تلتفت إلي، ومشيت في حذر دون أن تراني، وحين ابتعدت قلت لنفسي: الموت كحرف الهاء، وعبد السلام كالمخزني، والفطيرة مالحة ومرزوقة ما عادت تحبني.

«يا المختار.. ابنها مات» ولكن المختار يرد على الناس:

– أعرج ومات.. هل مات النبي؟ كان أخي أنا أيضا ودفعت من جيبي نفقات الجنازة وصدقة السابع.. الموتى الله يرحمهم، والأحياء بطونهم مفتوحة.

– يا المختار.. الناس..

– على الأقل تشطب الدار، تربط البقر.. تجلب الماء.. تحلل الخبز الذي تأكله.

– هل تريد أن يلعب الشياطين برأسها وتحرك إلى المحاكم؟

– أنا أيضا شيطان، والشرع هو الذي، شيني، ليحربوني.

– يا المختار.. السياسة خير من صداع الرأس.

– وهل أنا لا أحب السياسة. أنا سأزوج ابني والدار ضيقة.. لماذا لا يحوزها الذين يتكلمون؟

الموت كحرف الهاء، والفطيرة مالحة.. هممت بالبكاء ولكنني أحسست بالجوع فعدوت نحو الدار.

الأعرج يتزوج

لم أعرف ما حدث إلا في الصباح، لم أنم تلك الليلة في دار العرس، قالت لي أمي: «اذهب مع أبيك إلى الدار الآن، وغدا حين تخرج من الجامع

تعال هنا لتتغذى معي». وعدت مع أبي ونمت.. ولم أعرف ما حدث إلا في الصباح.

من ساحة الدار رأيتهم، وجريت حتى لحقت آخر الجماعة، أكثر من عشرة رجال يتبعون «الشيخ» والدركيين ومرزوقة بالمهمهمات: «ظهر عليها ذلك من يوم وفاة ابنها... مسكينة.. الكبدة تحمق.. والأخرى ما ذنبها؟... لا حول ولا...» ومرزوقة كانت مقيدة اليدين بالحديد وأحد الدركيين يمسكها من ذراعها، لم أقدر على السؤال، وحين بدأ فضولي يغلبني، وكنا قد وصلنا المقبرة، رأيت مرزوقة تفلت من الجماعة وتجري نحو قبر محمادي، وقبل أن يفيق الرجال من الدهشة كانت مرزوقة قد استلت لا أدري كيف ولا من أين درة بيضاء ملطخة بالدم وطرحتها على القبر الصغير وهي تصرخ وتزغرد كالمجنونة:

هنيا لك آمحمادي.. هنيلك آلعريس... يو يو يو... العروسة عزبة.. شوفوا الدم أحمر في السروال.. هنيا لك آلعريس... يو يو يو يو...».

جرى الرجال نحوها وأمسكوها.. «فقدت عقلها.. حمقاء... الله يحسن العون». وجرها الدركيان من جديد إلى الطريق «حمقت.. حمقاء تماما». وقال أحد الدركيين: «سنعرف هل هي حمقاء أو تمثل علينا». وكان الأطفال قد تجمعوا، والنساء كن ينظرن من بعيد ويتهامسن وسمعت شابا يقول: «حتى العريس لم يكن دخل» وسألت: ماذا فعلت مرزوقة؟ ولم يرد أحد.. ماذا فعلت مرزوقة؟.. رد أحد الأطفال مدهوشا: لم تعرف؟ قتلت عروسة عبد السلام بالسكين.

المؤامرة

الطريق طويل وأبيض بين الأراضي المحصودة المنحدرة على الجانبين، والطفل بدا صغيرا كنقطة. لم يكن يحس بالمنجل في يده... يسير وهو يلوح به ولكنه لم يكن يحسه.. التراب يبرد.. أحس به تحت قدميه الصغيرتين ناعما ومدغدغا كالطحين، والتفت وراءه فرأى خطواته مطبوعة على التراب كما هي: خطوة وراء خطوة. نظر إلى قدمه اليمنى وضغط بها على التراب، ثم رفعها ونظر إلى صورتها المرسومة، نظر إلى الأصبع الكبيرة تتبعها الأصابع الأربع الصغيرة وابتسم: كالدجاجة والكتاكيت. وأحس على جبهته بنسمة باردة خفيفة فتنهد... كم كانت الشمس حارة اليوم؟ ورأى شوكة على جانب الطريق فأحس بالمنجل في يده... ضربها بقوة فأطارها عن جذعها الناحل المزغب ثم عاد فضرب الجذع نفسه وأطاره. أبوه قوي، يحصد طول النهار ولا يتعب. أحس بالراحة حين تذكر غناء أبيه... لم يكن إلا دندنة خافتة تطفو فوقها مرة بعد مرة كلمات صغيرة متقطعة: «يا لـلا.. الغيام.. عشرلاف». الشمس تنحدر نحو المغيب.. سمع الطفل خوار بقرة من بعيد فالتفت ولكنه

لم يرها.. أبوه حين يدندن في خفوت لا يشعر بأحد، ينسى ما حوله تماما، وحينئذ يتباطأ الطفل في جمع حزم الشعير المحصود وينظر إلى الحقول الأخرى. لابد أن أباه الآن يشرب الشاي عند عمته، ولن يصل إلى الدار إلا في الظلام، ولذلك فلن يرى خطوات ابنه الضاحكة على التراب المسحوق. أمه هي التي ستفتح الباب في الليل، أما هو فسيكون نائما.. على الجانب الأيسر من الطريق رأى وجها ملتويا يضحك، وحين التقط الورقة الملونة عرف أنه وجه امرأة، فقد كان في أذنيها قرطان طويلان كقمرين معلقين.. كانت الورقة مكرشة، لابد أن صاحبها رماها بعد أن امتص حبات الحلوى. مر بلسانه على الخد الأيسر للمرأة فلم يذق إلا طعم الورق الأملس. طوى الورقة على أربع ووضعها في قب جلابته الكتانية وتابع سيره. حين يمر تحت دار «العيساوي» فستهاجمه الكلبة البيضاء.. لذلك فعليه أن يخرج من الطريق الناعم الطري ويخترق الشوك والحصى ليراوغها. ولكن دار «العيساوي» لا تزال بعيدة.. والتفت إلى الوادي الأخضر في السفح البعيد فرأى الأشجار والماء وطريق السيارات والمدرسة، ثم صعد ببصره وراء الوادي إلى الجبل المقابل فرأى الغابة والأفق والسماء. جلس على حافة الطريق وأخذ يتابع ببصره سيارة صغيرة زرقاء كانت تجري كالنحلة مع الوادي الأخضر. لو اشترى له أبوه سيارة... من الحديد لا من التراب... يجرها في ساحة الدار على عجلاتها المطاطية ويجري.. حتى يصل.. إلى المدينة؟؟ المدينة هناك وراء الغابة. في الليل يرون أضواءها البعيدة. ليلها كالنهار. والأطفال فيها كالجن لا يخافون. في النهار يقرأون الكتب في المدارس، وفي الليل يلعبون تحت الأضواء الباهرة. أبوه لا «يعرف» اللعب، لا «يعرف» إلا الزرع والشمس والعرق، وفي الصباح يخلعه من فراشه والنجمة بعد في السماء. ربما لحقه الآن في الطريق.. ونهض.

الشمس وصلت إلى الأرض. صارت حمراء كالدم، وتراب الطريق بارد الآن. سمع صفيرا متقطعا ونظر إلى الأمام فرأى الماعز يملأ الطريق والأطفال يركضون ويصفرون. المغرب... وبعد قليل تبدأ النساء في الحلب. سيشرب غرافا من اللبن.. باردا تطفو فوقه قطع الزبد الصفراء.. سيشرب الشاي وينام.. لن يصل إلا في الظلام. وانتفض، ونظر إلى يده اليمنى فلم ير المنجل. وعاد راكضا... أبوه سيسلخ لحمه بالحزام الجلدي.. لابد أن المنجل هناك حيث جلس ينظر إلى السيارة الزرقاء.. كان يلهث حين رأى المنجل فالتقطه ملهوفا، وتطلع إلى الطريق فلم ير أباه، وعاد راكضا كالجدي. كان الأطفال قد غابوا بالماعز.. الظلام يغطي الأرض بالتدريج كالنعاس. بعد قليل لن يرى الطريق أمامه، والتفت إلى الوراء فلم ير أحدا. لا ينبغي أن يكون طفلا خوّافا.. ليس هناك أحد ولا شيء وراءه. لينظر فقط إلى الأمام وليتابع الركض.. ولكن شيئا خفيا كان يجذبه من ورائه.. يجذبه بدون يد كالهواء.. والتفت فرأى شيئا غائما ضبابيا يقبل وراءه من بعيد.. ليس شيئا.. ليس شيئا.. وعاد فالتفت ورآه أيضا، فأسرع في الجري.. وأسرع الشيء الغائم الأسود وراءه.. وأحس بأنفاسه في قفاه فصرخ، والتفت مذعورا فرأى الشيء الأسود لا يزال بعيدا.. وتابع الجري وهو يبكي في خفوت.. وقبل أن يصل إلى «دار العيساوي».. «يدين يدين.. يدين طويلتين ناعمتين ضاحكتين دافئتين.. يدين حنونتين.. يدين أمامه يراهما وتغيبان.. يدين يدين يدين..» وانكفأ على وجهه.. عثرت رجله بحجر نابت.. فسقط ببطنه على سن المنجل الحاد.. كان المنجل يبقر بطنه والشيء الأسود يطبق عليه.. وصرخ لحظة.. ثم غابت عنه الدنيا..

ذلك الشيء

على باب العمارة القديمة، وفي أعلى الجانب الأيمن ثبتت اللوحة النحاسية:

الدكتور خشاف

طبيب نفساني

الطابق الثاني

كان المصعد معطلا، فصعدت السلم وأنا أكبت في نفسي رغبة الاستعانة بالدرابزين. دائما، وفي كل سلم أصعده، أحاول ذلك، ودائما أفشل، وهذه المرة فشلت أيضا. ليس من عياء، ولكن هكذا.. دققت الجرس، الباب موارب، لكن الأدب يقتضي دق الجرس، لم يستجب أحد، فدخلت. وجدتني في ممر مستطيل واسع ومفروش، إلى اليمين كانت منضدة. لممرضة الاستقبال كما يبدو. عليها تلفون وأدوات ودفتر كبير. في أقصى الممر الواسع المستطيل باب مفتوح على صالة يأتي منها حديث خافت.

الممرضة غائبة، وفي الممر يقف شخص طويل جدا بمعطف رمادي وبايب ونظارات يتأمل لوحة معلقة على الجدران في إمعان، وبين الحين والحين ينزع

ويعيد إلى شفتيه البايب دون تدخين. وقفت حائرا، قلت أنتظر الممرضة فربما كان عليّ أن آخذ موعدا. سرت في الممر بخطوات صامتة ذهابا وإيابا، أتكلف اللامبالاة وأقترب مرة بعد مرة من اللوحة التي يتأملها الرجل ذو البايب. اللوحة تحتاج فعلا إلى إمعان النظر. أولا لأن الضوء كان خافتا في الممر، ثم لأنها لا تحتوي على شيء واضح: مجرد حراشف مزغبة بيضاء وحمراء يحيط بها فضاء أسود عميق. وقفت وراء الرجل أتأمل اللوحة أنا أيضا.

«عليك أن تعود إلى هنا بعد سبعة عشر عاما بالضبط لكي تفهمها جيدا» فوجئت بصوته الخشن المشروخ الذي لا يناسب جسمه الناحل الطويل. لا أحد غيري وغيره في الممر. لابد أنه هو المتكلم، ولابد أنه يخاطبني أنا.. إلا إذا كان يخاطب نفسه.. ولكنه التفت إلي في هدوء، وألقى عليّ نظرة أليفة متواطئة وهو يتابع: «اللوحات مريضة هي الأخرى. ومثل الناس أيضا منها ما يصل مع الزمن إلى الشفاء الكامل، ويصبح واضحا وصريحا وبسيطا، ومنها ما يبقى إلى النهاية مغلقا صامتا كبركان في قمقم».

قلت في بساطة: أنا لا أومن بالزمن.

– حقا؟... ولكنك تخطئ، لماذا إذن جئت إلى هنا؟

– ذلك شأني.

وتابعت المشي في الممر الخافت الضوء. يفرض عليك صوته الخشن المشروخ، ويفرض عليك آراءه، ثم يسألك في الأخير كشرطي أو كطبيب، وفي الحقيقة هل يستطيع هو أن يتصور زمانا بحتا..؟ أن يتذكر دقيقة صافية دون صورة؟.. أجل.. ذلك هو السؤال..

– هل تتصور أنت حركة ما خالصة دون مادة تتحرك؟..

أجاب البايب بسرعة كأنما كان ينتظر السؤال:

– وهل هناك مادة دون حركة؟

– ذلك ليس شأني.

– شأن من؟

– شأن المادة.

– ألست مادة أنت؟..

تضايقت.. ولكني أجبت مع ذلك:

– لقد جئت إلى هنا لأجد الجواب عن هذا السؤال.

– اسمع. ذات مرة كنت مسافراً على ظهر باخرة. وكنا في عرض البحر ذات مساء حين... وقفت أمامي الممرضة فجأة: مرحبا، تريد أن ترى الطبيب؟

– نعم لو أمكن.. هل أستطيع أن أراه اليوم؟..

– تستطيع طبعا.. تفضل معي إلى هذا المكتب. سيبدأ الدكتور فورا في الاستقبال.

سجلت الممرضة اسمي والمعلومات الضرورية عني، ثم اختفت. «ألست مادة أنت يقولها في مباهاة، وكأنه ينطق بحقيقة لا تقبل النقض.. ويؤمن فوق ذلك بالزمن!

– تفضل.. الدكتور ينتظرك.

فوجئت.. وأجبت الممرضة محرجا مترددا: ولكن أنا.. أنا هو الأخير.. قالت وعلى شفتيها بسمة الصابر الملول:

– أعرف.. ولذلك تدخل الأول.. نحن هنا نبتدئ بالأخير.. هذه عادتنا.

تفضل.

تبعتها في فرح مرتاب.. فدخلت بي إلى مكتب واسع فخم، وأغلقت الباب دوني. وحين التفت وجدت أمامي رجلا واقفا بسترة صوفية مخططة، وعلى لحيته الكثة تسيل بسمته البيضاء كالرغوة (اللحية الكثة والقصيرة أنا أهيم بها، ربما لأنها تشبه اللحية التي كانت لأبي.. أراها دائما في خيالي مبتلة من ماء الوضوء.. يقطر منها الماء الحنون المتمتم بحمد الله في سماحة المتصوفين، ويختلط فيها البياض والسواد كغبش الفجر أو كغمغمة الأذان).

قلت في خشوع: صباح الخير يا سيدي.

أجاب دون أن تنحسر بسمته الصوفية: صباح الخير.. تفضل اجلس. جلست على الأريكة الوثيرة أمام منضدة خشبية لامعة لا شيء فوقها، وفوراً، وفيما أنا أتأمل سقوط الضوء على الخشب اللامع أحسست بيده ثقيلة على كتفي التي لم تتوقعها، وبصوته الثقيل كالعطر ينفذ في صماخي:

– هاه.. ما الذي يقلقنا؟

بهذه السرعة؟... ولماذا هذه الـ (نا)؟.. قلت مشاكسا:

– هل تريد الصراحة أو بنت عمها؟

– بل بنت عمها أولا.. ثم تأتي الصراحة فيما بعد.

يا للجواب الواثق المغرور! حسنا.. فلنلعب هذه اللعبة.

– أنت ذكي جدا يا دكتور.. قل لي لماذا اخترت هذه المهنة؟

– في الواقع.. لقد اخترتها لكي أسأل الناس بدل أن يسألوني.

– اسمع يا دكتور...

– اسمع أنت يا سيدي.. ألا ترى أن من الأحسن أن نحكي لبعضنا

حكايات مسلية بدل هذه الأسئلة المتكلفة، هل تسمح بأن أحكي لك حكاية وقعت لي شخصيا؟

– أرجوك يا دكتور.. لا حاجة إلى هذه المقدمات.. سأحكي أنا لك.

– إنك زبون طيب.. حسنا إحك.. لن أقاطعك.. ولكن أرجوك لا تهمل أي تفصيل.

– لن أهمل شيئا.. قبل خمسة أيام كنت أسير في حي «الأحباس» حوالي السابعة مساء، فرأيت بابا مزخرفا مكتوبا فوقه بخط كبير:

حمّام شعبي

للرجَال والنّساء

– جميل جدا.. وماذا بعد؟

– الأجمل منه جدا أن لا تقاطعني حتى أنتهي. قلت لطفل في حوالي العاشرة من عمره: «هل يدخل الرجال نهارا أو ليلا؟»، فرفع الصغير حاجبيه وقال: «حين يشاؤون».

– ولكني أرى الحمام للرجال والنساء.

– نعم.

– هل يدخل الرجال والنساء في وقت واحد؟

– طبعا.

– اسمع.. هل هو دوش أو حمام؟

– حمام.

– ويدخل الرجال والنساء في وقت واحد؟

– نعم.

– ويتعرون من ثيابهم.

– طبعا.. وهل يستحم الناس بثيابهم؟

– بدون مايوهات؟

– مايوهات؟ إنه حمام.. لا بحر.

– وينظر الرجل إلى زوجات الآخرين عاريات ومعه زوجته عارية ينظر إليها الآخرون؟

– الناس عادة يكونون مشغولين بحك الوسخ وصب الماء.

– ولكن لنفرض أن هناك أحدا يعجبه النظر..

– ومن يمنعه؟..

وغمز الخبيث بعينيه وهو يقول: «الشوف ما يبرد الجوف».

قلبت الأمر في ذهني وأدرته يمينا ويسارا ثم انتهيت إلى أن الدنيا تتحرك وأنا نائم، قلت لنفسي: هاهم الأطفال يعرفون كل شيء، أما أنت فلا تزال تطرح الأسئلة المدهوشة حول هذا الأمر العادي: اختلاط الرجال والنساء في حمام شعبي.

عبرت الباب المقوس المزخرف ودخلت الحمام، بحثت عن المكتب فلم أجده، لفحت وجهي الحرارة ونفذت إلى أنفي رائحة العرق والبخار، وفي صالة كبيرة جدا كان الرجال والنساء معا مضطجعين عراة إلا من الفوط يستريحون بعد الخروج من الحمام.. اخترقت فراش الأجساد العارية حذرا أتلصص بعيني في أطرافها المغسولة المفتوحة المسام، وجلت في أنحاء الصالة الكبيرة دون أن أعثر على المكتب. قلت لأحد الخارجين من الحمام: «أين

ينبغي أن أخلع ثيابي؟».

فعرته دهشة خفيفة وقال: «حيث تشاء».

– ولكن..

– هل ترى ذلك الرجل المضطجع هناك؟.. إنه أحد «الكسالين» وسيرشدك إلى كل ما ينبغي عمله.

وخطوت إلى الرجل. كان يبدو شابا في العقد الثالث من عمره ولكن وجهه الغائم الملامح كوجه امرأة ثاكل كان يوحي بحياة متعبة وأعباء مرهقة، كان . وهو مضطجع . يلاعب شابا آخر الورق. وقفت بإزائهما قليلا. كانا يلعبان صامتين لعبة «الروندة» وحين يظفر أحدهما بـ «ميسّة» أو «ضربة» كان يكتفي برفع عينين باسمتين إلى صاحبه ثم يعود إلى اللعبة غائم الوجه. كأنهما توأمان. قلت لهما: «أريد أن أخلع ثيابي» فرد أحدهما دون أن يرفع عينيه، «اخلعها».

– ولكن أين؟

– رفعا رأسيهما معا ونظرا إلي:

– هل تدخل هذا الحمام لأول مرة؟

– نعم.

– إيه.. لهذا تسأل إذن، إن ذلك يبدو واضحا على ملامح وجهك.

قلت مغتاظا:

– اسمع يا سيدي.. إنني أريد...

– أن تخلع ثيابك؟

– نعم.

– إذن اخلعها.

– أين؟

– هنا.. لا تخف.. سأحرسها لك.. هل معك نقود كثيرة؟

– سبعون درهما..

– معك ساعة؟

– نعم.

– اخلع ثيابك هنا وخذ النقود والساعة معك.

– إلى داخل الحمام؟..

– ولماذا؟.. هل نقودك متسخة؟

وضحك وابتسم صاحبه في سخرية.

– إلى أين آخذها إذن؟

– إلى المكتب.

– أين هو؟

– هل ترى هذا الباب؟

– نعم.

– الباب الكبير؟

– نعم.

– تدخله ثم تعرج إلى اليمين حيث تجد فسقية ماء بارد...

– بل ساخن (قال صاحبه).

– بارد قلت.. هل نعود إلى حكاية الدجاجة والبيضة؟

– ولكن الماء ساخن يا حمادي. اسمع يا سيدي.. ما اسمك؟ (قال حمادي يخاطبني).

– عبد السلام.

– اسمع يا سي عبد السلام.. حين تخرج من الحمام ستقول لنا هل ماؤها بارد أو ساخن.. والآن، اخلع ثيابك.

خلعت ثيابي بعد تردد. وحين انتهيت كانا قد تابعا اللعب.

– قل لي إذن يا سيدي.. إلى أين أسير بعد فسقية الماء؟

– نعم؟

– لم ننته بعد من قصة المكتب.. أين أجده؟

– آه.. هل ترى هذا الباب؟

– نعم.

– الباب الكبير؟

– نعم.

– تدخله ثم تعرج إلى اليمين.

– اسمع يا حمادي (صرخ صاحبه) قلت لك مائة مرة إن ماءها ساخن.

– ولكني أقول إنه بارد.. بارد.. بارد..

وأمسكا ببعضهما.. حملت ثيابي وابتعدت.. سألت رجلا أشيب «قل لي يا سيدي.. أين أجد مكتب الحمام؟».

نظر إلي صامتا وفي وجهه تساول.

«أين مكتب الحمام من فضلك؟».

– ابتسم وأشار بيديه إلى أذنيه بما يوحي أنه أصم.

دفعت الباب الكبير ودخلت.. عرجت إلى اليمين وسرت في ساحة مستطيلة كبيرة في وسطها أشجار.. وجدت الفسقية أخيرا، ولكن لم يكن بها ماء.. سرت حتى نهاية الساحة وأنا أرتعد من البرد.. دفعت بابا مزدوجا مضبب الزجاج فوجدتني داخل القاعة.. كبيرة كانت ومكتظة بأجساد الرجال والنساء عارية وسط البخار الساخن، كعجول البحر على شاطئ مشمس.. ومالي أنا؟.. أضع ثيابي بجانبي وأستحم.. عشرات الأجساد كنت أمر بينها خجولا مضطربا حذرا وهي مضطجعة في لا مبالاة.. عارية حتى من الثياب الداخلية.. النهود والبطون والأفخاذ والعانات جنبا لجنب والماء والصابون وآهات الراحة تملأ الفراغ الضئيل والجو المضبب المحرور ولا أحد يأبه بي.. لا أحد يأبه بأحد.. ولكن.. كأنما دق جرس.. فجأة.. تركزت عليّ كل الأنظار.. تصور يا دكتور.. أنا المسكين الوحيد الحائر، بصرة الثياب الخجول المعتذرة في يدي.. أخذوا يحصبونني كشيطان بنظراتهم الغريبة التي اختلط فيها الاستنكار والخوف والدهشة والكراهية جميعا..

– هل لك إخوة وأخوات تتقارب في السن معهم؟؟

فوجئت بمقاطعة الدكتور.. ولكني تابعت الحكاية دون أن أرد.. (سخافات الدكاترة).

... لم يتكلم أحد معي.. ولم يقبلني أحد وبدوري . ولأنني كنت قد ضقت بهذا الحمام اللعين وطقوسه الغريبة . أجبتهم بنفس النظرة.. وتناولت في جرأة اليائس سطلا من الماء الساخن أفرغته فوق رأسي، فقط لأبرر، دخولي، ثم لبست ثيابي على مهل وسط النظرات البدائية المدهوشة المستنكرة الخائفة الحاقدة، وخرجت ساخطا إلى الشارع دون أن أفكّر حتى في دفع

أجرة الحمام. حكيت لمعارفي هذه الحكاية فنصحوني بالمجيء إليك.. وها أنذا أمامك الآن.. أنا وحكايتي. فاطرح أسئلتك إذا شئت، ولكن أرجوك.. لا تكن سريع التأويل.

– هل لك إخوة وأخوات تنـ...

– اسمع يا دكتور.. إذا كان ذلك يريحك فقد كان لي إخوة وأخوات كالذين تبحث عنهم.. وكنا ننام معا في غرفة واحدة، وعلى حصيرة واحدة متجاورين، ولكي أزيدك سرورا فقد قمت ليلة وأخذت أحتك بإحدى أخواتي وهي نائمة.. ولكن أرجوك.. أنا مثقف.. وأغلب قراءاتي في البسيكولوجيا.. وأنا وأنت معا نعرف أن هذا شيء وذلك شيء آخر.. فلا تكن سخيفا.

ذهب الدكتور إلى ركن قصي في الغرفة الفخمة وصب لنفسه كأسا شربه في جرعة واحدة ثم عاد إليّ يشد بإحدى يديه سترته المخططة المزغبة كحراشف لوحته ويرفع اليد الأخرى في وجهي كأنما ليوقف في حسم كل احتجاجاتي:

– أصعب مرضاي.. المتعالمون. أنت هنا في عيادتي لأنك تعترف بأنك مريض وبأنني طبيب.. فأجب على أسئلتي دون ادعاء.. إن ذلك أفيد لك...

وإذن فأنا متعالم!.. ألقمني حجرا هذا الدكتور المتعالم هو الآخر، المخطط كحمار وحش والمزهو بنفسه كديك رومي.

قاطعت الدكتور المخطط المسترسل في الكلام بسبابته المرفوعة:

– ألا تريد أن أحدثك عن أهم ما يشغل بالي الآن؟

– بلى.. ولكن دون...

– اللوحة.

– أية لوحة؟

– اللوحة المعلقة في الممر خارج هذه الحجرة.. اللوحة ذات الحراشف.

– مالها؟..

– بين المنتظرين هنا في عيادتك رجل يقول إن هذه اللوحة مريضة، ولقد قلت له صراحة إنه هو المريض..

دق الدكتور الجرس على المكتب فدخلت الممرضة العجفاء.

– أدخلي الرجل... (ونظر الدكتور إلي).

أضفت في عجلة:

– طويل يلبس معطفا رماديا ونظارات ويدخن البايب.

دخل البايب الطويل هادئا وقورا كأنه يدخل مدرج جامعة. حَيَّاهُ الدكتور ودعاه إلى الجلوس. فجلس على كرسي أمامي. قال الدكتور في لطف:

– سنتعارف فيما بعد.. ولكن قيل لي إن لك رأيا في لوحة معلقة في هذه العيادة.. هلا حدثتني عن هذا الرأي؟..

نظر البايب إليَّ مبتسما.. ثم أجاب في هدوء وثقة:

– نعم.. لقد حدثت هذا السيد.. إنني أرى أن اللوحة مصابة بالروماتزم.

ألقى علي الدكتور نظرة متسائلة كأنما كنت أنا الذي اتهم لوحته.. قلت للبايب:

– ولكن الحراشف البيضاء والحمراء.. ماذا ترى فيها؟ الحراشف بالذات؟

– إنها الحياة يا عزيزي (أجاب مبتسما).. الحياة الصغيرة المريضة.. وهذا الفضاء الأسود كالأبنوس أو المخمل الذي يحيط بها.. إنما هو بركة الآلهة ترعى حركة الحياة وتوجهها.. هو القداسة التي ورثها الدين عن الأسطورة وورثها التاريخ عن الدين ثم ورثها الفن اليوم عن التاريخ.

أجبت مغتاظا:

– ولكني لا أرى في هذا الفضاء الأسود إلا الوحل.

– الوحل؟

– نعم.. الوحل.. الطين الأسود المتسخ القذر.. إن حياتك المسكينة هذه تتحرك في الوحل.

وسارع الدكتور إلى التدخل برأيه:

– فليكن الوحل والقداسة معا.. كلاكما يتحدث عن نفس الشيء.. إنه الجنس. وبمناسبة الوحل.. قل لي أيها الصديق، ألم تكن تأكل التراب وأنت طفل؟ كان السؤال موجها إلي فأجبت في دهشة:

– نعم.. ولكن ما العلاقة؟.. (ذات مرة قال لنا المعلم في القسم إن الذين يأكلون التراب تصفر وجوههم.. وقلت لنفسي يومئذ: والذين يأكلون الطباشير كالمعلمين هل تبيض وجوههم؟.. والذين يأكلون غبار الفحم كعمال المناجم هل تسود وجوههم؟.. والذين يأكلون العشب كالبقر والخرفان هل تخضر وجوههم؟ لم أك أعرف.. يا لهؤلاء المعلمين والأطباء والفنانين!! كلهم سواء يأكلون الأشياء ولا تفضحهم الألوان.. ونحن ما أن نأكل شيئا حتى يفضحنا لونه.. لماذا؟..).

كان الدكتور يتابع الحديث مع البايب:

– ولماذا ڤان غوغ بالذات؟

– ربما لأنه يوحي لي بالدفء أكثر.. أنا عندي حساسية زائدة من البرد منذ الطفولة.

هكذا أجاب البايب متأملا.. وتابع!

– تلك هي المسألة يا دكتور.. مسألة الفن.. أن يوحي بالحرية والانطلاق ويوحي في نفس الوقت بالدفء.. أنا أقصد الدفء البيتي يا دكتور.. أقصد الجمر.. .. والعاطفة.

(ولعله لم ير لوحة قط لڤان غوغ. وبهذه الثقة! ولكنه يعرف جيدا كيف يتصرف، ففي مثل هذه المواضيع عليك أن تقول كلاما عاما مثل الدفء والجمر.. إلخ.. إلخ والنهر. «هل رأيت نهرا قط؟!» أين قرأت هذا؟.. مرة أخرى أعبر عن الآخرين حين أظن أنني أعبر عن نفسي.. تختلط علي الأمور أحيانا إلى حد.. ما أنا.. أين أنا؟...).

– إنك تشرد عنا... ألاَ تشركنا في أحلامك؟

– كلا.. لم أكن أحلم.. كنت أفكر في نهر.

– نهر معين؟

أجبت الدكتور:

– لا.. أي نهر.. هل تريد أن أقص عليك آخر أحلامي؟

– تفضل.. إذا كان ذلك يريحك.

– حسنا.. كنت صيادا.. لم أنتبه إلى هيأتي.. ولم أعرف ما إذا كنت أحمل عصا أو بندقية... ولكني كنت أجري وراء وحش، وأحسست بالحر، فأخذت أقلع ملابسي وأرميها قطعة قطعة.. قلعت الدرابزين والسترة والسلم والسروال والدار والعائلة والحذاء والمدير والساعة والكتب والثياب الداخلية.. حتى أصبحت عاريا تماما، فوق رأسي السماء الزرقاء، وأمامي على أعشاب الغابة كان الوحش الهائل الغامض يجري وأنا أجري وراءه في ثقة ثملة.. وفجأة يختفي عني في أحد الأدغال، وحين أطل عليه متلصصا من بين فروع الأشجار

أجده يأكل يوم الخميس.

– يوم الخميس؟!

– نعم كان يأكل شيئا عرفت أنه يوم الخميس. فتقدمت نحوه حانقا مزمجرا وإذا به يقف رجلا قصيرا بطربوش أحمر وشارب منفوش، وبسمة كبسمة يهوذا تقطر لزجة من شفتيه. وقال لي: أنا احماد البارمان.. أقدم الروج بالمجان.

– هل دخلت الكتاب في طفولتك؟

– نعم.

– وكان الكتاب يعطل يوم الخميس؟

– آه.. صحيح (فلأتغاب.. عنده تفسير جاهز لكل شيء كذكان ألبسة هندي) وإذن فهذا يعود إلى...

وفجأة سقطت.. في دويّ مفاجئ سقطت الثريا المعلقة في السقف، على المنضدة الخشبية اللامعة بيننا.. عشرات المصابيح الصغيرة الملونة المشعة والمصلصلة كبغلة تاجر من «ألف ليلة».. فزع البايب وانقلب من على مقعده إلى الأرض.. والطبيب وقف غاضبا متوترا يصرخ في الممرضة التي جاءت مهرولة من الممر..

أما أنا فقد انتزعت مصباحا ملونا صغيرا من الثريا ووضعته في جيبي.. خرجت هادئا من الغرفة دون أن آبه بالممرضة والدكتور.. لقد كنت مكتفيا بنفسي، وبذلك الشيء الصغير الملون الحلو الزوين الزوين الذي وضعت يدي عليه:

«كنت قد قشرت البرتقالة وقسمتها نصفين وإلى جانبي أختي الصغيرة تنظر إلي وإلى البرتقالة في رجاء صامت كالقطة، فصوص البرتقالة كانت حمراء

ريانة باردة هشة تتخللها عروقها المزغبة البيضاء كسواقي المن. وأنا كنت آكلها في بطء.. فصا فصا.. فصا، والقطة الجائعة الصغيرة ترجوني وتلح، وتعدني بشيء زوين زوين وحلو حلو إذا أعطيتها من البرتقالة... أنا أسأل عن الشيء أولا ما هو؟... القطة ترفض قبل أن تأكل من البرتقالة.. البرتقالة تتناقص في إصرار بطيء... البرتقالة تنتهي... والقطة الصغيرة تولي غاضبة دون كلمة.»

1977

النظر في وجهكم العزيز

النظر

السماء بعَيْدَ الفجر، رحابة زرقاء مغسولة، الشمس لم تشرق بعد، الصوت طفل يحبو والكون مشروع حلو يغمز بكل الإمكانات، وعلى سطح الدار كان يمشي. السطح أزرق طويل، والقط أسود إغرتيّاه يرى تحته النهر والأشجار والحقول تبايعه فيوميء لها بنظرته البراقة ويتابع خطوه الثابت التّيّاه غير مبال.

ثم ظهرت السلسلة، امتدت في الأفق الشرقي طويلة ملونة كقوس قزح، ملايين من النقط بيضاء وسوداء، نصف كل نقطة أبيض والنصف الآخر أسود، حية متوهجة متحركة تزحف كأفعى على الأفق الأزرق المغسول. نظر القط إليها في حيرة ثم في خوف ثم في تحدّ، وملأ الجو حوله بالمواء.

في

الأب: أنت امرأة عاقر، هذه هي المسألة، لماذا تحيطين نفسك بهذه القطط السوداء المرمدة وتطعمينها من قوتك؟

الأم: من يطعمها إذن؟ ومن يدفئها من البرد؟ البكماء المسكينة.

الأب: غدا تكبر وتهاجر هي الأخرى، تصبح برية متوحشة إذا كلمتها خمشتك.

الأم: كل الناس تهاجر.. لم يهاجر هو وحده، فلماذا تحقد عليه كل هذا الحقد؟ أليس ابنك؟

الأب: أنا لا أعرف لي ابنا؟ أنا أعرف الذي يعرفني.

الأم: وهل عرفني أنا؟ منذ سنوات وهو غائب فهل عرف أمه ونسيك أنت؟ هل كحلت عيني برؤيته منذ ذلك اليوم البعيد؟ هل جاء إلى حضني ونادى يا أمي؟ الغائب القاسي، يتركني وحدي مع أبيه القاسي.

الأب: كفى كفى.. لماذا تبكين؟ هل يرده بكاؤك؟ عودي إلى قططك وأطعميها، لعنة الله عليك وعليها، وعليه هو أيضا وعلى الدنيا كلها.

الشرطي: شعره غابة كبيرة يرعى فيها القمل الأسود، ونظرته عكرة، لم يكن من الممكن تركه يزرع جسمه الوسخ في الشوارع النظيفة.

الأستاذ: القط حيوان أليف، فكيف تقولون إنه متوحش، أعرف أنه يتوحش أحيانا ويعيش في الغابة، ولكنه حينئذ لا يعود قطا، يصبح حيوانا آخر، يكبر ويتوحش حتى يصير بَبْراً أو فهدا، وقيل والله أعلم إنه قد يصبح أسدا، ذلك حيوان آخر متحول، أما القط فهو بالتأكيد حيوان أليف لطيف ثابت وفي.

الخطيبة: «.. وبعد... لقد توصلت إلى أننا من طينتين مختلفتين، لم تتنازل قط ولا مرة واحدة كما أذكر، فتعمل برأيي... كنت أنت دائما تسخر من «أحلامي الصغيرة الحمقاء» ومن «طموحي» وتتعلق بآمال وأحلام لا ترضى حتى بالتحدث عنها، فإذا تحدثت كنت أكثر حمقا وأدعى للسخرية... كلا أيها الصديق، أنت عدو الأعشاش الهادئة، وأنا أبحث عن عش هادىء، وفقك الله وهداك.. والوداع».

الرفيق I: تنطع سخيف، هروب أحمق إلى الأمام، مغامر لا يوثق به.

الرفيق II: تردد مريب، هروب أحمق إلى الوراء.. محافظ لا يعول عليه.

وجهكم

يَا أَلْوَانَ الخَوْفِ وَأَلْوَانَ الحُبِّ وَأَلْوَانَ الحِقْدْ

يَا أصْوَاتَ الخَوْفِ وأصْوَاتَ الحُبِّ وأصْوَاتَ الحِقْدْ

فِي أَيَّةِ بوْتَقَةٍ أضَعُكْ

وَبِأيِّ مَقَادِيرْ

حَتَّى أسْتَقْطِرْ مِنْكَ الماءَيْنِ الأبيُضَ وَالأسْوَدْ

لَوْ أعْرِفُ كُنْتُ أنَا الإكْسِيرْ

العزيز

الشمس أشرقت، والسلسلة المتوهجة الزاحفة كالأفعى انداحت في الجو وعلى الأرض، وامتدت إلى القط المتحفز فاحتوته. يستعمل أسنانه وأظفاره، يقطع خيطا ليقع في آخر، يضرب النقطة بالنقطة فتتطايران شظايا متعددة من

عشرات النقط الصغيرة المتدحرجة الزاحفة المتناحرة الناحرة.

الأم تبحث عن قطها الأسود الأغر وتناديه. لا جدوى أيتها الأم الصغيرة المسكينة.. لا جدوى. القط الأسود الأغر هاجر وتوحش. عودي إلى قططك الصغيرة الأخرى وأطعميها وادفئيها، فإذا أذن الفجر فدعيها تتسلل إلى السطح الأزرق الطويل لِتَتَشِيمَ البروق المقبلة.

1978

النقطة السوداء

هي ذي صفحة بيضاء، حبلى بكل الإمكانات، ولكنها عذراء أيضا كمريم.

نحط فيها نقطة سوداء، النقطة سوداء جدا في هذا البحر من البياض، وصغيرة جدا في هذا البحر من الفراغ، ولكنها فرحة بوجودها، تتحرك كآدم صغير، تمد أطرافها، تفرك عينيها، تتقلب في فراشها الأبيض، وتمد بصرها إلى الثلج المتساقط حولها.

تعالوا نُسَمِّهَا، اسمك مصطفى أيتها النقطة السوداء، هذا هو اسمك، ولك شارب أيضا، هذا هو شاربك يا مصطفى، أمك الثلج الأبيض وأبوك المداد الأسود، أيها المسكين، هذا هو جدلك، شمر عن إرادتك وخض هذا الجدل من البياض والسواد وكن.

ويا مصطفى، إلى الجامع تذهب حاملا لوحك الخشبي الأملس فتتعلم الأسماء. وإلى الغابة تخرج فتأكل من كل الشجر إلا شجرة الرمان فإنك يوم تأكل منها تتعذب وتشقى.

هو ذا مصطفى يخرج من الجامع فرحا بالحرية والشمس، ينطلق إلى العين القريبة فيشرب ويغسل شعره المتلبد بالصمغ، وقبل أن يعود إلى الدار، تنبت له شجرة في الطريق، فيركب أحد أغصانها ويأمره: «ارّا» فيتحرك، «اشّا» فيقف.

كفى لعبا أيها الشيطان الصغير، وعد إلى البيت، فقد يقلق عليك أبواك. تمد أمه يدها وتفلي شعره الأجعد. أمه صغيرة الجسم، ولكنها ساحرة تتحول في الليل فقيها أبيض الجلباب أصفر البلغة يركب بغلته الشهباء ويطوف في الأسواق يفتي ويجبي.

يمد أبوه يده ويفرك أذنه. أبوه ضخم الجسم كث اللحية ولكنه مسحور، يتحول في النهار عبدا أسود يرعى الماعز ويحصد الشعير ويفتل الحبال ويحمل الحطب إلى الفران والحمام.

لنترك مصطفى يرتاح بين أبويه، وتعالوا نغن له أغنية صغيرة حتى ينام:

«ذَاتَ أصيلْ

كَانَتْ طفلة

على رأسها فُونارةٌ حمراءْ

تقفز فوق الأحجار المتْربةِ وفوق الأعشَابْ

لاهيةً مُترعةً بالشمسِ وبالريحِ وبالأفُقِ الأملَسِ كالسجَّادْ

ذات أصيلْ

كانت الطفلة راعيةُ الأغنامْ

تُقَرقِب في صَحن القَصْدير الفارغ بحَصَاةٍ ملساءْ

وتُغني: أيا آيا يا.. أيا آيا يا...

من كَانَتْ تلك الطفلةُ راعيةُ الأغنام تُنادي؟

من تُنادي الآن؟».

نام مصطفى، وحين يبعث، سيقف أمام رضوان حارس الجنان. هو ذا مصطفى أمام الملاك، من الأدب يغض طرفه، ومن الخجل تحمر وجنتاه. ولكن الملاك يبتسم له ويحنو عليه:

– يا مصطفى، أنت عبد صالح، حفظت القرآن وتهجدت به في الليل والناس نيام، فرضي الله عنك واصطفاك وسمح لك بدخول الجنة.

– سيدي.. أبي وأمي..

– قد شفعك الله في أحبهما إليك، هذا تصريح لك بدخول جهنم تدخلها دون أن تؤذيك نارها وتعود بأبيك أو بأمك، بأحدهما لا بهما معا، هكذا أُمرت.

ويحتار مصطفى، ولكنه ككل العباد الصالحين، يحمد الله ويسلم بالقضاء، ويأخذ التصريح.

يدخل مصطفى إلى جهنم طفلا صغيرا حافي القدمين ملبد الشعر بصمغ الجامع، يحمل لوحه في يده ويتهجى:

«يا نار كوني بردا وسلاما على مصطفى الصغير، يا نار وأرشديه إلى أبيه أو أمه أرشديه إلى الصواب».

هي ذي أم مصطفى جالسة على عرش من النار، تغطي جسمها: يديها وعنقها ورجليها أساور وقلائد وخلاخيل من الجمر تلتمع وتخبو كأضواء الإعلانات، وحولها الوصيفات يضربن بأيديهن المحناة على البنادير الملتهبة ويغنين لها «نشيد الإنشاد»، وهي تقهقه وتنتحب لتضبط الإيقاع، وبين يديها مجمر لا يخبو ولا ينضب تتناول منه جمرة بعد أخرى فتتحلى بها.

يتقدم مصطفى أمام عينيها المتشككتين ثم المتعرفتين:

– حبيبي مصطفى؟

رجلي الصغير؟ هو ذا حبيبي، أستحلفكن يا بنات سقر أن ترصفن الطريق باللهب وتعطرن الجو بالدخان، هو ذا حبيبي قد أقبل رجلي أقبل وزيري أقبل، تعال إجلس بجانبي، تعال احكم معي.

– سلام عليك يا أمي، قد غفر لك، فجئت ألحقك بالصالحين.

– آه يا بنات سقر جعلتنّني ناطورة للكروم والكرم الذي لي لم أنطره.

– توكلي على الله وذري غيك واتبعيني، وإلا رجعت وحدي.

– قد لبست قميصي فكيف أخلعه؟ قد وسخت رجلي فكيف أغسلهما؟ وقد لقيتك فكيف أفقدك؟

مصطفى ييأس من إقناع أمه، يقرأ في نفسه: «إنك لا تهدي من أحببت» وينقلب محزونا يبحث عن أبيه.

ولكن وصيفات أمه الحسناوات يتبعنه أنَّ ذهب في صحاري جهنم ويصببن في أذنيه نشيد إنشادهن في إغراء يثيره ويقرفه معا:

«جميلة أنا يا خليلي، جميلة أنا وعيناي كحمامتين. كالسوسنة بين الشوك كذلك أنا بين البنات، كالتفاحة في أشجار الغابة كذلك حبيبي بين البنين. أسندوني بأقراص الزبيب قوُّوني بالتفاح فقد أسقمني الحب. حبيبي لي وأنا له، هو الذي يرعى بين السوسن إلى أن ينسم النهار وتنهزم الظلال. شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني. عد يا حبيبي وقبلني بقبل فيك فإن حبك أطيب من الخمر، ليأت حبيبي إلى جنته وليأكل ثمره النفيس، شفتاي تقطران شهدا وتحت لساني عسل ولبن وعَرْفُ ثيابي كعرف اللُّبان. أنا جنة مقفلة بنبوع

مقفل وعين مختومة.

أنا لحبيبي وهو لي. الملكات ستون والسراري ثمانون والأبكار لا عدد لهن، لكن حمامتك كاملة وفريدة. سرتي كأس مدوّرة مزاجها لا ينقص وبطني صُبرةُ حنطة يسيجها السوسن. قامتي مثل النخلة وثدياي مثل العناقيد وعند أبوابنا كل النفائس، فإني ادخرت لك يا حبيبي الحديث والقديم. شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني».

حتى إذا هم مصطفى بالرجوع رأى أباه.

رآه في حفرة مستطيلة كما عرفه من قبل: ضخم الجسم، كث اللحية، مغلول القدمين بالسلاسل، منحنيا يغرف بيديه العاريتين الجمر ويملأ به مجامر حديدية عميقة الغور كالآبار، كلما امتلأ مجمر بدل مجمرا آخر لا يرفع رأسه ولا يستريح.

يطرح مصطفى من أذنيه الإغراء ويسرع نحو أبيه، تنقلب الوصيفات الحسناوات عجائز ساحرات يصببن في أذنيه الوعيد: «الآن اعلم يقينا أنك تموت بالسيف والجوع في الموضع الذي أردت أن تنطلق إليه لتتغرب فيه.. لأني كلمتك فلم تسمع ودعوتك فلم تجب».

مصطفى لا يسمع ولا يجيب لأنه ينطلق إلى أبيه ليحرره، ولكن أباه أصم أبكم ينظر إليه برهة ويهز رأسه كالمتعرف أو كالمتحسر ثم يعود إلى عمله الشاق لا يسمع ولا يجيب.

يهز مصطفى السلاسل ولكنها ثقيلة ويداه صغيرتان ناعمتان. ينظر خلفه فيرى أمه الساحرة تركب قصبة طويلة وتدور حول الحفرة المستطيلة تنفث من فمها السحاب الأسود والرعب والزوابع. يرتعد مصطفى وترتجف أوصاله، ولكنه يركز بصره على سلاسل أبيه الثقيلة ويتلو فوقها التعازيم التي تعلمها

لتتفتت أو تنفك:

ولكن السلاسل تبقى ثقيلة ملتفة حول القدمين في إحكام وأبوه يستمر في عمله الشاق أصم أبكم لا يسمع ولا يجيب، وأمه الساحرة ترعد وتبرق في أذنيه وعينيه حتى لتوشك أن تخلع قلبه من بين جبينه، فيترك كل شيء ويفر ناجيا بنفسه بين وديان الجحيم يقرأ في نفسه «إنّك لا تحرر من أحببت».

هو ذا مصطفى الصغير يحمل لوحه الخشبي الأملس محتارا في عرصات الأعراف يبحث عن باب الخلاص ولا باب. بلى هو ذا باب يظهر من بعيد في أسفل منحدر بين جبلين من نار، باب ضيق موارب قد علاه الطحلب والندى المترقرق كالعرق. ولكن ها من حوله ترتفع الأبواب هنا وهناك لامعة خضراء وحمراء وصفراء وزرقاء تغمز له في إغراء يثيره ويقرفه معا، وها من فوقه يرتفع صوت هاتف كالرعد:

«من كل الأبواب تخرج فتنجو إلا الباب الضيق إن ولجته هلكت». الأبواب أمامه والصوت الهاتف فوقه ومن ورائه أمه الساحرة تركب قصبتها المشتعلة وتطارده في موكب من وصيفاتها الضاربات على البنادير.

لنترك مصطفى الحائر حتى يهتدي، وتعالوا لحظة نقرأ في كتاب اشبنجلر:

«ترقد داخل طبقة إحدى الصخور بلورات معدن، وتحدث في الصخرة شقوق وشروخ يتسرب إليها الماء ويجرف تدريجيا البلورات خارج مراقدها حيث تخلف، وفي الوقت المناسب، وراءها نخاريب داخل الصخرة، ثم تحدث انفجارات بركانية تفجر الجبل فتتدفق الكتل المصهورة داخل الصخرة وتتصلب وتتبلور بدورها، لكن هذه الكتل ليست حرة في تبلورها بأشكالها الخاصة إذ يتوجب عليها أن تملأ النخاريب الموجودة داخل الصخرة، وهكذا تنشأ أشكال مشوهة وتنوضع بلورات يتناقض تركيبها الباطني وشكلها الخارجي،

وتبرز حجارة من نوع معين لكنها تتبدى في شكل حجارة من نوع آخر غير نوعها، وهذه الظاهرة يسميها علماء التعدين بالتشكل الكاذب...».

يدفع مصطفى أول باب أمامه، فيتحول رمانة تتدحرج متطايرة الحبات فوق أرض صخرية بيضاء واسعة، تتحول أمه الساحرة دجاجة مقوقئة تجري وراء الحبات الصغية ملتقطة إياها واحدة واحدة، دافعة بها في لهوجة ولهفة إلى رحمها العاقر المحرور.

أم مصطفى تعود إلى وصيفاتها المنتظرات حبلى.

وحبة صغيرة وحيدة أفلتت منها في الصحراء البيضاء وراء الباب.

الحبة الصغيرة تبدو كالنقطة السوداء في صفحة بيضاء، هل تحتاج هذه النقطة إلى سفر تكوين مختلف؟ أو ببساطة إلى ممحاة؟

1980

اللوح المحفوظ

... ونزل من الباب الخلفي للكار، وفي يده الحقيبة الجلدية الحمراء. من زحمة «كراج علال» خرج إلى «طريق مديونة». على الرصيف حط الحقيبة الثقيلة بجانبه، وأخذ يشير إلى الطاكسيات المارة دون جدوى. أخيرا حمل الحقيبة الحمراء وسار نازلا نحو المدينة وكتفه الأيمن هابط مع ثقل الحقيبة.

حين وصل إلى ساحة النصر، حط الحقيبة على الأرض ووقف. دار بعينيه حول الطرق السبع التي تصب في الساحة عشرات السيارات والطاكسيات والحافلات والدراجات والراجلين... الحديقة الصغيرة في الوسط، المحلات المفتوحة في الجوانب، الصاكة، مطعم الريف، مقشدة «تيشكا». وقف بعينيه طويلا على رجل الشرطة، ترك الحقيبة واتجه نحوه.. استمع إليه الشرطي، رفع الشرطي رأسه وفكر قليلا، أشار بيده في القفاز الأبيض إلى إحدى الطرق السبع، أحنى الرجل رأسه وعاد إلى الحقيبة فحملها ببعض الجهد، وسار قاطعا الطريق بين الضوء الأحمر والسيارات الواقفة. هبط مع شارع «سميحة»، رجع إلى اليمين مع أول منعطف، ووقف أمام اللافتة: «تأمينات الغرب . الطابق

الثاني».

دخل العمارة، التفت يمينا، يسارا، تردد، ثم حمل الحقيبة على كتفه، وصعد السلم الرخامي درجة.. درجة.. حتى الطابق الثاني، حط الحقيبة على الأرض، ودق بيده دقتين على الباب الزجاجي، سمع «ادخل»، ففتح الباب ودخل تاركا الحقيبة خلفه في الممر. وارتفعت نحوه عيون الفتيات الجالسات على المكاتب.

– «بغيت الفاطمي عفاك».

قالها وهو يدور بعينيه على الفتيات السبع دون أن يخاطب واحدة بعينها.

– الفاطمي خارج، رجع عندو مع الطناش.

تردد قليلا، ثم عاد إلى الممر، حمل الحقيبة بيده اليمنى ونزل متهلّلا مع الدرج الرخامي. في الشارع فرش منديلا أحمر على الرصيف، جلس عليه، واتكأ على الحقيبة وأشعل سيجارة.

حين هبطت الفتيات مع الثانية عشرة إلا ربعا علم منهن أن الفاطمي لابد سيأتي بعد الظهر، فحمل الحقيبة وابتعد عن العمارة عائدا إلى ساحة النصر. دخل إلى مطعم الريف. حط الحقيبة على أحد المقاعد، غسل يديه في المغسل الرخامي المقابل، جلس على الطاولة وطلب الحوت.

في الساعة الثالثة تماما هز رأسه للنادل وأعطاه ورقة النقد، قبض منه الباقي، شرب الجرعة الباردة الأخيرة من فنجان القهوة ودعس عقب السيجارة بقدمه ووقف، حمل الحقيبة الحمراء وخرج من المطعم الذي أغلق فور خروجه.

لم يكن الفاطمي قد وصل بعد، فعاد مرة أخرى إلى الشارع. انتقل إلى الرصيف الآخر حيث كان الظل قد تحول. أسند الحقيبة إلى الجدار، فرش

منديله الأحمر وجلس، أشعل السيجارة الأولى من العلبة الجديدة، ورفع عينيه إلى الطابق الثاني.

حين هبطت الفتيات في السابعة والربع علم منهن أن:

«عجب اللّي ما جاش الفاطمي فالعشية»، وأنه «معلوم» سيظهر صباح الغد، فحمل الحقيبة الحمراء، وعاد إلى ساحة النصر. قطع الطريق إلى الحديقة الصغيرة في وسط الساحة، جلس على المقعد الخشبي المستطيل، وأغلق يده على مقبض الحقيبة وعينيه عن أضواء السيارات.

في الثامنة والنصف، قطع الطريق مرة أخرى، والحقيبة في يده، إلى مطعم الريف، حيث طلب القطبان، وشرب القهوة. في العاشرة تماما هز رأسه للنادل ونقده الأجر ثم حمل الحقيبة الحمراء وعاد إلى المقعد الخشبي في الحديقة الصغيرة. خف مرور السيارات... المطعم أغلق.. الشرطي ركب دراجته النارية وغادر. أغلق الرجل عينيه عن الظلام وشد بيده على الحقيبة الحمراء ونام.

ماتت يده على مقبض الحقيبة، وحاول الصراخ، ولكن اليد الثقيلة كانت تغلق فمه، ورغم الظلام والتكشيرة المخيفة فقد بدا الوجه المجدور المطل عليه أليفا.

ماتت يده على مقبض الحقيبة، وحاول نطق الاسم، لكن اليد الثقيلة... ماتت يده على مقبض الحقيبة، ولم ترتخ إلا بعد الطعنة الثالثة حين انهار جسده الخشبي كبناء من ورق.

حمل الرجل ذو الوجه المجدور الحقيبة الحمراء، وانحدر مع شارع سميحة، انعطف إلى اليمين وسار بضع خطوات ثم وقف، مزق الحقيبة الجلدية بسكينه فوجد بداخلها ورقة بيضاء... ورقة بيضاء فقط وحيدة، ولا شيء آخر في الحقيبة الحمراء، بصق كلمة «ميرد» ورمى الورقة في سطل الزبل المجاور ثم طوى

الحقيبة الجلدية بعناية ودسها تحت معطفه وتابع طريقه.

في السادسة صباحا نزلت كوثر من الطابق الثالث، في يدها اليمنى سطل الزبل وفي اليسرى درهمان لشراء الحليب، قبل أن تفرغ الزبل في السطل الكبير رأت الورقة المكتوبة، رفعتها وأخذت تتهجى كلمات السطر الأول:

«... ونزل من الباب... الخلفي... للكار... وفي... يده...».

انحدرت بعينيها إلى أسفل الورقة، وقرأت الكلمات الأخيرة:

«وأسرعت... إلى الدكان... القريب... لشراء... الحليب».

نظرت كوثر إلى الدرهمين في يدها اليسرى، رمت الورقة، وأفرغت الزبل، وأسرعت إلى الدكان القريب لشراء الحليب.

الغابر الظاهر

مدخل عن العطش

«قال بعض القصاص: يا معشر الناس، إن الشيطان إذا سمي على الطعام والشراب لم يقربه، فكلوا خبز الشعير المالح ولا تسموا فيأكل معكم، ثم اشربوا الماء وسموا، حتى تقتلوه عطشا».

ابن الجوزي

من كتاب "أخبار الحمقى والمغفلين"

1

في البداية نأكل الشعير دون أن نسمي... لا نعرف الاسم بعد، فتأكل معنا كل الشياطين. نأكلها وتأكلنا كل الشياطين.. أليفة محبوبة، مذرورة فوق خبز الشعير المالح. حريفة الطعم لاذعَة المذاق، نجرشها بالأضراس في لذة، شيطانا بعد شيطان: طزاجة الصبح، وإغراءات الضحى، خمول الظهيرة وبرد العشي.. سعلة العجوز.. عرق الجبهة.. غيلان الظلام.. نبرة الصوت.. خفايا علاقة القرابة.. مفاجأة ياء النسبة.. دكان الدرب.. نظرة التعرف.. عدس الغذاء.. شيطانا بعد شيطان..

عطشان.

2

ونبلغ سن التناول.. نتقدم إلى الاسم الأعظم.. ندخل الهيكل، فتنثال الآلهة كما لو من مسبحة، خارجة من الجوانب حبة بعد حبة.. من الدين الفقيه، من القانون القاضي، من التقاليد والأعراف القارئ، من النوع والمدرسة والشكل الناقد, من المنطق والمفهوم والضروري والواجب كل الأشياء الأخرى، والأشياء الآخرين. نرنو إلى الاسم الأعظم في مهابة وإجلال، نقبل يد الكاهن الممسوحة بالزيت المقدس فيدعو لنا، معنا علينا: «الله يجعْلُو يقْرا ويقَرِّي» فنتيه زهوا، ويضغط الفخ المذهل في رفق مصمم: (هاك.. هاك.. هاك.. هاك.. هات..). وفجأة كما لو بفلتة لسان ننطق الاسم الأعظم، فتفر الشياطين المذعورة كالخفافيش، ويلمع سكين العقيقة: ها نحن الآن ذوو أسماء وأرقام وأحكام.. عرايا حتى العظم في ضياء الهيكل وتحت أرجلنا الصراط.

3

وها هو البحر في سن النضج فلنشرب حتى نرتوي وهيهات. ها نحن في.. ها نحن مع.. ها نحن وسط.. وها هو التأمين، الترقيم، التفييش، التحديد.. وطن الشياطين استعمرته الآلهة ووزعت على تخومه القوالب فلنبن إن شئنا.. فلنبن حتى إن لم نشأ، فلننبن.

4

الآن . وقد اهتديتُ قبل . أحب أن أتيه، أحب أن أسقي شياطيني.. أن أبدع كلمة.. أن لا أنطق الكلمة.. لا شيء (من قبل) مقنع، مشبع، ساق.

في البداية يعجبنا ما نكتب لأنه نسخة بديعة التقليد، ثم يعجبنا ما نكتب

لأنه نسخة بديعة الصنع، وفي الأخير يسئمنا ذلك كله, تملأنا الخيبة والمرارة والشك. والسخرية. ونبحث عن الماء السري الذي تشرب منه الشياطين وتستيقظ الطفولة، والكرامة والهوية تطلب السقيا والتحقق، لا العالم يرضيها ولا أحلام العالم. تستيقظ لزجة مدعوكة "مديفورمية" تستعصى على كل الأبنية الزجاجية الأنيقة. تصرخ بتمتمتها المتلعثمة راغبة في التكوين نافرة من الضغط هاربة إلى حقول الذكرى العميقة صارخة: «عني... عني... تحضر أنت ودعني» يا أنت، يا أنا كيف أجرك، كيف أنجر، كيف أمحو الجر.. لو شربت حتى الفطس لم أرتو.. فعني ياكل البسامل المسبقة، وإلي إلي ياكل الشياطين السابقة أنا جحيمك الصفر. فلنبدأ.

5

من كل هذا أبدأ.. الإله القابع خلف الزر حكاية، والشيطان الكامن في الدم غناء.

وقدر هذه القصة أن تحكي واقعا لا تملكه وأن تغني أعماقا لا تفهمها.

وأن تجمع القطط كلها في كيسها الصغير.

فمتى وكيف تحكي الأعماق التي تفهم وتغني الواقع الذي تملك. كلا ليست رواية حين تحكي.. ليست شعرا حين تغني.. ليست دراما حين ترزم القطط.. لعلها كما تقول الشياطين: ليفة الصوف التي تنسج سبع جلاليب. وحبة القمح التي تصنع سبعة أرغفة. ولكنها من لغة تنسج وتخبز.

ومحكوم على لغتي بالفعل والفاعل والحال.

ها أنذا أكتب بالفعل حكاية عجوزا تتوكأ على واو العطف، وتتقدم متعثرة في رمل الواقع المستلب.

أكتب بالفاعل دراما كاذبة تسربل بالمجد الخادع الطاعمين الكاسين. أكتب بالحال هذا الغناء الرومانسي البَكّاء، فهل صحيح إذن أن الشيء يساوي أكثر من مجموع أجزائه؟ ها أنذا أجمع الفعل والفاعل والحال، فلا أحصل إلا الثرثرة واللغو أو التسبيح بالأسماء العظمى.. كلا هذه ليست أجزاء القصة، هذه أدوات الحفر، والقصة هي البئر لا الفأس. أما الماء، فما في كل بئر ماء، و ما كل المياه عِذَاب.

6

قال جحا: إن «الصّمعة» بئر مقلوبة.. كلا.. ليس في هذه الصوامع ماء.. والكتابة غير الهندسة، ما أنا بخالق.. ليس عندي وقت للخلق، أنا مسكون بالشياطين العطشى، مشغول عن السماء عن البناء، مجنون بالحفر في كل الأرجاء، وعلى الأقل هذا التراب الرطب، إن لم ينبجس ماء عذب، كلا، ليس رفضا ولا ثورة ولا تأصيلا ولا أصالة ولا.. ولكن يدي في النار، وهذه القصة صراخ النجدة ليست صيحة المخاض ولا حشرجة الاحتضار.. شبت عن الطوق وهي بعد كسيحة. تفرجت على شوارع العالم وانبهرت عيونها الطفلة وابتلعت حتى التخمة كل الطعوم: أزقة العواصم وحقول الموز، وغيطان القطن. والآن حان وقت العودة ليس إلى الأصيل الرائع، ليس إلى الصوامع الشامخة، بل إلى العراء الذي نملك، إلى الأرض العطشى لنحفر فيها، إلى أشيائنا الصغيرة بعد، في أعماقنا الجافة بعد. كم هي صغيرة وسخيفة و«مقفحة»! كم هي عصية على اللغة المبرودة! كم هي مخجلة كالقريب «العروبي»! ولكنها جديدة كآدم الخارج من الطين قبل أن يتعلم الأسماء، مغرية بالتحدي اليائس كالصخرة لقرون الوعال، ثم هي بعد كل شيء نحن، مادتنا الخام.

أعرف. وبأي ثمن عرفت! . الكتابة عن هذه المادة بصدق كالسير في حقل ألغام، كلما استصعبت أو عييتُ فأسرعتُ سقطتُ في التشويه والنمذجة والاحتذاء، فانفجرت وغار الماء.

ولكننا في وسط الحقل الآن، وليس إلا الحركة، ونحو الأمام، وبدون خجل، وبدون خرائط، تبرر أن نكتب.

ماذا يشرب الأطفال

في البداية لم يكن الحادث يثير غير الضحك، كان الرجال يقهقهون حتىـ تتشوه وجوههم وتدمع أعينهم، أما النساء فقد كن يتناقلن الحديث متهامسات، ويضحكن في خفوت وقد احمرت وجناتهن وواربن نظراتهن خوف أن يسمعهن الرجال. وقد كان الحادث مضحكا فعلا. وربما بدا للبعض سخيفا وتافها لا يستحق الضجة التي أثارها، غير أن الشيوخ والأعيان وأعضاء الجماعة القروية وآباء التلاميذ أجمع رأيهم في الأخير على أن المسألة خطيرة جدا وأنها تستلزم تصرفا حاسما وسريعا وإلا أفلت الأمر من أيدي العقلاء وغرقت الدواوير كلها في السيبة والفساد... ولكن ما هو الحادث بالضبط؟ وماذا وقع في دار الحاج عبد القادر التي خرجت منها الشائعة في تلك الليلة الباردة الممطرة؟

كانت الحجرة الخارجية في الدار قد أعِدَّت بسرعة قبيل الغروب في انتظار الضيوف. شطِّبت أولا من التراب والغبار، وفرشت البسط، وفوقها فرشت الزربية الجديدة، ومدت البطانيات في أطراف الزربية ووضعت الوسائد. وكان

الحاج عبد القادر يعد مقادير متساوية من الماء الساخن للوضوء في أوان صغيرة حين قدم أوائل الضيوف. كان يعرف ماذا يريدون ولكنه لم يكن يعرف بدقة كيف سينتهي الأمر في الأخير، وكان يقول لنفسه وهو يصب الماء: هو الذي دفع الشرفاء للتدخل، إنه يخاف مني، هل أكون صلبا هذه الليلة؟ وإلى أي حد؟ وكان الشرفاء قد وصلوا ووصل معهم إمام المسجد وبعض الشيوخ وأربعة أو خمسة من الطامعين في مرقة العشاء. وأخيرا وصل خصم الحاج عبد القادر، كان ينبغي أن يصل مع الناس، ولكنه أراد أن يتدلل كما يبدو.

كل الناس يعرفون «حمادي». بدأ خماسا، ومع الحاج عبد القادر نفسه، ولكنه رجل بخيل شحيح، ويدخل رجله في كل حفرة، يتابع الخمس ويبيع «الفاخر» الذي يحضره في الغابة، ويرعى الماشية بالربع، وأولاده الثلاثة يرعون للناس، ويرد كل واحد منهم على أبيه المبلغ الفلاني سنويا، وهكذا أخذ يشتري الأرض ويغير رجام الحدود، ويبعث حقوقا قديمة وقرابات منسية، ويزاحم أصحاب الملك والأصول. ولكنه هذه المرة وقع مع الحاج عبد القادر، وقد أقسم بكل الأيمان أنه لن يتراجع ولو وصل الأمر إلى الرباط، وحرث الأرض، وجاء حمادي فأعاد حرثها، وكادت الأرواح تسقط، وسجّل كل واحد منهما دعوى وهاهم الشرفاء يتدخلون، فكيف سينتهي الأمر في الأخير؟

صلى إمام المسجد المغرب بالضيوف، وصلّى معهم الحاج عبد القادر بعد أن شده أحد الشرفاء في حزم صامت من كمه وأوقفه في الصف إلى جانب حمّادي، وكان الظلام قد انتشر حين وضعت الصينية الكبيرة في الوسط أمام الفقيه السي بن علي، وأدخلت المجامر وارتفع اللغط، ولم يكن الطفل قد وصل بعد.

خرج مع الأطفال من المدرسة في الخامسة، وكان عليه أن يسير مع أطفال دواره خمسة كيلومترات في الظلام والمطر والبرد.. ولذلك لم يصل إلى الدار حتى كان الضيوف يشربون الكأس الثاني من الشاي، وكانت الحجرة الخارجية الكبيرة دافئة بمجامر النار وأنفاس الضيوف وحرارة الحديث.. ويبدو أن الضوء واللغط المرتفع قد جذبا الطفل فلم يدخل الدار ليأكل ويستدفئ، ولكنه دخل مباشرة إلى الحجرة الخارجية. وحين بدا في الباب صغيرا ومبتلا كالكتكوت كان شكله غريبا. وساد الصمت، وتطلع إليه الضيوف. كان يحمل كراريسه تحت سترته الصغيرة المشتراة من الخردة، وأقلامه في جيوب السترة، أما حقيبته الصغيرة فقد أدخل فيها رأسه على شكل قبعة عسكرية، وكانت وجنتاه الصغيرتان مبتلتين بالمطر والدمع، كان يبكي، من البرد فيما يبدو، وربما دون أن يشعر، وفي البداية ضحك البعض وهم ينظرون إلى هيئته الغريبة، وعلى الخصوص إلى الحقيبة القبعة، وسرعان ما استجاب الطفل وأخذ يضحك هو الآخر.. أحس بالدفء والأنس ورأى الشاي والزربية الجديدة، فتقاطرت كركرته الصغيرة كالزجاج المكسر على ذقنه المبتلة والمحببة من البرد، وارتفع الضحك في الحجرة الطويلة الممتلئة الدافئة، وقفز الحاج عبد القادر وهو يضحك قائلا: «القاضي وصل». حمل ابنه الصغير ونزع حذاءه وسترته ثم خلع أحد جلبابيه الصوفيين وألبسه ابنه، فضاع فيه الطفل وازداد انكماشا في حضن أبيه. حمله أبوه إلى رأس الحجرة وأجلسه إلى جانبه وهو يقول: «تسخن وتشرب الشاي ثم تسلم على الضيوف وتقبل أيديهم» وناوله كأس الشاي فتلقفه الطفل ملهوفا، واستأنف الضيوف حديثهم ونسوا الطفل تماما... تحدثوا أولا عن المدارس والأطفال والمساجد، وكرر سي بن علي ملاحظته الدائمة أن على الأطفال أن يقضوا عطلهم المدرسية في المساجد ليتعلموا القرآن، وأن

الأمر إذا استمر على هذه الحالة فلن يمر جيل واحد حتى يكون القرآن قد رفع... واستلطف بعض الشرفاء ولاحظ أحد المتطفلين أن ما يتعلمه الأطفال في المدارس لا يزيد عن: «معزة. قط. فأر» وهو لا يعرف ما معنى ذلك كله، وإلى أين يمكن أن يصلوا به. وحاول سي عمر المشرف على المستوصف الطبي في السوق أن يدافع عن المدارس، وتحدث أحدهم عن القرن 14، وروى أحد الشرفاء حديثا نبويا شريفا، ثم عم الصمت وانتظر الجميع أن يبدأ أحدهم العودة إلى حديث الأرض... وكان الشريف سيدي عبد الكبير هو الذي فعل ذلك.. رفع مسبحته قليلا ونظر إلى حمادي بابتسامة صغيرة وقال: «إيوا أحمادي ماذا قلت؟ المخزن أحسن أو المفاهمه؟» فانطلق الجميع يتكلمون، ورد حمادي مغمغما، أما الحاج فقد كان يتابع الحديث بانتباه مركز، ويدرس الأجوبة، ويقرأ ما خلفها. ولكنه كان يخلع على وجهه سحنة اللامبالاة، ويبتسم ساخرا حين يتكلم خصمه، وإن كان يحرص على أن لا يجعل ابتسامته جارحة، كان يريد أن يراها الناس وأن يقرأوها، ولكن دون أن يحكموا عليها حكما نهائيا، وكان الجميع يتفقون على كلام سيدي عبد الكبير حين يكون عاما كأن يتحدث مثلا عن أن المخزن بحر الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود، أو أن يتحدث عن المحبة والإخاء والإسلام وحب آل البيت، ولكنه حين يدخل في صلب الموضوع تتقاطر التفصيلات من جانب حمادي والحاج عبد القادر من هنا وهناك، وتنبعث النزاعات القديمة والجديدة والخصومات والحرث وشبر الأرض والمحاصيل والأقسام والتأكيدات والتهديدات حتى ليكاد المراقب الأجنبي يضيع ويحكم نهائيا بلا جدوى الحديث كله، ولكن سيدي عبد الكبير كان يعرف الرجلين جيدا، وربما كان قد انتهى منذ زمن إلى نتيجة معينة يحملهما عليها. وفي غمرة الحديث، وبينما كان الحاج عبد القادر يمد

يده اليمنى شارحا أو مهددا أو متسامحا، وصوته يلعلع في الفضاء الدافئ وسط غمغمات الاستنكار أو التأييد وقف الطفل دون أن ينتبه إليه أحد.

خلع أولا جلباب أبيه ثم باعد بين رجليه، وبهدوء ولا مبالاة، وكأنه وحده تماما وليس في حجرة مفروشة ومليئة بالضيوف.. بهدوء ولا مبالاة أدخل يده في فتحة سرواله الأمامية وأخرج عضوه الصغير المنكمش وأخذ يبول.. لا يدري أحد ما إذا كان قد قصد ذلك أولا، ولكنه كان يبول وسط الصينية تماما، وكانت بعض الكؤوس تمتلئ والرشاش يتطاير على جلباب ولحية سي بن علي ووجوه القريبين من الصينية. عقدت الدهشة ألسنة الجميع، وكانوا ينظرون إلى الطفل دون فهم أو دون تصديق.. الحاج عبد القادر كان أول من استرد وعيه فخطف الطفل بين يديه بسرعة وهو يسب في صوت صارخ متداخل غير واضح كأنه لم يخرج بعد من حالة الدهشة التي عمت الجميع. وتجرأ بعض الحاضرين على الضحك، وابتسم الكبار، أما الفقيه سي بن علي فقد كان ينفض جلبابه ولحيته غاضبا في البداية ثم مبتسما في خجل... ثم ضاحكا مداريا النظرات، وسمع الضيوف صرخات الطفل الحادة من الداخل... وكانوا يعرفون الحاج عبد القادر.. ربما قتله.. إنه طفل على أي حال.. ولكن المسألة.. المسألة مضحكة وعجيبة، كيف فعل الطفل ذلك؟ ولماذا؟ وأخذت التفسيرات والتعليلات تتناقل بين الضيوف، ولكن تفسيرا واحدا لفت انتباه الجميع وأدهشهم.. كان ذلك التفسير الذي أعطاه «الطبيب» سي عمر. قال في حسم «الطفل سكران» هل يمزح سي عمر؟ ولكن وجهه كان جادا، وهو مؤمن بما يقول، وانتظر أن ينتهي الحاج عبد القادر من مسح الزربية بالماء الساخن، وتبديل جلباب الفقيه، وتغيير الصينية، وبعد أن انتهت ضجة المسح والغسل والتنظيف ودخل الحاج إلى الدار وهو

يتعود ويستغفر، تابع سي عمر شرحه فقال إنه لاحظ غرابة حال الطفل منذ دخل، إن إفراغه الحقيبة من الكراريس ووضعها على رأسه كالقبعة، ثم الضحكة الغريبة التي حيانا بها. ثم إنه قلب كأس الشاي على الزربية دون أن يلاحظوا ذلك.. ثم في الأخير هذه الـ... هذه المضحكة الأخيرة، وقال سي عمر إنه يرى الكثير من السكارى في المدينة وإن هذا حالهم تماما.. ثم اقترح أن يشموا رائحة فم الطفل.. وتكلم الجميع ولاحظ بعضهم أن الخمر تباع جهارا في بعض الدواوير، وحين ذكّر الفقيه سي بن علي بأن طباخ المدرسة الذي يطبخ الحريرة للتلاميذ في النهار مشهور بالسكر والحشيش ازداد اقتناع الحاضرين بتفسير«الطبيب». وعرضوا الأمر على الحاج عبد القادر فاستغفر الله وبسمل وتعوذ واستنكر ذلك بقوة، ولكنهم حملوه على التفكير في المسألة بعد لأي، وأخيرا أخرج لهم الطفل، فشموا فمه واحدا واحدا، وكانوا يشمون فعلا كما يبدو رائحة غريبة لم يفهموها، وحين قرر« «الطبيب» أنها رائحة «البيرة» اقتنع الجميع، وشرح لهم بأن البيرة تضحك شاربيها بدون سبب، وأنها (وهمس في أذن جاره حتى لا يحرج أسماع المتحرجين) وفهم الجميع... وفي غمرة الاهتمام الجديد تراجعت قضية الأرض إلى الوراء، وسهل على الشريف سيدي عبد الكبير أن يجد حلا مؤقتا قبله الخصمان بسرعة ليتفرغا مع الناس في مختلف الدواوير لهذه المشكلة الطارئة وخلفياتها الخطيرة...

أما الطفل الذي كاد أبوه يزهق روحه الصغيرة تلك الليلة، فإنه سكت عن الصراخ والنشيج تدريجيا، وكفكف دموعه، وبعد أن تعشى واستكان إلى الدفء في جوار أمه التي كانت تنصحه دائما بأن لا يبول في سرواله، تذكر ما وقع و... وأغرق في الضحك: كخ كخ كخ كخ... ألا تستحي؟ قالت أمه .كخ كخ كخ كخ... وابتسمت الأم وهي تنظر إليه في دهشة ثم أغرقت في

الضحك هي الأخرى وهي تشير إليه بسبابتها:

– كخ كخ كخ... آلشيطان... الله يمسخك... كخ كخ كخ...

الأحـد

إذا جاء الأحد انقطع عمل ابن آدم. ولا يبقى سائدا إلا الشمس، شمس الأحد السخيفة المتكلفة المومس، تكشف لك عن طاقم أسنانها المعدني البراق، وتقول لك في غنج: (بونْـجُورْ شِيرِي) فتغمض عينيك وتداري الغثيان.

أولا: لابد أنهم يتغذون الآن، فالساعة جاوزت الثانية عشرة.. ربما خرج بعضهم إلى البحر أو إلى الغابات.. ربما ذهبوا إلى الحدائق، أو الخصة، أو الشارع المبلط. وعلى أي حال فكثير منهم الآن في البارات يشربون القهوة ويلعبون التييرسي.. الشيوخ المتقاعدون على الأقل، أما الشباب ففي الكريمريات.. الشارع يتثاءب، وحين تمر سيارة بطيئة كذبابة كسول، يبتلعها، ويتابع غفوته، لأنه إذا جاء الأحد انقطع عمل ابن آدم، ولا يبقى في الشارع إلا البائسون الذين يتابعون سيرهم بعزم وهمة ليلتحقوا بموعدهم القذر مع أصحابهم القذرين، في بارات التييرسي القذرة. آه الأحد.. حياة الأحد.. فكر الأحد.. فن الأحد.. جمال الأحد، فلنفرض أن الأحد، بحر تصب فيه كل الأنهار، أو فلنقشره من جلده الأوربي السخيف، أولا: أنا إنسان أحدي،

ولذلك أكره الأحد، الأصالة الأحد.. الحداثة الأحد.. وأنا بلال.

– (صباح الخير).

– (صباح الخير) يعنون صباح الأحد، فكل واحد مشغول.. باللاشغل.. لأنه إذا جاء الأحد. انشغل عنك أصحابك بأوراقهم.

قهوة؟ اطلبها. قهوة؟ سوداء؟ مضغوطة؟ وتطلب من يطلبها لك؟ أي أحد هذا؟ انتظر حتى يوسس صاحبك الربح.. بعدها يتلفت القلب..

تشاغل بالجريدة المطروحة.. وبما.. من يمر . إن مر . من الجنس الآخر.

وحتى لو أردت، فالندل أنفسهم مشغولون بالأوراق، الأرقام، لأن اليوم الأحد.. وفجأة: ابتسامة.. مع طفلها الصغير المتقافز.. تبتسم لك معتذرة.. جمال فريد.. كأنما لم يعرف قط ليلة سبت.. مري في أمان، يا ذات الابتسامة المدرعة بالأحد..

يا صاحبي إني عطشان، شيء بارد في هذا الزمن الناشف، اسمع.. مع هذا العطش البحري، وهذا الخواء، وليس في الجيب غير (الكارط)، فالدواء اللبن، الأصالة اللبن، والحداثة اللبن، وصاحبك كبقرة موسى.. يسر ولا يدر، قم... قم.. بكل معنى القيامة.. وليذهبوا جميعا إلى الجحيم.

– صافي؟

– صافي.

يعطيك الألف فرنك كما لو حطها على رقم. ويعطيك الموعد الآخر: «سيمرون عليك في الثامنة» الثامنة مدينة الملح. وبينك وبينها محيط من الملح تقطعه في قارب من اللبن.. لتر من اللبن، و.. كلا.. لا شيء يمضغ، فالجدة العجوز لا أسنان لها.. وعلى الريق؟ وفي الأحد؟ كلا.. لتر لبن.. وماء

معدني.. ثم.. الثامنة.

جميل.. جميل كفضيحة.. فضيحة علنية مجلجلة، تقطع جميع خيوط الرقابة، وتوقفك عاريا وسط الحلقة، لا خيط رابط، لا ثوب إحرام.

أليس هذا ما تريدون؟ فليكن.. ها أنذا عار ووحيد.. ولكن مستريحا.. برئت من كل أدواء المراعاة والانتباه والخوف و(عَنْدَاكْ).. لا عَنْدَ عِنْدِي، وحيدا وعاريا.. ومغلقا.. كدكان في يوم أحد.. لأنه إذا جاء الأحد، أغلقت الدكاكين، وانسحب البطلان: اللبن والماء، إلى الدروب الخلفية، حيث الأطفال والكلاب والكرات والذباب وصبية الدكاكين والصمت المغبر، والكفتة البائتة والشمس المسلولة.

سلام على بعد الظهر الهيروشيمي.. سلام على الربان الذي يقود الطائرة المارة في سماء الأحد.. سلام على ديوجين بورقة الألف فرنك المضيئة. «يا أيها الإنسان عمّ تبحث؟» عن دكان مفتوح، لا أمل.. حتى في هذه الدروب الخلفية، فالأحد معطف ديموقراطي، والحل الوحيد أن تصعد درجات العمارة الجلجلة إياها، وتفتح باب الغرفة إياها، ثم تفتح الراديو إياه، لتسقط في هذه الصحراء أصوات التيران، ثم تفتح الصنبور إياه، فإذا لم يغجغج.. فلعل قطرة ماء تقتل هذا الأحد اللعين..

سلاما.. سلاما.. وليشربوا البحر.. أما أنا.. فشربت كأس ماء.. وانثنيت ولي.. اندفع بسرعة إلى الحوض، وأفرغ أمعاءه من الماء الأصفر اللزج، لا شيء غير الماء الأصفر اللزج اللعين، والأمعاء الفزعة المندفعة إلى الحلق كقطيع عجول في القيلولة.. لابأس.. لا.. بأس.. هدوء.. هدووووء.. إنه مجرد أحد بائس حقير.. لماذا الفزع؟.. عد إلى السرير في بطء دائخ.. واستلق على مهلك.. على مهلك. وحاول أن تغري معدتك الشمطاء القذرة بالهبوط

إلى جحرها.. قليلا.. قليلا.. قليلا.. حتى تطمئن.. أغلق عينيك.. والآن.. اصعد.. اصعد من حفرتك القذرة.. رفرف.. حلق في سماواتك الزرقاء.. ألغ جميع الآحاد، من جميع أسفار التكوين، وارتفع نحو الأعلى.. أعلى.. كبطل، نعم كبطل، ولم لا؟.. ولكن الأبطال لا يستلقون، الأبطال يتحركون، الأبطال يخرجون، الأبطال يفيضون على الأمكنة كلها ويخرجون.. لذلك يسمون أبطالا.. شريطة أن لا يكون اليوم الأحد. فالأبطال يدخلون يوم الأحد... كل أحد. وماذا يفعل الأبطال في الداخل؟ لكي يفعلوا شيئا في الداخل يلزمهم البطلات.. بطلات.. بطلات.. لات.. لات.. وحين أفاق.. نظر إلى الساعة أولا، فوجدها في السابعة والنصف، بقي نصف ساعة.. ولكن الضوء.. إنها السابعة والنصف صباحا.. ليلة بكاملها؟ دون أن يفيق؟ إذن لم يجيئوا؟ أو جاؤوا ورجعوا؟ تراجعوا؟.. أي دواء ساحر هو هذا النوم الجميل؟ إذا جاءتك المصائب.. فنم.. ولا تنبه لها أحدا.. فقط نم، وسيمر كل شيء على ما يرام.. النوم.. الملاك الجميل الحلو.. يرفرف فوقنا.. يقطفنا كتفاحة، ويركض نحو حافة الكون، حيث ينظر إلى بشرتنا الجميلة الحمراء، وعزجوننا المنتصب الغض.. ينظر إلينا بحب ووله، ويبوسنا، ثم يلقي بنا في الفضاء، فنهبط «بشوية.. بشوية.. بشوية» متشبثين بقبلته الأثيرية كمظلة.. وها نحن أخيرا على الأرض، وأمام المرآة، فنرى أن لحيتنا الشريفة قد نمت، وأن علينا فوق ذلك أن نغسل أسناننا الجميلة بفرشاتنا اللطيفة، ولكن علينا قبل ذلك أن نضع الإبريق على النار.. لتستوي قهوتنا.. وأن نفتح الراديو على الأغاني الصباحية، وأن ندندن معها ونحن نرغي الصابون على وجهنا الظريف: «يالالالي.. آه.. يالالالي.. أمَانْ.. أمَانْ..» والعصافير تصوصو على السطح، والمحركات تقهقه في الشاعر، والضوء الطازج العذري للصباح، والقهوة تقرقر..

تقرقر.. تقرقر.. قرقر.. يَا لالالّي.. وماء الكولونيا المنعش، ورائحة معجون الأسنان العذبة، والعصافير والمحركات وأصوات البشر الحلوة.. البشر الجميل الحلو.. والقهوة تقرقر.. وها هو فنجاننا الجميل.. نصب فيه قهوتنا الجميلة، ونقذف في حركة رياضية بارعة بسكرتنا الجميلة، ونحركها راقصين بملعقتنا الجميلة.. و.. دقات على الباب.. من؟ في هذه الساعة؟ فتح الباب.. وكانوا هم.. فدخلوا.

الكأس المكعبة

الصوت المؤلف

(يونس)

ادخل وانتظرني، وصلت في وقتك كما تعودت منذ ذلك الموعد البعيد، لم أجئ في الأيام السابقة، قد أجيء اليوم، قد أجيء غدا. قم بواجبك فقط: ادخل وانتظرني. قف أمام البار، قريبا من الباب الجانبي الأيمن. خذ كأسك، وتدفأ بلغط الشاربين. نقل عينيك المتعبتين حيث تشاء. من بارمان اليمين إلى بارمان اليسار، من الزجاجات المصطفة إلى الصورة الصغيرة للمدام صاحبة البار بثوبها الأحمر وابتسامتها الواثقة، من منابع الضوء الأبيض المضبب بالدخان إلى الساعة الخشبية التي تشير عقاربها إلى السابعة، لا تهتم بي كثيرا، إن لم أجئ اليوم فقد أجيء غدا، تلفت حولك إلى الناس واندمج معهم. بعض الشاربين يزررون ستراتهم ويخرجون، آخرون يدخلون. بالقرب من الباب الأوسط الكبير للبار تجلس سيدة عجوز في حوالي الستين، كل ثيابها سوداء، وأمامها على الطاولة كأس صغيرة، صغيرة جدا، كونياك؟ روم؟ ولكن لونه

عجيب مختلف متداخل كقوس قزح. لا تهتم، ستعرف فيما بعد. تتكئ بيدها اليمنى على عصا أبنوسية سوداء، وتنظر إلى الشاربين اللاغطين بتمعن، كأنها تريد التعرف على واحد بعينه منهم. بارمان اليمين يسير ذهابا وإيابا، يلبي الطلبات، وبين طلب وآخر ينحني داخل البار، ويقضم لقمة من ساندويتشه ويرشف من كأس شايه. الضحكات تلعلع كالرصاص، الاعترافات الحميمة، الأقسام والقبل على الخدين. والشرطي المتعب يجلس على طاولة قرب طاولة المدام الستينية. يخرج أحد الشاربين من الباب الأيمن قربك ويتركه مفتوحا، البرد يدخل لاذعا، والمدام الستينية تتداخل في معطفها وثيابها السوداء، تراك تراقبها فتشير إليك بالعصا لتغلق الباب، تتجاهل إشارتها وتبتسم، تتمعن في وجهها المتغضن، تعاود الإشارة بعصاها فتغمزها بعينك اليمنى، تضطرب المدام ويحمر خداها، يحمران تماما كعذراء في السادسة عشرة. وأنا لم أحضر بعد، لا تهتم، إن لم أجئ اليوم، قد أجيء غدا. تلفت حولك إلى الناس، واندمج فيهم. الواقف إلى اليسار متوتر، سكران؟ قليلا، ولكنه يحب الحديث، تجاوب معه، دعه يخطب واستمع إليه، حدثه إن شئت عني، عن شعري وأحلامي وقصصي، عن إعجابك بي ودهشتك مني، حدثه عن موعدك المستمر معي، حدث نفسك ودعه يحدث نفسه. أنا أسمع أصواتكما، أرى تصوراتكما. وأنا أرسلكما إلى هذا الليل القاتم لتعرفاه. تحاورا، إني أسمع وأرى.

الصوت المتكلم

(محمود . عمر)

– ... أضف إلى ذلك أنني من منطقة جبلية، هذا هو السبب الحقيقي، فقد كنت أمشي حافيا على الثلج وأنا طفل، وأخوض في الوحل وأعرض

نفسي للمطر. من هنا جاء إحساسي الدائم بالبرد.. البرد.. البرد، هل تفهمني؟ لهذا أدمنت الخمر، ولهذا أيضا. ألم أقل لك ذلك؟. أنا جبان أمام الصداقة، جبان إلى حد الهلع، لا أطيق التفريط في صديق مهما أساء إلي. في الحقيقة أنا أيضا لا أقبل الإساءة من صديق مهما صغرت. كيف؟ لا أدري، الأمر هكذا. كالجمر تماما الأصدقاء عندي. ذلك الطفل الذي خيروه بين الجمرة والتمرة مد يده إلى الجمرة، كان ذكيا لأن العالم صقيع. وهذه الحياة الكلبة كم تساوي بدون كأس وصديق؟ لا شيء، صفر، برد، برد دائم، والإنسان ضعيف أمام البرد، الإنسان في الحقيقة بائس مسكين يستحق الشفقة. هل تفهمني؟ أنا أحدثك هكذا لأنك أصبحت صديقي الآن، أرجو أن تعتبرني أنت الآخر صديقا، اعتبرني صديقك الذي تنتظره. ما اسمه قلت؟ يونس؟ أنا اسمي محمود، سمني يونس إن شئت. ما أسهل أن تستحضر غائبا، أعط اسمه لحاضر فيكف عن الغياب. هذا البار مثلا، تعرف اسمه المكتوب على واجهته، أنا أسميه (مراد). لماذا؟ لأن ولأن ولأن... أنا أحدثك هكذا في الحقيقة لأنني بدأت أسكر. حين أسكر أكون واضحا وصريحا وأتحدث عن نفسي وعن فلسفتي في الحياة ولا أهتم بالآخرين. ربما لهذا يشرب الناس. حين يكون الإنسان صاحيا يكون مشغولا دائما بالآخرين، حريصا على أن يفهمهم، على أن يفهموه، في الحقيقة يكون حريصا على أن يفهموا أنه يفهمهم، هذه هي المسألة، المهم أن يعتقد الآخرون أنك ذكي، وطيب، ورجل، وتستحق الثقة والاحترام، ولن يعتقدوا هذا إلا إذا أقنعتهم أنك تفهمهم، وأنهم فعلا أذكياء وطيبون، ويستحقون... إلخ... إلخ. أوووف، إن ذلك يصيبني بالغثيان حين أرى الألسنة المتحركة والأسنان البيضاء واللثة الصفراء والأقنعة المزغبة... حين أرى ذلك... الإنسان في الحقيقة كبالة ذرة..

ذلك هو. وحين تزيح عنه كل الأغطية والقشور تجد البرد قد فتت حبات الذرة، وليس هناك إلا الفراغ. تفو.. هذه الأفعى الرقطاء التي تراها بالقرب منك، والتي تسمع راءها الملثوغة.. لقد مضغت لسانها التمتام ذات ليلة. إنها لطيفة جدا في أول الليل، ولكنها تنكرك قبل طلوع الفجر، كيهوذا، ككل الناس. وصاحبك الشاعر. أين تظنه الآن؟ لابد أنه ينام، والشعر يخرج من فمه وأنفه موزونا مقفى هذه المرة، وله معنى أيضا. أنا أتساءل كيف يستطيع الناس أن يناموا؟ يا للعجب! يتمددون على أسرتهم، ويغمضون أعينهم وشفاههم، ويرخون عضلاتهم، ثم يغيبون عن الوعي، ويشخرون. يا له من منظر مضحك! أنا أيضا أنام طبعا، ولكن هذا لا يمنعني من الضحك. النوم حالة غريبة بدائية، ذَنَبٌ زائد من العصر القردي. اشرب، اشرب، لا عليك نحن أصدقاء. أضف إلى ذلك...

الصوت الصامت

(عمر)

لماذا إذن لم تتدخل؟ هز يونس كتفيه ولم يجبني. طال الصمت، فلذت بالجريدة المطروحة على طاولة المقهى، وأغرقت عيني في مقال داخلي:

«وعادة لا يحس رجل الفضاء بأحاسيس الإنسان على الأرض. يصير جزءا معدنيا من المركبة، ينظر بحياد إلى الكون، وإلى نفسه، يتلقى الأوامر وينفذها تلقائيا. حين يعود إلى الأرض يعود كائنا غريبا تلزمه عدة أيام في عيادة خاصة يعالج فيها بتدريب معين. فإذا خرج إلى الحياة الإنسانية من جديد أصبح إنسانا سويا من الخارج. أما عالمه الباطني فينتظر سايكولوجيا

جديدة لم تظهر بعد».

ولكن لماذا لم يتدخل؟.. كان الرجل قد جاء من اليمين، شعره الأشيب والطفل المتقافز إلى جانبه لفتا نظري. الطفل في حوالي الخامسة من عمره، يلبس قميصا أزرق وسروالا قصيرا أبيض. يده سجينة الكف في يد أبيه الكبيرة، وهو يتقافز ملوحا بيده الأخرى الممسكة بقالب جاتو، خابطا بصندله «الميكا» على الأرض في تناغم. وحين وقفا على الرصيف منتظرين الضوء الأحمر ليعبرا، سكن الطفل، وثبت عينيه في الكتابات المعلقة على محلات الرصيف المقابل. وحينئذ انتبهت إلى أن يونس كان ينظر إلى الطفل في اهتمام. كان اهتمامه غريبا، دقيقا ومركزا، كما ينظر بهلوان إلى السلك الذي يعبر فوقه. وبدل أن أخرجه من اهتمامه عدت بنظري إلى الطفل والرجل، ثم إلى الكتابات المعلقة على الرصيف المقابل، بينها لافتة كبيرة بيضاء مكتوب فيها بالأحمر: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الضوء الأحمر، الراجلون يعبرون، وفجأة، يتناثرون إلى الأمام، إلى الخلف، إلى اليمين. من اليسار تقبل حافلة مسرعة، تصر الفرامل. أقف بسرعة لأنظر من فوق الرؤوس، ولكني لا أرى شيئا. أنظر إلى يونس فأجده هادئا يدخن سيجارته ويرشف من فنجان قهوته في صمت. أسير مع الناس إلى حيث يتجه الناس. على بلاط الشارع كان الطفل منطرحا وسط لطخة واسعة من الدم، فوق جزء من اللطخة شيء رمادي معجون متناثر لم أدر أكان المخ أو قالب الجاتو. وقرب جثة الطفل كان الرجل الأشيب قاعدا على الأرض يضحك. رغم الشيب الوقور والبذلة الأنيقة والحذاء الأسود اللماع كان قاعدا على الأرض، وكان يضحك، بل يقهقه، دون توقف.

«عرفت ما سيحدث منذ رأيت الطفل» قال لي يونس حين عدت إلى المقهى، قلت ساخرا:

– هل أصبحت عرافا؟

– كان الحادث واضحا لي وحقيقيا مثلما تتكلم أنت الآن.

– لماذا إذن لم تتدخل؟

هز كتفيه صامتا، ولكن لماذا لم تتدخل؟ كانت عيناه حزينتين حين قال:

– لو فعلت لدهستني أنا الحافلة، كان لابد أن يموت الطفل لكي أبقى أنا حيا.

منذ ذلك اليوم دخل صمته الكبير، وغاب. لم يخلف غير أشعار وقصص ويوميات، وغير موعد يخلفه كل يوم. هل غاب لأنه مات؟ هل مات لأنه تكلم؟

الصوت المتكلم

(محمود . عمر)

– هل تحب البرتقال؟

– يعجبني طعمه.

– الطعم فقط؟ لعلك من فصيلة الماضغات.

– عفوا، لم أفهم.

– يا ولدي ما هكذا يُذاق البرتقال. سأعطيك مثلا، انظر إلى كأسك الممتلئة هذه ـ وبالمناسبة، هي تنتظر من زمان، لا تخجل، سلم عليها ـ لنفرض أن في قعرها ثقبا صغيرا تنزف منه ـ المسكينة ـ قطرة قطرة، وأنك رفعتها أعلى وترشفت قطرتها النازفة الأولى. إنها الجرعة الأخيرة في الكأس، هل

تجد لها حينئذ طعم الجرعة الأخيرة؟ كلا. لأنه يا ولدي لكي تذوق طعم الجرعة الأخيرة يجب أن تترشف السابقات. هكذا البرتقال، لكي تذوق طعمه الحقيقي فعلا يجب أن تبدأ من الشجرة. هل رأيت قط شجرة برتقال؟ جميل، أخفتني من قبل، هل تعرف أنهم في نيويورك لا يصدقون أن للبرتقال شجرا يثمره؟ إنهم يعرفون الشجر في الحدائق، ويعرفون البرتقال في الأسواق ولكنهم لا يتصورون برتقالا على شجر. تماما مثلما يعرف بعض الناس عندنا القمر، ويعرفون الإنسان، ولكنهم لا يتصورون إنسانا على القمر، لذلك يا ولدي ابدأ من الشجرة، وقبلها من الحوض، حوض الشجرة الممتلئ بالماء والغرين، قبل أن ترفع بصرك إلى الأغصان حيث الريح والشمس. ذلك أن هذه العناصر الأربعة هي التي تخمر رحيقها الخالص في فصوص البرتقالة الداخلية: كؤوسها الشفافة المترعة. واهتم بالأوراق، هل انتبهت إلى الأوراق؟ ليست خشنة معروقة مزغبة كأوراق الشجر الآخر، كل ورقة ذات عمود فقري واحد، جناحاه أملسان أخضران داكنان صلبان في طراوة. مر بأصابعك فوقها، واقرأ رسالتها الشهية في نعومة وبطء، واسمع زغرداتها الخضراء في دمك. وارفع وجهك إلى الزهر، آه الزهر، كالورق تماما في الصلابة والملوسة، ولكنه صغير وأبيض، يتكمم كحق المسك ما أن تفتقه. وببطء أرجوك. حتى ينهمر الرذاذ العطر في أجمل وأحلى ما في سرة الكون من أسرار... لا يهجم على خياشيمك مباشرة كالروائح التي تعرف، ولكنه يغمرك في نعومة ولطف كالزقزقات، فتحس بالعطر نعم، ولكنك تحس معه بالطراوة والانتعاش، وببلل خفي كماء الذكريات. لا بأس عليك الأن، أصبحت صديقا، وتستطيع أن تمد يدك إلى الثمرة، لا ترفعها إلى فمك، قربها من بشرتك، ولاحظ الشبه والفرق، ألا تحس أنها البشرة الأفلاطونية؟ ما بشرتك أمامها إلا صورة مشوهة خشنة مغلقة مصنوعة، ولكنها صورة منها

مع ذلك، الملمس واللون والمسام. حذار أن تقشرها، فصيلة الماضغات هي التي تقشر البرتقال، تذوق الرحيق مختوما في كأسه العاتق ببطء وأنصت إلى الاستجابة الناعمة المستسلمة للفصوص الحمراء المشربة بالبياض. افعل ذلك يا حبيبي، وتعال بعدئذ أخبرني عن طعم البرتقال.

– ألم تر برتقالة متعفنة في حياتك؟

– متعفنة؟ كلا... بلى رأيت البداية، حين يَلَغُ فيها الأطفال من فصيلة الماضغات. للبرتقالة عمر تسقط في نهايته من الشجرة. اقطفها قبل أن تسقط، اشربها. ستعيش ما بقي من حياتها في جسمك. وحين ينتهي عمرها تسقط أنت. سأحدثك عن المعرفة.

– المعرفة؟ ولكن ما العلاقة؟

– لماذا العلاقة؟ تعلم يا ولدي أن حديث الشراب كالعصفور، مرح نزق قافز، لا يستقر على موضوع، وذلك طعمه الحريف الشهي. لأنه لو استقر على موضوع يضغط عليه حتى يقتله لكان فيلا لا عصفورا، ولكان حديث أكل لا حديث شراب. فيم كنا نتحدث؟

– عن المرأة.

– آه.. المرأة. بم تعرف المرأة أنت؟

– المرأة؟

– نعم المرأة، امرأة تعرفها، ولنقل إنك تحبها، وهي مقبلة من بعيد مختلطة بالنساء والرجال في الشارع.

– بوجهها طبعا.

– قبل أن تتبينه.

– بملابسها.

– بدلتها . ينبغي أن تعرف . ولبست ثيابا جديدة.

– لست أدري، قد لا أعرفها.

– بلى، بالرائحة.

– الرائحة؟

– نعم، الرائحة، وكنت أحسبه نوع العطر في البداية، قبل أن تعلمني النساء أن لهن روائح كالأزهار خاصة وفريدة. هي ليست رائحة بالضبط، هي رائحة امتزاج الروائح: الشعر والبشرة والعرق والدم والمغابن والتثنيات والصدر وباطن الركبة.. كل جزء، كل مليمتر نجم مستقل يرسل رائحته بسرعة الضوء، فتختلط الرسائل في الفضاء الخارجي وتكون مزيجا كيميائيا كالإكسير لا يمس رجلا إلا حوله ذهبا كله: قويا أنيقا لطيفا خدوما مفعما بالود أربعة وعشرين قيراطا. لكن حذار. ليست كل امرأة كذلك. أحيانا تهزني إحداهن بيديها معا فلا أحس بها.. أنا أحدثك عنها هي.

الصوت المكتوب

(يونس)

الشعر:

هذه الشعرة؟

كلا ليست شعرة شمشون

ولا شعرة معاوية

إنها شعرة جنية

تزوجتني حين كنت صغيرا

زورتني أمي ضريح سيدي زروق

فأحرقها السيد

وفي الرماد وجدت الشعرة . فاحتفظت بها

سوداء كالرغبة . وطويلة كالزمن

بها كان يقوى كسرى على شيرين

وسأقوى، آمل بها على القصيدة

القصص:

كان لي كرن أسود، طويل وجميل، يتدلى من خلف رأسي الحليق على عنقي وينتهي بخيوط حريرية حمراء. أمس ذهبت إلى الحلاق، وأطحت بكرني، نقدت الحلاق الدراهم فشكرني فشكرته فقال إنه في خدمتي فقلت: العفو فقال بالصحة فقلت شكرا فقال: العفو فعفوت عنه وأطلقت سراحي منه وخرجت إلى الشارع فاصطدمت بعابر أو اصطدم بي، فالتفتُّ والتفتَ فقال: اسمح لي، حين كنت أقول له: اسمح لي، فرددنا معا (لا بأس)، فشتمته فشتمني فتلاكمنا، وحين فرقنا الناس عدت إلى الحلاق فلكمته.

ها أنذا في بيتي الآن. الباب مقفل بالضبة والمفتاح، ولن أخرج حتى ينبت كرني من جديد.

حوار مع النجمة:

– ألا تُونس الأحباب يا يونس؟

– مدي إلي شعاعا.. هذه الثياب المتسخة بالقيء وبالخمر وبالدخان. حتى هذا الجسد تحتها، الجسد القذر المريض المخمور، وهذه الكلمات البذيئة.. وحتى هذه الذكريات والهواجس والمشاعر القذرة المخجلة. هذا كله يا سيدتي غطاء، أقنعة، قشريني يا أشعة السماء، تجدي جوهري الطاهر الصافي: العدم. لا أنظف من العدم، ذرة الوجود الأولى يا سيدتي وسخ، خلية الوجود الأولى يا سيدتي وسخ، لذلك كلما ازددت وسخا ازددت وجودا وعذابا ووحدة مثلك يا جزيرة الضوء النائية.

– ألا تونس الأحباب يا يونس؟

– مدي إلي شعاعا...

من اليوميات:

1. معرفة الهجير / القتل / الابتلاع، ذلك هو ما يسمى بالحياة هنا. هل يمكن أن أطرح كل شيء وأرحل؟: كتبي وأصدقائي، نزواتي وأحلامي، ثقتي بنفسي وبالآخرين.. هل يمكن أن أطرح كل شيء، كل شيء، وأرحل؟

2. اطرح كل شيء وارحل، لا إلى مكان، حيثما تول وجهك يبتلعك المكان.

3. سأطرح كل شيء وأبقى. الذي يرحل لا يخرج، يحمل معه أحلامه، سأطرح كل شيء وأبقى.. أطرح كل شيء وأقول. اجهر بالداخل تبعث، اصدع بالصامت تظللك الأشجار.

الصوت الصامت

(محمود)

حتى في مرآة التواليت لا ترى وجهك الذي تعرفه. ولكنك تراه هو. طفلا صغيرا يتطلع إليك في إعجاب ودهشة كما كان يفعل في الزمن القديم. تنظر إلى وجهه الطفولي فجأة فتضبطه متطلعا إليك في إعجاب مدهوش، يخفض الطفل عينيه في خجل، وتهرب أنت من الارتباك إلى الأمر الذي ينفذه الطفل في سرعة وحماس. ولكنه ينظر إليك الآن من المرآة في إعجاب ودهشة دون أن يخفض عينيه، إلى أن ينبت وجهها في الجانب الأيسر للمرآة مدورا وجميلا، شهيا وصامتا، تنظر إليك مرة وإلى (مراد) مرة كأنما تقارن بين الأخوين. يا ويلي كيف أواري سوأة أخي؟ يا ويله كيف يواري سوأتي؟ وما الذي أعجبها في الطفل؟ وهل هو طفل بعد؟ ومتى يكبر الأطفال؟ وكيف؟ أراه اليوم وغدا وبعده، في الصبح والظهر والمساء، طفلا طفلا طفلا.. وهو مراد طبعا فأي جديد؟ وهو مراد طبعا فأي غريب؟ وهو مراد طبعا هل يخفى علي؟ بلى، كان يخفى، وكان جديد، وكان غريب، ألذلك يبقى الأطفال أطفالا في نظر آبائهم حتى حين يكبرون؟ يا حسرة على الآباء. ولكنه كان بعد يبول في الفراش، فكيف تختار الطفل البائل على الرجل الكامل؟ أقسم أنه ما زال يبول في الفراش كما أبول في هذه المبولة الآن، وكما يبول جميع الناس في جميع المباول. عجبا، كيف يبول الناس؟ يقف الرجل وعيناه مفتوحتان، أذناه مفتوحتان، حواسه مفتحة الأبواب ودماغه، ولكنه لا يعي شيئا، فقط يبول، والعالم لا يُسمع لا يُرى لا يُعرف، يكف عن التقدم، يقف على عتبة الدماغ منتظرا حتى يكمل الرجل بوله. هل يخجل العالم أيضا من البول؟ ولكنها لم تخجل، اختارته وتقدمت إليه. لماذا؟ لأنه يبول. أما لماذا اختارها هو فالأمر

واضح، لأنها زوجتي كانت. ليت الشباب يعود، إذن لَبُسْنَاه وداعبناه، ولعففنا عن الإزار... فالمعرفة تهْرِم.

(عمر)

نسير جنبا لجنب متأبطي الأذرع على الشاطئ كأنما نرقص أو نعبد أو نحصد، نسير جنبا لجنب عراة إلا من المايوه، وجلودنا محروقة بالشمس. الفرح والحزن والتعب تنباع من جلودنا بطيئة متلوية كالزيت. نسير جنبا لجنب متأبطي الأذرع في الحياة.. ثم يغيب. وها أنذا أغرس عيني في الكأس فأراه، جميلا أنيقا مرحا ممتلئ الثقة بالذات، يشرب ويُحِبّ ويُحَبّ ويسافر ويغني ويرقص ويسبح، ويمتلئ مجلسه أينما حل بالشباب، يلتقطون صوته المتفرد الحلو ويشربونه فينتشون. أراه يتقدم سابحا في الكأس ينفض شعره الأسود الغزير كلما اصطدم بجدار الكأس ليقفل عائدا في جمهرة من الحباب المحتفي به كشباب مجلسه. وفجأة أرى الخط الأول ينطبع على جبينه، دقيقا غامضا كالتوقع، أصرخ دون صوت: يونس، لا تلتفت إلى الوراء، ألا تشم رائحة الدخان؟ لا تلتفت إلى الوراء، ألا تسمع الصراخ؟ لا تلتفت إلى الوراء. ولكنه يلتفت فتغزوه التجاعيد، ويلتفت فيصمت، ويلتفت فيتجمد تمثال ملح.

(مراد)

وما هي الرغبة؟ أليست هي الأخرى شيئا نبيلا ومقدسا؟ أليست حياة؟ لم أخنك ولكنه ذلك الثوب المشقوق الجانبين. لم أخنك ولكنه اللحم العاري وله لغة تقرأها شعرات الجسد كالنوتة وتعيد توزيعها، والجسد شعب بدائي فوضوي قبلي محارب يأكل بنهم ويشرب بعطش ويتحرك بقوة، كل عضو

فيه سيد حر، يدق طبله في سرعة ولهوجة وعنف، وتتجاوب دقات الطبول حتى تصم الآذان، ويغيب العالم كله بشرا وتاريخا وحضارات ومعارف وأفكارا وأخلاقا، ولا يبقى سيدا سائدا إلا الصوت: صوتا خاما ليس له معنى لأنه رحم المعاني. لم أخنك، وما الخيانة؟ أليست اسما آخر للحرية؟ نادتني إلى المطبخ لأساعدها، عيناها فاترتان، والأصوات الخافتة تتسلل من الصالون مكتومة كالساخرة أو كالمتواطئة. وضعت يدها على كتفي وقالت ببساطة (كانبغيك). كلمة كالفتيل فجر الديناميت، هدم العالم كله من حولي، وكان علي أن أعيد بناءه لكي أحيا. هل أعدت بناءه؟ كلا.. كنت مجرد حجر فيه تهاوى بين الأنقاض فمن بناني؟ من وضعني في الزاوية أليس أنت؟

الصوت المؤلف

(يونس)

الحادية عشرة.. وأضواء البار تنطفئ متتابعة. المرأة الستينية تتحرك، تعتمد على عصاها السوداء بيد، وعلى الطاولة بالأخرى، وتنهض متثاقلة ثم تخرج من البار.. هي حية بعد، وكنت تحسبها احترقت في الضريح. في كأسها لا تزال تغمز ثمالة شرابها الغريب مغرية ومثيرة. لا أستطيع أن أمنعك، تتقدم في تؤدة، تجلس علىالطاولة، ترفع الكأس وتتأمل الثمالة الكسروية في عجب ودهشة. أعرف ولكني لا أستطيع أن أمنعك، تدنيها من أنفك فتسفعك رائحة متخثرة عطنة كدم الحيض. لا أستطيع أن أمنعك، الأب نفسه لم يستطع أن يجنب ابنه الحمل الحبيب هذه الكأس. تغمض عينيك، تتجاهل نفور معدتك، وتتجرع الثمالة. وقبل أن تغيب تسمع صديق الليلة يقول:

ها... انتهى عمر البرتقالة.

سبعة رجال

يدخلان معا، يختاران الطاولة رقم 8 وراء الباب، يجلسان، ينادي أحدهما، يطلب الآخر بيرة، يطلب المنادى (لابد أنه الداعي) فانطا، الفانطا يتحدث في حرارة، أما المتبير فيتحدث عاديا (هل هو منساق؟ مورط؟ لا غرض له بالآخر؟) أمام الفانطا رزمة صغيرة... الحديث يتشعب، والفانطا ذو السن الذهبية والوجه المستطيل الدقيق الملامح والبشوش المبتسم باستمرار، مقبل على الحديث محتف بصاحبه، المتبير ذو الوجه الممتلئ البارد الغبي (كأنه غبي) يبادله الحديث مبتسما في تحفظ أو في بلادة (كيف يشرب هذا بيرة والآخر فانطا؟ عجب) يتناول الفانطا رزمته الصغيرة المستطيلة المغلفة بورق أحمر، يفتحها في عناية ويخرج من بين محتوياتها سلسلة يد ذهبية، ويقدمها لصاحبه، يرفع الآخر حاجبيه، يأخذ الفانطا معصم صاحبه، ويحيط به السلسلة، يشكره المتبير لابد أنه كان يشكره إذ مد يده المطوقة مصافحا. الفانطا يبتسم، ويخجل أيضا، كأنما يقول: «هذا لا شيء... أنت فوق كل الأشياء». يدخل أحدهم، يسلم على المتبير، يقدمه هذا للفانطا مسميا إياه (مون كوليك)،

يجلس الداخل الجديد (مخيف، يلبس كبوطا أزرق وسروالا أبيض)، يسأله الفانطا في حفاوة، ينادي، يطلب بيرتين لصاحبيه، يأخذ قلما يستخرجه من رزمته الصغيرة الزرقاء المغلفة بالورق الأحمر، قلم عجيب، رقيق مستطيل ينتهي في أعلاه بدائرة رقيقة مصمتة، القلم والدائرة بلون أخضر، يسطر الفانطا فوق الغلاف الأحمر للرزمة الصغيرة أرقاما ويجمع أو يطرح... يطلع صاحبيه على الأرقام متحدثا بشفتيه ويديه وملامح وجهه، محركا جسمه النشط الحيوي فوق كرسيه باستمرار. صاحباه يتابعان بآذانهما الحديث المتدفق، وبأعينهما الأرقام المتشابكة، ويهزان رأسيهما... يخرج الفانطا من رزمته المواربة خاتما ذهبيا دقيقا، يقدمه إلى الكبوط الأزرق، يتناوله هذا، يتفحصه، ينادي الفانطا يطلب بيرتين، يشرب من الفانطا اليتيمة ويتابع الحديث. يتختم الكبوط الأزرق الخاتم في بنصره الأيسر.. يدخل رجلان آخران سمينان، أحدهما يدخن سيجارا، يقف المتبير الغبي يصافحهما بحرارة ويقدمهما للفانطا الواقف أيضا... الكبوط الأزرق الجالس لابد أنه يعرفهما... هو يضحك وهما يطبطبان على كتفيه ضاحكين أيضا.. الفانطا يتحرك... يجلب كرسيين، يقدمهما للسمينين فيجلسان عليهما... يسألهما الفانطا وينادي، يطلب بيرات أخرى...

الطاولة تزدحم بالزجاجات الفارغة.. يقف المتبير الغبي والكبوط الأزرق، يصافحان الآخرين، الفانطا يقف أيضا، يتحدث معهما بحرارة، الكبوط الأزرق يشير إلى السمينين كأنه يعيد تقديمهما... يجلس الفانطا، يخرج الغبي والكبوط، ينادي الفانطا يطلب بيرتين، يعيد أحد السمينين إشعال سيجاره المنطفئ ويحني في صعوبة عنقه الممتلئ القصير على أرقام الفانطا المتشابكة، يسجل الفانطا أرقاما جديدة يطلع عليها صاحبيه، ويحاول بترميش عينيه البراقتين تفادي دخان السيجار، المطر بدأ يهطل في الخارج والطاولة تكاد

تمتلئ. قبل تشطيبها ينبغي دفع الحساب، يرفع السيجار رأسه ويلتفت إلى السمين الآخر، يتابع الفانطا حديثهما في حيرة متنقلا بعينيه بين رأسيهما، وشفتاه مزمومتان متوترتان كأنما تحبسان كلمة تريد أن تخرج، يلتفتان إليه فينطلق في الحديث من جديد، ويعيد فتح رزمته الصغيرة... يخرج منها ولاعة سجائر صغيرة زرقاء مزخرفة بالأبيض ويقدمها للسيجار، يتفحصها هذا باهتمام، ويعيد إشعال سيجاره بها، ثم يقدمها لصاحبه، بينما يتفحصها هذا، يخرج الفانطا من رزمته ساعة بسلسلة بيضاء ويقدمها للسيجار، يقرأ السيجار ميناءها الفيروزي وأرقامها... يضعها على أصابعه القصيرة الممتلئة، كأنما يزنها، ويعيدها إلى الفانطا، الفانطا، يرفض بإشارة من يده، السيجار يضع الساعة في جيبه ويصافح الفانطا، الفانطا فرح، يصافح، بحرارة ويمد يده اليمنى ليصافح السمين الآخر رافضا بإشارة من يده اليسرى أن يستعيد منه ولاعة السجائر... وينادي من جديد طالبا بيرتين أخريين... ينفتح الباب ويدخل رجل آخر، مهيب، يتحرك في وقار، يلبس مانطو قهويا لا قطرة ماء عليه (من أين جاء والمطر يسقط في الخارج؟) يقف السمينان ويصافحانه باحترام. الفانطا يقف بدوره، المانطو المهيب يحمل في أصبع يده اليمنى حلقة مفاتيح يصافح بها السمينين والفانطا ويده الأخرى في جيب المانطو... يقدم له السيجار كرسيا فيجلس، ينادي الفانطا، يطلب المانطو قهوة سوداء، ويخرج من جيبه علبة (الكازا سبور)، يشعل له السمين ذو الولاعة... الصمت يخيم على الطاولة، حين يتناول المانطو فنجان قهوته يحمله إلى فمه مباشرة دون أن يضع فيه سكرا، يرشف رشفة ويضع الفنجان في الصحن، ويدير رأسه إلى السيجار، يقول له كلمة، يرد عليه السيجار في احترام، يخرج المانطو من جيب داخلي ورقة صغيرة يسلمها للسيجار، يتحدث إليه وإلى السمين الآخر...

يقف هذان... يقدمان الفانطا للمانطو.. يصافحان الفانطا ثم يخرجان... الفانطا يبدأ الحديث في تهيب... المانطو يهز رأسه ويتابع رشف فنجانه متجولا بعينيه في أرجاء البار، ومحركا بسبابته اليمنى حلقة مفاتيحه، الفانطا تتصاعد حرارة حديثه متابعا بعينيه بندول المفاتيح الدائر حول السبابة. يخرج من رزمته آلة صغيرة في شكل صاروخ أسود لامع... لابد أنه حامل مفاتيح، فقد تناوله المانطو وعلقه في حلقة مفاتيحه ثم أنهى قهوته في جرعة واحدة ووقف، زرر المانطو، ووضع يده اليسرى في جيبه، وصافح الفانطا بيمناه حاملة المفاتيح وخرج في وقار كما دخل.

وضع الفانطا مرفقيه على حافة الطاولة الممتلئة بالزجاجات الفارغة، وحط رأسه على كفيه المفتوحتين... كانت شفتاه منفرجتين، ولكن سنه الذهبية انطفأت وعينيه البراقتين خبثا... قررت أن أتحرك... قبل أن أبدأ بالتنفيذ أشار إلي... اقتربت منه، وقدمت له الحساب، أخرج من جيبه الأوراق النقدية وأعطانيها دون أن ينظر إلي... كنت أضع الباقي على حافة الطاولة حين كان هو يجمع أشياءه ويضعها في جيبه... أشار إليّ بقلمه أن احتفظ بالباقي، ثم رفع عينيه إلي... تردد قليلا ثم قدم لي قلمه الأخضر... كنت أريد أن أسأله.. ولكنه لوح بيده كأنما يزيح ذبابة، ونهض.

قبل أن يخرج، أخذ جريدة من بائع الجرائد الواقف قرب الباب، فتش عن الدرهم في جيبه فلم يجده... وضعت كفي على كتفه... فالتفت إلي ورآني أنقد بائع الجرائد درهما.. هز رأسه شاكرا.. وخرج.

موسيقى

ذات يوم كان هناك رجل... ذات ويوم وكان وهناك ورجل، هل أنت مصاب بإسهال؟ ابدأ بالرجل. ولماذا الرجل؟ ألست رجلا أنت؟ ابدأ بالمرأة. واحمل إلى بطنها حبوب الألف والباء والتاء، واخزنها إلى فصل الشتاء، فإذا شاخت الفصول فاستخرج خردواتك وابدأ بالرثاء. هذا هو الشعر، سخافة، هذا السجع، وهو حرفة الكذبة، وأنت لست نملة، وأنت كالجعل فادفع كرتك أمامك وابتعد..

ها أنذا أبتعد، أدفع هذا الحرف وأكوره وهو يصير شيخة تقابل البحر، ويصير شيخا كبيرا مسنا يمضغ اللقمة في دقائق، ويدخن السيجارة في ثوان، وهو يتذكر صديقا قديما فتغرورق عيناه، سخافة، لا تغرورق عيناه بل يبتسم، بل يسب لا حرمة ولا قيمة لشيء عند شيخ مسن، وهو عصبي لا يحب أن يهتم به أحد، كلا يحب الاهتمام ولكن دون أن يشعر به، على الأقل دون أن يشعره الآخرون به...

وهو يتدحرج ويتكور وأنا أدفعه وهو يفلت وأنا أشد أذنه وأصارعه، وأنا

أحبه ولكن إذا غلبته، وبعد أن أغلبه سأعفو عنه وأتخذه خادمي، أتخذه حتى صديقي، وأسميه «أنكيدو» أيضا، ولكن لا قبل أن أغلبه...

وها هو يصير «عين المصباح» ولماذا عين المصباح؟ وفي الليل يضيء فيها مصباح صغير تظلله خضرة الطحلب وسواد الماء، ويشع منه صمت بارد صاف يترقرق فيه نقيق الضفادع والضفادع صغيرة منغلقة على نفسها وحياتها الخفية الخضراء. وما هي هذه الحياة؟ ولماذا تكتسي العين في الليل بهذا الخوف المغْرِي؟ وإذا كانت لا تريد أن نتدخل فيها فلماذا تجذبنا؟ وما هو المصباح؟ وماذا تقول الضفادع؟ نقيقها ينهمر موسيقى ساجية من بعيد كضوء ذلك الكوكب «نمسيس»:

عَيْنُ المِصْبَاحْ فَرَحٌ مَسْرُوقْ

عَيْنُ المِصْبَاحْ جَسَدُ المَعْشُوقْ

عَيْنُ المِصْبَاحْ قَطْرَةُ مَاءٍ أخْضَرَ والدُّنْيَا حَبَّةُ بَرْقُوقْ

وأي موسيقى قوقية هذه؟ ادفع كرتك أمامك وابتعد...

وأنا أدفعه وهو يتكور ويصير سي علال الشيباني. ولماذا الشيباني؟ كان لجده رأس كبير جدا وجسم ضخم جدا. وذات ليلة تصارع مع «شمهروش»، وبات يصارعه حتى الصباح. صرخ أول ديك، والجد يدخل في بعضه من الخوف، وأسفر الصبح، وذاب «شمهروش» وانتصر الجد، وتضاءل جسمه حتى صار كالحمصة، وابيض شعره هو ابن العشرين حتى صار كالحليب، وخلف ذرية كالكسكسو. ومن يومها وهم يتصارعون مع الجوع فقط، أما الجن فلا يقرب أطفالهم... ولماذا سي؟ لأنه يفرز الحروف، ولأنه يحفظ «قل أعوذ برب الفلق»، ولأنه يغرس ظفره الأسود المتسخ الصلب بين لحم وظفر إبهام المصروع، ويبدأ في القراءة، أو في القلقلة (لأنه يسرع، ويدخل بعض

الحروف في بعض فلا تسمع منه إلا القاف تتدحرج ثقية لاهثة على لسانه البقري الغليظ) فيشفى المصروع في الحال.

دائما هذه القاف الثقيلة... اخرج من أقصى حلقك قليلا... أطل على الدنيا من طرف اللسان...

وأنا أدفعه وهو يتكور ويصير عَمِّي، وعَمِّي رجل أعمال ورجل مال ورجال شمال، وادخلوا مهلا والتزموا أقصى اليمين السمين الكمين وافتحوا الآذان ها هي الموسيقى تنهمر، وماذا تريد، هو ذا يوم جديد، مترع بالقيح والصديد، افغروا أنوفكم بالأنف الحيوان يتأنسن، وكل شيء على الأحسن...

وعمي استقبلنا بلطف، وهو لطيف، وهو ذكي، ويقرأ البنية التحتية للهجة. وهو يبتسم بتواضع، والتواضع صفته البارزة والصارخة والمنهمرة والقائلة في لطف «أنا متواضع» وفي ابتسامته، وفي وقفته، وفي نظرته، وفي نفس الوقت، وفي صمته وأنا أتكلم والناس يتكلمون، وأنا أتكلم مع الناس، والناس يتكلمون معه، وأنا لا ألبس المعطف، وهو، لكنه، يفهم اتجاه اللهجة، وابتسامته متواضعة والشفتان تنفرجان قليلا وبمقدار محسوب، وسنتان بل ثلاث تظهر بل سنتان ونصف، وهل هما علويتان أو سفليتان؟ وهما علويتان، والبرق يبتسم وينخطف والبرق يهدد بالصاعقة، وهو لم يبتسم، بل عيناه تكسرتا، والبقرة تنظر إلى العجل، ونظرات البقرات منهمرة متكسرة، ونظرته صلبة، وبريقها ثابت لا ينحدر، غائر في أعماق البؤبؤ، وغير غائر في البؤبؤ بل عالق في حواف العين وأطراف الآماق، وهو يقول لي بعطف:

«هل تقدمت قليلا؟ وماذا أصبحت؟ وهل نجحت في الدراسة؟ وهل توظفت؟ هل أنجبت؟ وهل ملكت سيارة؟ وهل ملكت دارا وأصولا ومركزا اجتماعيا ولمعانا؟ وهل يحترمك الناس ويقدرونك ويعبدونك؟ وهل تسخرهم

بعطف وهل تحسن إليهم؟ وهل تعقلت؟ وهل صرت رجلا؟ ومحبوبا وكريما ومحسنا؟ وهل أصبحت كذلك؟ وهل لم تصبح بعد؟ وما هي الأشواط التي قطعت؟ وأنت لن تصل أبدا، وحالتك تستحق الرثاء، وأنا أرثي لك، وأنا لا أرثي ولا أحقد عليك ولا أبالي بك، وأنا أفهم لهجتك، وأنا أفهم نواياك، وأنا خلفت الرجال ولم أخلف البنات، وأنا لي ثمانية رجال، وأعطيك اثنين ويبقى ستة، ولا تقصر».

وهو يعطف علي وينصحني، وأنا لا ألبس المعطف.

فهل القاعدة هي الوسط التاريخي المعتدل، والاستثناء موضة تنقرض وتمحي كالزبد؟ وهل الاستثناء هو التاريخ لأنه الحركة، والقاعدة جمود رجعي يهدد الحياة والتاريخ؟ وهل الاستثناء يبرر القاعدة وهي وضعت من أجله من أجل الجواب عن سؤاله، والأخذ بيده: الخروف الضال؟

وهل القاعدة تبرر الاستثناء وهي وضعت من أجله من أجل قتله ولابد أن يتحرك وأن يتحرر.

وهل هذا كله هراء والاستثناء جزء من القاعدة؟ وهذا مخيف فليبقيا منفصلين ولو على الورق، ومتصلين ولو بالأرق، وهل هما ضرتان ولودان غيوران، وهل نتزوج الثالثة والثالثة ثابتة والرابعة رائعة والخامسة والسادسة وإلخ... إلخ. وإذا أردت أن تعرف فاقرأ الكتب، وأنا أقرأ الكتاب والمذيع يذيع في الراديو: [إني إذن آخر سلالة بيت] (وبهذا الخبر) [بيوت فرنسا عراقة] (آخر برامجنا) [مسوق إلى الرحيل عن هذ الحدود العاصفة التي يضيئها القمر] (الساعة تدق الآن منتصف الليل) [ذلك التجوال في منتصف الليل] والكاتب والمذيع يلتقيان في منتصف الليل، هل صدفة؟ وهل بتدبير قدري؟ وهل بتدبير منهما؟ وهل بتدبير مني؟ وأنا أيضا في منتصف الليل، والعالم

كله في منتصف الليل، وهي سألتني ماذا تفعل بالليل؟ أكتب القصص. وماذا تفعل بالقصص؟ أنشرها. وكم يدفعون لك؟ لا شيء. وعلاش كتعذب راسك آحبي؟ وهل أنا أعرف؟ وهو سألني لماذا تصمت؟ وأنا سألت مكسيم غوركي، وغوركي.

«في أحد الأيام سألته: أنذرت الصمت أيها الأب نيقوديموس؟ فتنهد وأجاب: كلا، لو كان عندي ما أقول لتكلمت».

وهل هذا جواب؟

وهل أحد عنده ما يقول؟ والقول بمعطف العالم وأنا لا ألبس المعطف، والموسيقى تنهمر، ولكي تذوق موسيقى استمع إليها مرتين، والمرأة أيضا، والكأس أيضا، والحياة أيضا، وكل شيء أيضا، والمرة الثانية هي الأحلى، وهل هناك مرة ثانية إطلاقا؟.. ولم لا؟ الباب المغلق يقرع والقلب يسيل والحناء تنهمر حمراء وصفراء وذهبية ومكرملة كدم البكارة كشاي العصر كزهور آسيوية غريبة وواعدة، وحبيبتي شيخة من واد زم، والنسويات تنهمر، وقرعة الريحة والصابونة والمنديل والمشد والعرق و«عيقتي» والخاتم والكيلوط والمكتاب والزين والغزال والريحة والصابون والريحة والعرق والحناء والروج، وبالأنف نحب بالأنف نكره، نفرك وننفر، وبالأنف نحيا، وحبيبتي مقابلة البحر لا يرحل، والحر حل، والحر يقبل، ولم لا تتعقل وتتزوج؟ ومن خلف القفطان تستجيب الوفرة والخصب والطراوة وترتخي وتستسلم وتهمس: «قيَدَّكْ، قيَدَّكْ، قيَدَّكْ» وفصل على قدك، والموسيقى تنهمر والمخ يَنْصَوِتُ يأكل الأصوات في العالم آلم آلم آلم آلم، وأسراب الموسيقى ترتمي في المخ كالسائحات الشقراوات في مسبح مراكشي، والباب المغلق يقفل والأبيض المتوسط يُزَرِّرُ، وتبتعد مُلوِّحةً كل الشرفات الإسبانية واليونانية والإيطالية بزهورها المعرشة وظهيرتها الراكدة وصمتها الكسول.

... وأنا أدفعه وهو يتكور ويصير امرأة جميلة على سرير، كلا على فوتيل تستريح مضطجعة وأمام عينيها صحيفة، أو طرف ثوب رقيق؟ تغطي به الجزء الأعلى من وجهها، هل تحجب الضوء؟ وهل تقرأ؟ وهل تريد أن تنام؟ وشعرها أسود غزير، ووجهها جميل، وجمالها نبيل ومتعال ولا مبال كعمارة وكمرسيديس، وهي تلبس قميصا وتنورة، وما هو لون القميص القصير الكمين؟ والتنورة سوداء تكشف عن فخذين ناصعين، وما أن يبدآ بالإثارة حتى تحس صاحبتهما بعينيك الحارقتين، ولو أنها بادرت فتلافت العري لازدادت الإثارة ولكنها تستمر مضطجعة ولا مبالية، بل هذا التقارب بين الحاجبين يرشح بضيق خفيف عابر: «أهذا أنت؟ ألا تترك أحدا يستريح؟» وكأنها تقول لي ذلك وكأنني أقول لها إنني ضيف وإنه هل من الممكن أن أشرب شيئا؟ وإنني وحيد وإنه هل من الممكن أن نتبادل الحديث؟ والحاجبان يرتفعان، والشفتان تتمططان عجبا من الدنيا وتقولان: «الله يستر».

وإلى بغيتي النخوة وأنا من أنا وأنا شبح، سِيرْ لْهِيهْ.

وإلى بغيتي المريقة الدار البييضاء

وكويزة العزيزة... منين جاك التريللان منين جاك

جابو لي مسيو جاك

وكويزة العزيزة... منين جاك الترالّلان منين جاك

جابو لي ولد عمي دافيد

وكويزة العزيزة... منين جاك الترولّلان منين جاك

جابو لي خويا العرابي

وكويزة العزيزة... يا أخت العالم آلم آلم آلم ألست أخاك؟

اسمي؟ مهلهل، ماذا أفعل؟ أزرع الـ «هل»، ماذا أحصد؟ الريح، لماذا أعذب نفسي؟ وهل أنا أعرف؟

«ابتعد... الأرض تهتز وهم قادمون ولو شموا ريحة آدمي...»

وقالت لي: ابتعد... تَعِدْ... تَعِدْ... تَعِدْ.

الغابر الظاهر

I

كان حتى كان، في قديم الزمان، كانت العرجا تنقز الحيطان، والعورا تخيط الكتان، والطرشا تسمع الخبر فين ما كان.

قالت الطرشا: سمعت حس الخيل دازوا، قالت العورا: أنا حسبتهم سبعة، قالت العرجا: تحزموا نلحقوهم.

وحين لحقناهم لم نجد خيلا... لم نجد غير ثلاثة أطفال صغار في طرف الغابة يقفقفون من البرد ويمدون أبصارهم المتوجسة إلى الغابة في الظلام.

فيا أشجار الغابة العريانة

يا أحجار الغابة السهرانة

ويا بوم الغابة اليقظان

لماذا يخرج في الليل أطفال هذا الزمان؟

قالت الأشجار: ماتت الأم.

قالت الأحجار: تزوج الأب.

قال البوم: لا يرضى الأطفال الظلم.

قالت الأشجار والأحجار والبوم: الحياة حارة.

الأطفال الشجعان، دخلوا الغابة، الأطفال الصغار الجميلون الشجعان سلموا على الحصى وباسوا الفراشات وصافحوا الأغصان، قالت الثمار: أنا لكم الطعام، قالت الجداول: أنا لكم الشراب، قال العشب الأخضر الطري: أنا لكم الفراش.

لكن الأطفال الشجعان قلبوا الغابة: سموا الذئب أبا، سموا «سكان المكان» زوجة أب، وسموا ناموس الغابة الظلم. دقوا الحصى بالخشب، صفروا في القصب، وهزوا بأقدامهم عنق الأرض البليد، ففار العشب وضحك الماء ورقصت الأشجار، جنت الريح وانفضحت كل الأسرار.

آح على الأطفال الشجعان، بلعتهم مرجة الماء وغار بهم سكان الغدران.

الأقدام الحافية الرخصة.

وخزتها إبر الجن

عرفت شوك الاسم وشوك السر وشوك الظن

وكانوا إذا لقوا بعضهم قالوا نحن إخوة، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، إنما نحن مستهزئون.

II

وقع الظل على الطفلة كوثر، فالتفتت ورأتها. قالت المرأة مبتسمة: تعالي معي. صدرها واسع وفستانها ملون وصوتها عذب وحنون. قالت الطفلة

مبهورة! أنا أرعى البقرة، وأبي يضربني إذا...

. اتركي خلفك البقرة وأباك، وتعالي معي، أصنع لك عشرات العرائس، وأعلمك الغناء، وأما أكون لك.

قالت الطفلة مقهورة: أنا أجلب الماء وأشطب الدار، وزوجة أبي تضربني إذا...

. اتركي خلفك الـ «تمارة» و«الشقاء» وتعالي معي. آخذك إلى إخوتك الغائبين فتفرحين بهم ويفرحون بك وتعيشين في بيتهم الكبير أميرة. تبعتها الطفلة مسرورة، وغابت معها في الغابة.

سارت كوثر وراء المرأة طول النهار، فلما أظلم الليل أرتها في الأفق نارا صغيرة: تلك نار إخوتك يا حلوة، فاسرعي إليها، وحين التفتت كوثر لم تجد الرأة... لم تر في الليل والغابة إلا تلك النار الصغيرة تغمز بالخوف وبالحب.. قالت الطفلة: يا نار، إن كنت نار إخوتي فاقتربي اقتربي، إن كنت نار الجن فابتعدي ابتعدي، وكانت النار تبتعد كلما اقتربت كوثر. فلما أجهدها السير والخوف والوحدة سالت على خديها الدموع الصغيرة المرتعشة وقالت: يا نار اقتربي... حتى ولو كنت نار الجن اقتربي... وسارت الطفلة والنار نحو بعضهما...

لما وصلت كوثر دقت الباب فسمعت صوت أخيها الأكبر: من يدق الباب؟ من الأعداء أو من الأحباب؟ قالت الطفلة فرحة: «أنا كوثر» ففتحوا لها الباب واستقبلوها بالأحضان.

III

ثم إن كوثر حكت لإخوتها جميع ما جرى لها من الأول إلى الآخر، وكذلك هم أخبروها بجميع ما جرى لهم، وأقيمت الأفراح والليالي الملاح، وقال الأقوى: أنا عريسها، قال الأجمل: أنا حبيبها، قال الأذكى: «دعوها تختار، قالت كوثر: أنا أختكم يا ويلكم، قالوا لها: دعي عنك القيل والقال، ولا تتعلقي بالمحال، فلابد للنساء من الرجال، ثم إن الأقوى لم يسمع كلام أخويه، ولطم الأجمل فَقَقَأ عينيه، وضرب الأذكى بعصا فكسر ساقيه، فهربا منه إلى خارج البيت، ودخل هو بأخته تلك الليلة فلم يجد بها دما. وبات أخواه يسمعانه من خارج البيت يضربها بالعصا طول الليل وهو يصيح: أين الدم؟ أين الدم؟ أين الدم؟

فيا أشجار الغابة الحبلى

يا أحجار الغابة الثكلى

ويا بوم الغابة المظلوم: أين الدم؟

قالت الأشجار: دم العذرة، ثلث الشعرة.

قالت الأحجار: دم القرابة، الثلث الثاني.

قال البوم:

من يفلق الشعْرَةْ

تفلقهُ الشعْرَةْ

ودم الثأرْ

الثلث الباقي

وقالت الأشجار والأحجار والبوم: الخوا حارة.

وفي الصباح تصالح الإخوة الثلاثة ودفنوا أختهم، وبنوا على قبرها ضريحا بقبة خضراء، قال الأكبر: كانت ابنتي، قال الأوسط: كانت أختي، قال الأصغر كانت أمي. طوبوا الطفلة قديسة، وقدموا لها النذور والقرابين وزارتها الغابة حتى امتلأ الصندوق.. وكانوا إذا التقوا حول «الربيعة» قالوا نحن إخوة، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. آح على الطفلة الصغيرة المسكينة كوثر...

ويا أيتها الأشجار والأحجار والأبوام: الموت حارة

«رجال البلاد

سكان الأضرحة ذوات القبب الخضراء اجتمعوا في قمة جبل شامخ

وتداركوا أمر الأرض والزمن الفاسد والجيل الماسخ

لم تقبل في الجمع شفاعة

اتفقوا واعطوا التسليم

وصلوا الفجر جماعة».

اقرأ

الأب: استلقى على قفاه، وأغمض عينيه قليلا ثم فتحهما.. كان ينظر إلى وجهي في ترقب دون أن يرمش... عينان صغيرتان برموش قصيرة مشتتة الشعيرات، تحيط بهما تجاعيد خشنة صلبة وعميقة، وحاجبان أشيبان كثيفان. البؤبؤان جامدان لا حياة فيهما. هل يراني؟ هل يقرأ شيئا بين حروف وجهي المطل عليه؟ ربما كان يترقب فقط، ثابت النظرة لا يرمش... شجاعة؟ ثقة بي؟ أو هو فقط إيحاء ماكر بالثقة؟ مجاملة بسيطة لابنه الساذج تستبطن في قرارتها يأسا عميقا؟ لا بأس.. قم بواجبك، وأنا أقوم بواجبي... أما النور... قربت أنبوب القطارة، وضغطت عليها، فانساب السائل قطرة في العين اليمنى، ثم إغماضة. سبابته القصيرة المفلطحة على العين المرتوية ليفتح عينه الأخرى، قطرة ثانية ثم إغماضة.

قطارة: صعد العمال فوق سطح العمارة، ربطوا الخشبتين بالحبال، وتدلوا على الواجهة المربعة، اثنان يمسحان الحائط بالخيش وأوراق الجرائد... وآخران يبيضان الزجاج بالجبص... لم يهتم أحد من المارة بالعمال... لم يهتم بهم

أحد من سكان العمارة.

في الطابق الثالث كان طفل في الثانية من عمره محبوسا في غرفة صغيرة وحده، جالسا على الأرض، ومشغولا بخيطين صغيرين يمتدان من زجاج النافذة المغلق، فمه مفتوح، وعيناه ثابتتان على الخيطين الأبيضين المترعين بالذرات الصغيرة البيضاء. يمد يده اليمنى ليقبض على الخيطين، يتلهى عنهما بالنظر إلى ما يلمع في الغرفة من أثاث، تجف على خديه الدموع وينسى. ثم يرى الخيطين الأبيضين المترعين مرة أخرى... طويلين دافئين مغريين، فيمد يده اليسرى... وينهنه في خفوت... ينغزهما بأنامله الصغيرة ويغرغر، ثم اسود الزجاج... ولم يعد يرى شيئا، فأخذ يصرخ.. يصرخ حتى فتحت الخادمة الباب.

رؤية: العين فقط؟ والرؤية بالحواس الأخرى؟ كله عيون.. حتى الأعشى... الأعمى الأصم... يرى... وليس المكان الحاضر هو الذي يستعصي عليه فهو يراه جيدا... الماضي البعيد هو الذي يظلم ويغيب... يستحضر في ذهنه أشتاتا من المكان الماضي دون أن يدرك نظامها، دون أن يعرف حتى هل هي أصوات أو صور؟ طعوم أو روائح أو أفكار؟... مادة هلامية كثيفة مع ذلك وباردة كالظل. من يكتب سيرة الظل؟... اللسان الأسمر الرطب اليَكْبُر شيئا فشيئا حتى يصير ليلا شاملا ليتصاغر بعد ذلك شيئا فشيئا حتى يتلاشى. في منتصف النهار يولد، وفي منتصف النهار يموت... ظل الشجر الحريري الهفهاف، وظل الحجر العميق والكثيف، الظل المنعكس على الجذور في أعماق الغابة... وظل السنبلة والعشبة والسحابة. ظل الصغير وظل البعيد الموحيان بالشفقة واليأس كالأبناء... ظل الضخم وظل القريب الموحيان بالبرد كالماضي... الظل أيضا ضوء... الظل هو الضوء... هو خلود الضوء. ولكنه

كثيف وشامل وهلامي... النداء البعيد من هناك يقول: كان صوتا، ورائحة «المشيطة» الرطبة التي تأتيه كل صيف فتسكن أنفه عدة أيام تقول كان صورة... وهذا الصمت المحيط يهمس كان مجرد فكرة... فالله أعلم أي ذلك كان وكيف كان.

إسراء: في الثانية صباحا.. خرجا معا: الأب من داره في المدشر إلى «الرويضة» في أعلى التل ليصلي الفجر أقرب ما يكون إلى السماء. والإبن من شقته في العمارة إلى محطة القطار ليكون في العاصمة في الموعد المحدد...

وحين رجعا كان كل منهما فرحا بما لديه... لم يشك العقل فيما سمع ولم يكذب الفؤاد ما رأى... اقرأ، وقل لي أي ذلك يكون إن شئت وكيف يكون.

الجريدة

حين دخل المقهى لم ينتبه إليه أحد، ومر صامتا بين المقاعد والطاولات، في يده اليسرى جريدته، ومن كتفيه المحدبين تسقط سترته المخططة الواسعة القديمة في إهمال مرتبك، وحتى حين جلس على الطاولة الوحيدة الخالية، وأشعل السيجارة الأولى لم يلتفت إليه أحد، فأغرق عينيه في الجريدة.

كانت عناوين الجريدة الغليظة تحكي عما وقع في شرق إفريقيا وشرق آسيا والشرق الأوسط. وارتفعت عيناه فجأة، حين سمع بوق سيارة الإطفاء، ونظر إلى خارج المقهى نظرة سريعة: السيارات تمر، الأضواء تلمع، المطر يسقط، وعاد إلى الجريدة دون أن يحضر الجرسون، حشر عينيه في صفحة داخلية، وبدأ في قراءة القصة المنشورة فيها، كانت بعنوان: «ما هو الرماد؟».

«كان الأستاذ قد طلب منا أن نكتب في موضوع: «ما هو الرماد؟». وقبل أن يجمع ما كتبناه، سمح لثلاثة منا، وكنت أحدهم، أن يقرأوا في القسم مواضيعهم، بدأ الأول بالقراءة، لم يزد على أن نقل القطعة التالية من «أوفيد»:

«وضعت ربات الأقدار كتلة من الخشب في المدفأة بدار ألثيا ابنة ثيستيوس

ساعة كانت ترقد في فراشها بعد أن وضعت مولودها، وبينما كن يغزلن خيوط القدر، قلن: «ليبقين هذا الطفل ما بقيت هذه الكتلة الخشبية». وما كدن ينهين كلماتهن ويغادرن الدار حتى أسرعت الأم واختطفت كتلة الخشب من النار وأطفأتها بالماء، وخبأتها في حنايا الدار. وعاش الطفل في أمان بفضل هذه الكتلة الخشبية وكبر... وحين علمت ألثيا بمصرع شقيقيها على يد ابنها أخرجت كتلة الخشب من مخبئها وأحضرت قطعا صغيرة أخرى من خشب الصنوبر، وكومتها جميعا ثم أشعلت فيها النار التي ستضع حدا لحياة ابنها، وحاولت أربع مرات أن تلقي بالكتلة الخشبية وسط النيران، فتخونها شجاعتها في كل مرة، إذ كان حبها لابنها يعادل حبها لأخويها. ومع ذلك فقد أخذت عاطفة الأخوة تطغى على عاطفة الأمومة فيها، وحينما شاهدت الموقد المشؤوم يتوهج بالنيران صاحت «ألا فلتحرق هذه المحرقة فلذة كبدي»، وألقت بالكتلة الخشبية القاتلة وسط النيران بيد مرتعشة بينما أدارت وجهها بعيدا وهي تقول: «لا مناص من أن يكفر الموت عن الموت والجرم عن الجرم، وأن تتبع الجنازة الجنازة حتى تهلك أسرتنا الملعونة تحت وطأة المصائب المتتالية». ولم يكن «ملياجر» يعلم شيئا مما يدور، بل كان غائبا، حين أحس نيرانا تشتعل في أحشائه... وأخذ ينادي والده الشيخ بصوت مختنق بالأنين، ونادى أشقاءه وشقيقاته الحانيات وزوجته، بل وربما أمه أيضا، وكانت آلامه تتزايد ما استعر أوار النيران. وحين أخذت ألسنة اللهب تضعف تباعا وتنطفئ في النهاية، أخذت أنفاس البطل تضيع في الهواء، بينما كان رماد أبيض يغطي جمرات الفحم».

وحضر الجرسون فطلب القهوة، وأشعل سيجارة أخرى ونظر حوله فرأى الأسنان تلمع، وسمع الضحك، وشم الدخان، وعاد إلى الجريدة: «وحين

انتهى شكره الأستاذ، وبدأ الثاني في القراءة. لم يزد على أن جمع بضع آيات من القرآن، وعلق عليها، كان الموضوع يقول: «الرماد آخرة الماء، كل ذرة من الرماد قطرة ماء عجوز تسبح بحمد الله وتقرأ أمامه كتاب حياتها وكتاب الحياة. قد لا نفقه ما تقول، ولكننا نستطيع أن نتعلم، من اللون والشكل والصيرورة، أن للوجود الإنساني لونا أشهب يسودُّ في الضوء ويبيضُّ في الظلام، وأن لا شيء ميت، لا شيء جامد، لا شيء متخلف، لا شيء أدنى، كل شيء له في الملكوت دور ومدار، قال تعالى: «الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون»، صدق الله العظيم.

فسبحان الذي لو شاء علمنا كيف نتفكر في خلق السموات والأرض وفي أنفسنا فنسمع ونبصر ونخشع، ونرتفع فوق الادعاءات الصغيرة للسحر البشري الحديث الذي يسميه أصحابه «علما»، ويتخذونه وسيلة للسيطرة والاستعباد وقتل الروح.

«وشهد شاهد من أهلها» فحين خرج أحدهم، ويدعى «ديراك» بنظرية يوحد فيها نظريات «العلم» الحديث، علق عليها زميل له في مقال بعنوان: «كيف تصطاد الفيلة» فاقترح على الصيادين في هذا المقال أن يقيموا، قرب مورد ماء ترتاده الفيلة، رقعة كبيرة تلخص فيها نظرية ديراك، حتى إذا قدم الفيل، الذي يعتبر من الحيوانات الحكيمة، لشرب الماء، وقرأ النص المثبت على الرقعة، بقي مسحورا بما قرأ عدة دقائق، وهذا يتيح للصياد أن يخرج من مخبئه، ويسارع إلى ربط أطراف الفيل بحبال قوية، ثم يشحنه إلى حديقة الحيوان.

وهكذا اصطادونا نحن.. ولكن الفيلة لا تنسى، والرماد هو الحيوان لو كانوا يعلمون».

جاءت القهوة فوضع السكر، وحرك بالملعقة، ثم طرحها بهدوء، ورشف الرشفة الأولى. وسرح بضع ثوان. ثم عاد إلى الجريدة:

«لا أدري لم أعجب الأستاذ بالموضوع وأثنى عليه. أجلت البحث في ذلك، وركزت ذهني في موضوعي، وبدأت القراءة:

«الرماد مفتش، أو كان مفتشا، ولا يعرف حتى الآن ماذا كان يفتش، ضرائب؟ جمارك؟ طرق؟ تعليم؟ صحة؟ ولكنه كان مفتشا، وكان يرى أن في الإمكان أبدع مما كان، وأن الأبدع دائما في بطن المفتش، وأن المفتشين هم الذين يرثون الأرض في الأخير، قد يوحون للأغبياء بالبرودة وفي جوفهم الجمر، أو يوحون للأذكياء بالجمر المختفي وليس في جوفهم شيء.

سلاحه الأساسي في وظيفته كان هو الابتسامة: ابتسامة ساخرة مستمرة، لا تدري، وأنت تراها ثابتة على فمه كدبوس ذهبي يزين ربطة عنقه، هل هو يسخر منك؟ ومن كلماتك؟ أو من الموقف الأنطولوجي كله لـ «الإنسان مفتشا». أو أنه ببساطة غير واع بابتسامته، لأنه، في غمرة انشغاله بالتفتيش بين كلماتك، نسي أن «يشد سلسلة» فمه، ولم يكن يتكلم، كان يسمع فقط، أو يوهم بأنه يسمع، بينما هو في الحقيقة يفتش، على أنه كان يردد أحيانا كلمة غريبة لابد أنه التقطها صدفة من إحدى محاضرات كلية الطب. كان يثبت نظارته، ويتفرس في مخاطبه، ثم يقول بوقار: «لا يمكن تشخيص المرض قبل تشريح الجثة»، فترتعد فرائص المرضى، ويقدمون أنفسهم ضحايا لأرشيف المفتش.

ذات مرة دخل مؤسسة كبرى، بكامل أناقته ودقته وحزمه وابتسامته، وغاب فيها أسبوعا كاملا وهو يفتش، وحين خرج أخيرا بدا متهدل الثياب منفوش الشعر «مجذوبا» يسير في الشوارع وهو يصيح في الناس «رم... رم...

رم...» ما الذي وجده وهو يفتش المؤسسة؟ رمانا؟.. رملا؟.. لم يسمع منه غير «رم... رم... رم...» ولذلك سماه الناس الرماد».

وأنا أنهي موضوعي، كان الأستاذ قد تغير، جحظت عيناه، وأزبدت شفتاه، هل ركبه الوسواس؟ دون أن يجمع أوراقنا، ولا حتى أوراقه خرج من القسم يجري وهو يردد «رم... رم... رم... إلخ...».

طرح الجريدة جانبا، وانحنى على الطاولة محدب الكتفين فضفاض السترة، وضم يديه إلى بعضهما وارتجف، أهبت به أن لا يضعف، فالناس من حوله، وقد يرون. هز كتفيه لا مباليا... واسترخى على مقعده نافخا من فمه الدخان. أهبت به أن يتجلد، فالناس من حوله وقد يشمتون. هز كتفيه لا مباليا ثم زم شفتيه واستقام على المقعد... وعاد معي إلى الجريدة.

آخر أيام سقراط

النصف الأعلى لجسم رجل من الخلف، الكتفان ضيقتان، تبدو عظمتاهما بارزتين من السترة الأنيقة. الرجل يتقدم إلى الأمام في خطوات عجلة، فيبدو جسمه كله: قصير، نحيف، ينعكس ضوء الشمس على حقيبته «السامسونيت»، وعلى نظارتيه كلما «برفل» وجهه، وهو يقطع الطريق، حذر السيارات. حركة الشارع صامتة، يدخل الرجل إحدى العمارات، يدخلها في انعطافة سريعة، فجأة كأنما يختلس غفلة مراقب.

يغيب الشارع ويملأ المنظر النصف الأعلى لجسم الرجل من جديد: الكتفان الضيقتان والعظمتان البارزتان، وهو واقف أمام باب شقة يفتحه.

يتراجع الباب إلى الداخل المظلم. تضغط أصبع الرجل الزر، الضوء، يغلق الرجل الباب، ويغيب.

غرفة واسعة تملأ المنظر البانورامي الصامت، ثم تتركز الكاميرا في الجانب الأيمن على رفوف من الخشب الأسود اللامع تحتوي على أشياء مختلفة ومتفرقة:

كتب، أوراق، أقمشة ملونة، مناديل، كؤوس، جرائد، صور بدون أطر، مسامير، حفنة تراب أحمر، الكاميرا تنتقل في الغرفة تدريجيا، في الوسط منضدة كبيرة وراءها مقعد. المنضدة لا زجاج فوقها، لا قماش، لا ورق، هي والمقعد خشب فقط، خشب أسود، خشب حاف، يلطم العين بوقاحة، ووراء المنضدة، على الحائط، صورة كبيرة لامرأة: ثوب أسود سابغ، وجه ممتلئ، مبتسم، ويدان متعانقتان، كأنما تقلد الموناليزا، ولكن عينيها السوداوين أوسع، ونظرتها أكثر حيوية، وأكثر مباشرة. وابتسامتها، رغم أن الأسنان لا تظهر، أكثر سعة ووضوحا. ويداها أخشن، وأكثر امتلاء، وسمراوان، ولو أنهما تستعينان بالثوب الأسود فتميلان إلى البياض، ثم إن الصورة فوتوغرافية.

الحائط في الجانب الأيسر أبيض خال إلا من ستارة سوداء تتوسطه كأنما تغطي نافذة معلقة، ومن مشجب خشبي أسود.

تعود الكاميرا إلى الوسط، فيبدو النصف الأعلى لجسم الرجل من جديد: (الكتفان والعظمتان) وهو واقف أمام المنضدة الخشبية يفتح حقيبته، يخرج منها أدوات مختلفة: سكاكين، مقصات، مبارد، مسطرات. يصف الأدوات على المنضدة كل نوع على حدة، يغلق الحقيبة ويضعها على الأرض.

يخلع الرجل سترته، ويذهب إلى الحائط الأيسر فيعلقها على المشجب، يخلع ثيابه قطعة قطعة ويعلقها، ويبقى عاريا إلا من سروال قصير من النايلون الأسود، يذهب إلى الرفوف في الجانب الأيمن، ويبدأ في حمل محتوياتها إلى المنضدة: الكتب، الأقمشة، الكؤوس... إلخ، يضعها مصفوفة في مقابل الأدوات، يدور حول المنضدة، يجلس على الكرسي، وقبل أن يستقر في جلسته ينظر أمامه مباشرة تنتقل الكاميرا، مراوحة، ولعدة ثوان، بين عينيه «المنظرتين» وعيني المرأة في الصورة فوقه، كلاهما ينظر إلى الكاميرا، ولكن

نظرتها حيوية مبتسمة أشبه بالساحرة، ونظرته خائفة مترقبة أشبه بالمعتذرة.

وهو يستقر في جلسته تنطلق الموسيقى.

(مركبة من توشيات أندلسية مختلفة، خافتة خفية في البداية كأنها استمرار طبيعي وتلقائي للصمت المحيط، ثم ترتفع تدريجيا مع حركات الرجل، وحسب حيوية وعنف هذه الحركات).

يتناول الرجل كتابا، يفتحه، يتناول مقصا، يبدأ في تقطيع أوراق الكتاب بالمقص. حركته في البداية أنيقة وبطيئة ومعتنية، كحركة المشرط في يد جراح. وحين ينتهي من تقطيع ورقة، ينظر بعمق وتأمل إلى ما فعلت يداه، ويضع الورقة جانبا، ثم يعاود القص... بضعة أوراق، ثم يرمي الكتاب والقصاصات تحت المنضدة وحواليها، ويتناول كتابا آخر يفعل به نفس الشيء.

ولكن حركته تزداد سرعة وعنفا... ثم كتابا آخر.. حين ينتهي من الكتب يتناول الجرائد ثم الأوراق والرسائل... يقصها، يرصها، يرميها، الصور: ينظر إلى الصورة الأولى عدة ثوان فتخفت الموسيقى قليلا وتجمد الحركة، ثم يقطع الصورة بعنف وسرعة... وباقي الصور، ثم يرميها. يتناول الأقمشة والمناديل الرقيقة والخشنة والملونة، الكاميرا تنتقل بين يديه العصبيتين السريعتين، ولكن الحاذقتين، وبين وجهه الذي يملأ الصورة حينئذ، حتى ليبدو الزغب الخفيف على التخوم الزرقاء للحلاقة، والعرق المنباع كالزيت على الجبين والعارضين والذقن، والحمرة المتصاعدة للوجه المتهيج، والفم المفتوح، وفتحتا الأنف المرتعشتان، يحطم الكؤوس بمبرد صلب، يسحقها، يشطبها يتناول المسامير، يقطعها بمقص خاص، ويرميها.

(في خلال ذلك ترتفع الموسيقى، وتختلط بأصوات القص والتقطيع والشطب، واللهاث المتصاعد، حتى يبرز النشاز الصارخ بين صوت

الموسيقى المنغم المكرور الشبعان الهادئ البطيء رغم ارتفاعه، وبين صوت حركة اليدين السريع العنيف الملهوج المضطرب، وصوت اللهاث الرغبوي الشبق).

يشطب المنضدة كليا، من بقايا التقطيع والقص والسحق، ومن الأدوات، فلا يبقى على المنضدة إلا حفنة التراب الأحمر، يقربها إليه، ينزع نظارته، ويضعها بعيدا على طرف المنضدة، ثم يستقر في بطء على المقعد مع تراجع الأصوات.

(تصمت الأدوات، يخف اللهاث حتى يختفي، تخفت الموسيقى إلى أن تغيب).

يتناول الرجل قبضة من حفنة التراب الأحمر بيده اليمنى، يضغط عليها قليلا، يفتتها ببطء، ويدعها خلال ذلك تتساقط على المنضدة من بين فروج أصابعه في حرص شحيح. تنتقل الكاميرا بين التراب الأحمر المتساقط في صمت، وبين عيني الرجل العاريتين، الضيقتين، الحالمتين، المتأملتين، الناظرتين، رغم مقابلتهما للكاميرا، إلى الداخل الهادئ، كأنما إلى شمس غاربة في أفق بعيد.

(تصمت الموسيقى تماما)

تنطلق من عيني الرجل خطوط ملونة دقيقة تتبعها الكاميرا إلى فضاء خال إلا من هذه الخطوط: حمراء، خضراء، زرقاء، صفراء، بين بين، ثم تبدأ هذه الخطوط الملونة تتحرك في صمت، بطيئة أولا ثم متسارعة، تتقاطع، تشكل مربعات ومستطيلات ومعينات ثم تنقضها وتشكل غيرها، خطوط ملونة ولكنها دقيقة... دقيقة ولكنها صلبة كأسلاك معدنية، تتقاطع، تتباين، تتناقض، ثم تستحيل تدريجيا إلى ألوان صرفة: ألوان فقط، لا خطوط، ولكنها

ألوان متعاقبة، يملأ الأحمر الكاميرا ثم يعقبه الأخضر في صمت، ثم الأزرق، القرنفلي، الوردي، الأحمر... إلخ..

(يستعان بلقطات من فيلم «أوديسا الفضاء»: أثناء اقتراب المركبة من المريخ)

يسمع فجأة بوق سيارة، فتختفي الألوان، وتظهر عينا الرجل القصيرتا النظر مدهوشتين ثم قلقتين ثم فزعتين.

(أثناء ذلك تتعالى الكلاكسونات مختلطة بأجراس الأبواب والتليفونات، وسيرينات المطافئ والشرطة والإسعاف، ودمدمات جمهور غاضب مختلطة بهتافات وأناشيد، ثم صوت «طالون» امرأة: خافت أولا ثم متصاعد بقوة وحزم وإصرار حتى يغطي الأصوات الأخرى كلها، وعينا الرجل معه تنفتحان متجمعتين وتنغلقان فزعتين كأنما ينغرس في كل عين منهما، ومع كل دقة، «طالون»).

يقف الرجل فجأة، يهرع إلى الباب (الكاميرا تتبعه من الخلف) ينحني ويَتَسَمَّع، ودقات «الطالون» تتعالى.

تقف الدقات، (صوت مفاتيح) يستقيم الرجل ويلتصق بالحائط وراء الباب، الباب الذي يملأ الكاميرا من الداخل يفتح، وتبدو المرأة المعلقة صورتها في الغرفة: قميص أبيض قصير الكمين، سروال «جينز» أزرق، في إحدى يديها سطل ممتلئ ومكنسة، وفي الأخرى حقيبة يد نسائية، تغلق الباب، ثم تنظر إلى الغرفة أمامها في تأفف لا تنتبه للرجل، لا تهتم بأن تنتبه، تضع السطل والمكنسة على الأرض، تفتح حقيبة يدها، تخرج منها عباءة سوداء، تلبسها فوق ثيابها وتشمر أكمامها، ترى نظارة الرجل فتضعها في حقيبتها وتضع الحقيبة على المقعد، تمسك بالمكنسة وتبدأ في تجميع القطع والقصاصات

المتناثرة على الأرض ثم ترفعها بالأوراق والجرائد إلى المنضدة، تخلطها بالتراب الأحمر، تستحيل الكومة الكبيرة ترابا كلها، جبلا صغيرا، من التراب، ترفع المرأة السطل الممتلئ إلى المنضدة، وفيما هي ترش الماء على التراب وتعجنه، تنطلق الموسيقى:

(أغاني الحاجة الحمداوية... في درجة واحدة حتى نهايتها دون تصاعد أو حدة أو خفوت)

تعجن المرأة التراب كليا، ثم تبدأ في التشكيل: قدما، ساقا، فخذا، رجلا أخرى، تضعهما على الأرض، وتتابع التشكيل، في سرعة وحذق ولا مبالاة. الكاميرا تتابعها من الخلف، والتمثال يعلو، في سرعة ودقة، كالعجلة في يد سائق محترف قديم. الظهر، الكتفان، الرأس، يبدو التمثال من الخلف جسما كبيرا كاملا.

تغسل المرأة يديها في السطل، تمسحهما في عباءتها السوداء، ثم تخلعها وتضعها في الحقيبة، تخرج من الحقيبة مصباح يد صغيرا تضيئه، وتسلطه على التمثال، التمثال الطيني أمام الكاميرا يحيا تحت لمسات الضوء، تدريجيا، وتتأنسن بشرته: الكتفان ضيقتان، العظمتان بارزتان، تضع المرأة المصباح في حقيبتها، وتذهب إلى المشجب في الحائط الأيسر، تأتي بثياب الرجل الأول، تعطيها للرجل الثاني الجديد، فيلبسها، تناوله النظارة فيضعها على عينيه، ثم يستدير نحو الكاميرا فيبدو كالرجل الأول تماما تنظر المرأة إليه، وتبتسم، تفتح حقيبتها وتخرج منها كوبا خشبيا أسود، تصب فيه قنينة صغيرة، ثم تضعه على المنضدة.

(الموسيقى تصمت)

المرأة تحمل حقيبتها، وتتأبط ذراع الرجل الثاني، ثم يتحركان نحو الباب دون

اهتمام بالرجل العاري الملتصق بالحائط. يخرجان.

(صوت إغلاق الباب بالمفتاح. الرجل الأول العاري يتحرك بساقين متخاذلتين ورأس منحن. ومعه يتحرك صوت «ناس الغيوان» من بعيد كأنه آت من بيت الجيران).

الرجل العاري يدور حول المنضدة، يدور حولها وشعره يتراجع، حين يرفع رأسه نحو الكاميرا نراه أصلع، وعيناه جاحظتان... يتوقف، يمد يدا ثابتة إلى الكوب الخشبي على المنضدة، يرفعه أمام عينيه الجاحظتين ينظر إليه ثم إلى الكاميرا.. يتردد قليلا كأنما يريد أن يقول شيئا، ثم يلوح بيده اليسرى كما لو كان يطرد ذبابة، ويرفع الكوب إلى فمه، يتجرعه دفعة واحدة ثم يسقط.

(يسكت صوت «ناس الغيوان» تتركز الكاميرا على وجه المرأة في الصورة. عيناها السوداوان الواسعتان الحيويتان تملآن الشاشة... إظلام.)

حفريات

الموضوع

«الحمد لله حق حمده، وما كل نعمة ظاهرة وباطنة إلا من عنده، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد نبيه وعبده، وعلى آله وصحبه القائمين بأمور الدين من بعده.

وبعد فقد تزوج على اليمن والبركة والتوفيق والسعادة الشاب عبد الله بن محمود بن جابر، زوجته المصونة، والدرة المكنونة، غانية بنت محمد بن غرسة، بكرا عذراء بالغة في سنها حلا للنكاح شرعا، وعلى أكمل الوجوه التي في صحة العقد، على صداق مبارك طيبه الله تعالى وأحله بقوله: (وآتوا النساء صدقاتهم نحلة)، بين نقد عاجل وكالئ آجل فالنقد المعجل له خمسون مثقالا دراهم سكية يؤديها والد الزوج المذكور وهو محمود بن جابر، بيد والد الزوجة المذكورة وهو محمد بن غرسة والكالئ ثلاث جمل درامية يشخصها الزوج المذكور لزوجه المذكورة معه حيث أشير تقاضيا بحساب جملة آخر كل جيل يأتي من تاريخه، لا يريد به إلا الواجب.. أنكحه إياها والدها المذكور بإذنها

ورضاها وتفويضها ذلك إليه، وقبله الزوج المذكور قبولا تاما وارتضاه، وألزمه نفسه وأمضاه، والله يؤلف بين هذين الزوجين، ويحرس ألفتهما من الشتات والباس... عرفا قدره، شهد به عليهما وهو بأتمه، وفي وسط ربيع الثاني عام سبع وعشرين ومائتين وألف».

المحطة الأولى

1. غانية الأم، حين كانت تنظر إلى طفلها الصغير قبل أن يكمل الأسبوع الأول من عمره، حين كانت تنظر إليه نائما، إلى بشرته الغضة، شعره الأسود الرطب العاكس للضوء، شفتيه المنفرجتين، كفيه الصغيرتين المعقودتين، غانية، حينئذ، كانت تتهيج، ترتعش فتحتا أنفها، ويسيل لعابها، وتقترب بشفتيها من أرنبة أنفه الحلوة الصغيرة المفلطحة. فإذا أحس الطفل بالأنفاس الخطرة المحرقة على جلده الطري ففتح عينيه، «تسيفت» غانية وجها حانيا، ابتسمت وناغت وهزت، باست وربتت، فيذوب الطفل في الحب الغامر، ويستسلم لقضمة الأم الصغيرة المختلسة. غانية كانت تحمل ابنها الصغير، وتخرج به إلى الحقل، توجه حواسه الطفلة إلى ضوء الشمس وخضرة السنابل، إلى خرير الماء وسقسقة العصافير، إلى الحمرة المتفتحة للأفق الرحم، والحمرة المذكوكنة للأفق المصير، إلى التراب الخشن والمتناعم بالألفة... فيذوب الطفل في الفضاء المحيط، ويستسلم لقضمة الأم الصغيرة المختلسة. فإذا أظلم الليل، واستطالت وتشوهت ظلال الأشخاص والأشياء في ضوء القنديل على الجدران، ورفع الطفل صوته بالصراخ، «تسيفت» غانية صوتا رقيقا ناعما يغني ويحكي ويوقع الكلمات ويكررها، فيذوب الطفل في الموسيقى، ويستسلم لقضمة الأم الصغيرة المختلسة.

غانية، قبل أن يكمل الطفل أسبوعه الأول، كانت قد أكلته.

2. على حصانه الأبيض، بوجهه الصبوح، بسلهامه الأزرق المتطاير في الريح، على حصانه الأبيض، كان الفارس يسير، يخلي بلدا ويعمر بلدا، ويسير وحيدا لا يرافقه إلا ذئب وسلوقي، يسيران مقترنين في ركابه، وكلما صاح الناس متعجبين: سبحان الله، ذئب وسلوقي في قرن واحد؟ قال الفارس: أعجب من هذا، المرأة التي أكلت ولدها.

«– التي أكلت ولدها؟ لم نسمع بهذا من قبل. أكلت ولدها؟ سمعنا بذلك ولم نصدقه – التي أكلت ولدها؟ نعرفها، إنها في القرية التالية على طريقك».

والفارس يصل القرية (ضيف الله) يدخل البيت، ويحتفي به رب الدار. الفارس الشريف يقرأ القرآن ويدعو لأهل البيت بالبركة، ولكنه يرفض أن يتناول العشاء إلا بحضور أهل الدار جميعهم، جميعهم حتى العبيد... النساء العجائز يصببن الماء على جلد «غانية» المخشوشن اليابس، ويلبسنها لباس الحرائر، لتأكل مع الشريف العجيب، ضيف الله وحامل القرآن، غانية العبدة العجوز البكماء تمد يدها إلى صحن الطعام لتأكل مع الشريف، والشريف يمسك بيدها المغمومسة الأصابع في الكسكس الساخن، ويرفع أمام عينيها مرآة: . ماذا ترين في المرآة؟ البكماء تنظر ولا ترى، البكماء تسمع ولا تجيب، ولكن في يد الشريف سحرا يجعل الجلد المخشوشن اليابس يشعر شيئا فشيئا بسخونة الطعام، ويجعل العينين الجافتين تغرورقان، والصرخة اليابسة تخضر في الحلق، والألم الحبيب، الغائب والبعيد يعود، وآه... ماذا ترى غانية في المرآة؟ آه... قدما... قدما؟ نعم... قدما صغيرة طرية مقطوعة الأصبع يسيل منها الدم حتى يغطي المرآة، حتى يغطي العينين، حتى يغطي الحلق... آه:

«إلى غرفة المرأة النفساء، دخلت النساء. إلى غرفة غانية النفساء، دخلت النساء العجائز القبيحات المتشحات بالسواد، مددن أيديهن المتشققة العجفاء كمخالب النسور إلى فراش النفساء، وانتزعن منه الطفل قبل العقيقة... الطفل الصغير، ثمرة الألم والرغبة، رزق الأم وميمونها، الطفل الصغير، رفعنه ـ النساء العجائز ـ من الفراش، وبسكين البصل قطعن الأصبع الصغيرة من قدمه اليمنى الطرية، والنساء العجائز، لطخن بالدم فم الأم النفساء، وغطين بالندب والإعوال صراخ الطفل وأمه، النساء العجائز القبيحات المتشحات بالسواد رمين بالطفل في المزابل، والأم رمينها في المطبخ عبدة، وفي الحكايات رمينها وحشا يأكل الأطفال، وعلى فم الأم اليابس المتشقق يبس الدم الكذب، وعلى فم الأم الدم الصحيح يبس، والكلام يبس، والحليب يبس، والقبلة العطشى يبست، وجلد الأمة العبدة، الأم الغولة يا ولدي، جلد الأم نشف ويبس، غانية، قربة الماء يا سيدي الشريف... يبست».

ويكشف الشريف، ضيف الله، وحامل القرآن، عن رجله اليمنى... آه... أصبعها الصغيرة المقطوعة... آه... وتنكب غانية على القدم الحبيبة تقبلها... والنساء العجائز عضضن أيديهن وقلن: «الآن حصحص الحق، نحن فعلنا».

3. حين وصل الشاب، حامل القرآن، إلى القرية، لم يجد من غانية غير القبر والحكايات... قيدت المرأة النفساء بالسلاسل، ضربت بالسياط، وعذبت بالجوع وبالخوف وبالثكل... وحين لفظت أنفاسها طمرت بالتراب الغفور في طرف «المقام».

فوق القبر، وجد الشاب شجرة بلوط هرمة، جلس في ظلها البارد الكثيف، تلمس جذعها الخشن المعقد وأوراقها القصيرة الشائكة، وحين ذاق ثمارها الصغيرة المطربشة وجد لها طعم حليب الغيل، بارك التذكرات المربوطة

بفروعها: الخرق الملونة، والخيوط المنفوشة، وخصلات الشعر، غمس قلبه في صمت العصر المطبق على «المقام»، وتيمم بالتراب اللين الذي طحنته أقدام النمل... وجلس على القبر فقرأ:

من كتاب الاحتضار:

«قال أبوعثمان الناجم: دخلت على ابن الرومي في علته التي مات فيها، وعند رأسه جام فيه ماء مثلوج وخنجر مجرد، لو ضرب به صدر خرج من ظهر، فقلت: ما هذا؟ قال: الماء أبل به حلقي، فقلما يموت إنسان إلا وهو عطشان، والخنجر إن زاد علي الألم نحرت به نفسي».

«وذكر المبرد قال: سمعت الجاحظ يقول:

أنا من جانبي الأيسر مفلوج، فلو قرض بالمقاريض ما علمت، ومن جانبي الأيمن منقرس، فلو مر به الذباب لألمت»، «وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): يؤتى بالموت يوم القيامة كهيئة كبش أملح، فينادي به مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رأوه. ثم ينادي مناد: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، وكلهم قد رأوه. فيذبح بين الجنة والنار».

وقرأ من كتاب المرآة:

«تؤدي المرآة الزجاجية العادية وظيفتها لوجود طبقة مفضضة رقيقة على ظهرها، تعكس كل الضوء الساقط عليها، وهذه الطبقة قد تصنع رقيقة إلى الحد الذي يجعل المرآة تعكس جزءا فحسب من الضوء الساقط عليها، ولتبسيط الأمور نفترض أنه النصف، في حين يخترق باقي الضوء المرآة إلى الناحية الأخرى منها مستمرا في طريقه كما لو كانت المرآة غير موجودة، فإذا

سقطت حزمة من الإشعاع على مثل هذه المرآة فعلينا أن نتخيل أن نصف كماتها تنعكس، ونصفها يمر خلالها. ولكن افرض أن كَمَّة واحدة فقط تسقط على المرآة، والكمات لا تتجزأ، فلا يمكن أن نتصور الإشعاع كله سائرا في أحد الطريقين، وغاية ما يمكننا قوله هو أن هناك فرصة 50 % لأن تنعكس، وفرصة 50 % لأن تمر».

«رأيت كأن طفلا يحمل مرآة اقترب مني وهو يقول: انظر في هذه المرآة يا زرادشت، فما أن نظرت إلى المرآة حتى صرخت وخفق قلبي خفقانا شديدا، لأن ما انعكس لي في المرآة لم يكن وجهي، بل وجها آخر تقطبت أساريره بضحكة شيطان ساخر.

– ليس من سطح لم أنطرح عليه كالغبار المتهاوي، بعد ثورته، على المرايا وزجاج النوافذ. وكل شيء ألمسه يختلس مني ولا آخذ منه شيئا، فها أنذا ناحل، وأكاد أكون هباء.

هكذا تكلم الظل، فارتسم الأسى على وجه زرادشت، وقال:

– أنت هو ظلي».

وقرأ من **كتاب الولادة:**

«انقطع عني الحيض خلال الشهور الأولى من زواجي، وفي الشهر الثامن كان بطني منتفخا جدا، وكنت أعاني من إحساس غريب، كما لو أن مصدر الانتفاخ كان مجرد شحم، وذات يوم شعرت بآلام الوضع، وحصل لي نزيف دام أياما وأياما، كنت أحس، وأقول للمحيطين بي، بأن هناك ضفدعة تنط داخل بطني وتقضم قلبي، وكانوا يجيبونني: «إنه لا شيء. إنك لازلت صغيرة لكي تفهمي، عليك بالصبر، إن ما تحسينه طبيعي لدى كل امرأة». لم أكن مقتنعة، حملني زوجي لدى طبيبة غرزت حقنات في بطني مباشرة، بعدها

أحسست إحساسا غريبا، وبدأت أرتعد، كان الشيء الموجود في بطني قد مات، وبدأ يتساقط، لم يكن طفلا ولكنه تراكم لمجموعة من القطع الغريبة.

– قطع غريبة؟

– نعم، وذات أشكال غريبة، لم يكن طفلا، ولكنه عدة أطراف كان هناك سبعة أطراف في المجموع: أحدها يشبه سمكة، والآخر عنقود عنب، عنب أبيض، وكان هناك طرف على شكل خرشوف، وعندما تضغطين عليه يبرز منه رأس أبيض كأنه بيضة».

وحين انتهى من القراءة، تلمس على فروع الشجرة المؤثثة بالتذكرات، مكانا خاليا، فربط به عمامته، وعلق فيها جسده الربيعي تذكرة بين التذكرات.

المحطة الثانية

لم يكن الذي ولدته غانية ذكرا، بل كان أنثى، اسمها «جمعة». طفلة صغيرة بلهاء، تبتسم سارحة حين تكون وحدها، فإذا أحست بظل «الآخر» فزعت، تشوهت ملامح وجهها وتقلصت، واتسعت عيناها وابيضتا في رعب، «جمعة» الطفلة الصغيرة البلهاء.. كانت تكبر وتحلم.. تشطب الدار، تحلب الأبقار، تخبز وتطبخ، تجلب الحطب وتستقي الماء، تجمع الزرع في الحقول، دون كلمة ودون أجر، باسمة الخلوة، فزعة الحضور. وحين تخلو إلى نفسها في الليل تضع رأسها على ساعدها، وتغمض عينيها،

وتحلم.

كانت تحلم بأخ... أخ صغير جميل، تلعب معه وتلمسه: كالثور قوة، كالشمس حرارة، كالماء رقة، وحين يراها يبتسم، فتصبح الدنيا قوس قزح كبيرا، حزام عروس ملونا، وهي العروس، وهما وحدهما في العالم، لا أم ولا

أب ولا زوج، ولا رجال، ولا نساء، ولا صراخ، ولا عيون،.. «امسح أنفك أيها الأبله» ويتسم لها «اغسل وجهك، البس قميصك، أين كنت، اجلس هنا، خذ هذه الكأس من الشاي، اشرب الشاي دون صوت.. لماذا تبتسم؟ ويبتسم لها «أيها الأحمق» ولا عيون. لا عيون منقبة باحثة في وجهك عن معنى... عن المعنى الذي تفترضه وتتوقعه، وتفرضه، وتفرح. بغباء. حين تجده، تتوهم أنها تجده (وترتعب، وترتعد، وتلتفت وتلتف).

جمعة البلهاء كانت تحلم بأخ تحكي له ما حدث لها، تحكي له كل شيء، كل شيء. وحتى ما نسيته، ما تجهله، ما يغمض عليها، ما تحسه ولا تتبينه، يشرحه لها، يحكي لها هو ما حدث، ما فعلته أمها، ما فعله أبوها، ما يفعله الناس حين يكونون فرادى ويتخلون عنه وينكرونه وينسونه تماما حين يجتمعون. تحكي له ويحكي لها قصة المرآة الصغيرة الجميلة التي كانت تصقلها ببصاقها وكمها، لترى فيها نفسها وأخاها، المرآة التي انتزعها أبوها من صدرها قهرا وحطمها أمامها قطعا وشظايا مفتتة لا تعكس إلا العين الرائية والزمن القاهر والقبيح.

تحكي له... ولكنها كانت تكبر... تحلم وتكبر... باسمة فزعة ولا أخ، والبرقوق الحلو يكبر وينضج ولا أخ، حتى إذا فضحها الثوب الرث والسرحان، سقوها المحنة الكبرى: زوجوها بأب آخر أكبر سنا وأحد ملاحظة، فشربت المحنة بلهاء بكماء جامدة مغلقة الوجه دون إحساس أو أمل أو معرفة أو شهوة... كضربة الشمس، كيوم السخرة، كظلام الموت، «جمعة» البلهاء البكماء لم تعد حتى تحلم... أمست تخاف نفسها وأخاها وزجاج المرآة، أكثر مما تخاف زوجها وأباها والناس، وحتى حين أصبحت حبلى وسخر من جهلها الزوج والربائب والجيران، ظلت صامتة بلهاء مغلقة الوجه لا تستجيب

–إلا بأناة ولا مبالاة– لحركة الريح والشمس والزمن، كغابة. «جمعة» البلهاء النفساء ألجأها المخاض إلى شجرة بلوط هرمة... طرحت حزمة الحطب، وتشبثت بالجذع وهي تضغط بأسنانها على الثمار المرة صارخة: «آسيدي ربي الحبيب».

وامتزج العرق وسهام الشمس وذرات التراب وقبائل النمل وطرابيش البلوط و«آسيدي ربي الحبيب» والعيون المنقبة الغبية، وحين صرخ الطفل الوليد، استسلمت «جمعة» البلهاء، وقضت.

المحطة الثالثة

في المحطة الثالثة وجد الرجل ميتا في مقصورة القطار، دون أية وثيقة تعريف أو أثر دال، غير عقد زواج قديم من القرن 19، وغير ثلاث جمل من «بيكيت» مكتوبة بخط أسود غليظ على مرآة المقصورة، هي:

«كان يتطلع إلى الخارج الذي لم يشاركه به أحد أبدا».

«ويعود فيتطلع إلى الداخل الذي لم يشاركه به أحدا أبدا».

«ولهذا راوده، مرة، نصف أمل، بأن بعضا من الراحة قد يتحقق».

أغلق الباب خلفك

أغلق الباب خلفك، واخرج معي إلى الشارع. أغلق الباب أولا، دورتين بالمفتاح، ضع المفتاح في جيبك، وادفع الباب لتتأكد من مقاومته، ثم اخرج إلى الشارع. ضَعْ جسمك بين أجسام الناس، ضِعْ في الزحام. شم الروائح المختلطة، وانظر إلى الوجوه والأبنية. والآلات، واسمع. على الخصوص. تداخل الأصوات الزاعقة والخافتة، المستمرة والمتقطعة... اسمع هدير الكون المتحرك أبدا، الكون الذي يتحول أبدا... يتحول أبدا، ولا يدخل بيتا قط. وأنت جزء من هذا الكون، فلماذا تسكن؟ هل أغلقت الباب؟ تأكد من جديد، حسنا، دعها هناك في الداخل، حيواناتك القارضة تلك، لا تسمح لها حتى بإطلالة، اقفل النوافذ، أنزل الستائر، تسلح بكل ثقافة الحريم... دورتين بالمفتاح، ودعها هناك في الداخل تَصْفَرُّ وتبْيَضُّ، أما أنت فاخرج إلى الشارع، أعط وجهك للشمس وأذنك لهدير الكون «وقل مع القائل: لم أسألك عبئا هينا يا إلهي أعطني ظهرا قويا».

«أمس دخلت جُوَايْ. خلوت إلى نفسي وتَفَتَّتُّ. قفزتْ أشيائي الصغرى

تتناثرُ من حولي وتعود إليَّ كأطفال في بركة ماء: حبٌّ عُرُوبيٌّ يُغْضِبُ يشتاقُ ولا يتقدمْ. حرفٌ حلوٌ كالسُّكَّرة يذوبُ ويرسبُ لا يتكلمْ. شبرُ سماءٍ أزرقُ ذاتَ أصيلٍ صيفيٍّ ينبضُ كالبرق الخُلَّبِ لا يمطرُ لا يتلاشى ووجوهْ. ملامحُ أغدقتُ عليها زمني يا وَعْدِي حتى سَيَّجَهَا كزجاجٍ أبصرُهَا تتحركُ تبتسمُ ولا أسمع صوتا. ياه... ما أكثرها... أصغرها... أبعدها... أدناها... أقساها... ما... وتفتّتتْ».

جرد من نفسك شخصا، تخيله يسير أمامك هناك، ناد عليه، لن يهتم بك أحد، سيعتقد المارة أنك تنادي على صديق، سمه أولا، ضع له اسما جديدا، والآن.. ناد عليك، ارفع صوتك.. أعلى.. اصرخ.. اصرخ بقوة. جميل.. ها أنت ذا قد ولدت من جديد، جديدا تماما، لا ماضي لك، والمستقبل كله لك. تقدم إلى الأمام كوحش أسطوري هائل، ارفع الأحجار من شارع المقاومة وتابع السير، أزح الأحجار والأتربة عن صدر الزرقطوني.. واستحم في البحر.. انفض غدائرك.. وَبَرْبِرْ.. المس جسدك، فقد أصبح لك جسد الآن كهذه الشجرة، وافرح، فالكون يحب الفرحان. والآن تَعَارَفْ.

«وتسَابقْنَا نحو الرَّايَة، أسمعُ من حَوْلِي خَبْطَ الأقدام على الأرض ورجع الأنفاس صفير الريح وأبصر في كل الأشياء الآيةْ، الرَّكْبُ السمراءُ تخوضُ فضاءَ العصرِ مصممةً والعصرُ يلاقيها ويتابعُها مذهولاً وأنا أتقدمُ خَلْفَ أمَامَ مَعَ الرَّكْبِ السمراءِ وأُبْصِرُ في كل شيء آيَةْ. يا وَيْحِي ما أطولَ هذا المارَطُونْ! الشَّوْكُ الأحجارُ العقباتُ الجمهورُ البارِدُ. والعصرُ يراقبنا بالمنظَارْ. وفي يدِهِ ثِنيًا حَبْلِ المِضْمَارْ. ما الفائدة؟ فحين ندّت من وراء العوسج العَظَايَةْ. تَرَاجَعْنَا نحو الرَّآيْة».

افتح الباب أولا.. لا تقل شيئا.. حسنا.. دعني أنا هنا مع أشيائك الصغرى في الداخل، وعد وحدك إلى الشارع، لا تنس، أغلق الباب خلفك.

صياد النعام

نانا

العسل

ننادي زوجة الأب: (نَانَّا)، والجدة للأب أو الأم: (نَانَّا)، وزوجة العم (نَانَّا)، وكل امرأة كبيرة السن (نَانَّا). وأنا كنت أنادي زوجة أبي الأولى (نَانَّا).

ربما لأنني الأصغر في الأسرة، أو لأنني كنت أذكرها بابنها الذي مات صغيرا، أو لأنني أقرأ أمامها السور القصيرة لحزب «سبِّح» ربما لهذا كله، كنت أثيراً لديها أكثر من إخوتي الأكبر مني، سواء من أبنائها أو من أبناء أمي. وتعبيرها الحلو عن حبها لي كان هو العسل. كانت تحتفظ دائما بجرة عسل لا تنضب. وكلما دخلت بيتها أجلستني جنبها وباستني في جبيني، ثم تدخل «الساحوت» الخشبية في الجرة، وتحسِّيني. «الساحوت» الخشنة الحمراء كانت أجمل وأحلى ثدي في العالم، وأنا كنت ألعق العسل وأقرأ «سبح».

ولكن (نَانَّا) لم تكن جرة عسل فقط، كانت جرة حكايات أيضا، كنت أسمع من أعمامي الشيوخ حكاياتهم عن شبابهم ورجولتهم وصراعاتهم على الأرض مع الجيران القدامى، وبلائهم في حروب «بوحمارة» و«عبد الملك» و«عبد الكريم». كنت أنظر مبهورا إلى اللحية البيضاء وهي تهتز كشاشة، وأقرأ فوقها صور البطولة والشهامة والإباء، وأنا خلال ذلك أتسع وأكبر، والعالم يصغر ويتكور، حتى يصبح حبة حلوى في كفي الصغيرة المرتعشة، من الحماس لا من الخوف، من القوة النابتة لا من البرد.

وحين أخلو إلى (نَانَّا) كانت تعيد الحكايات نفسها، الأحداث نفسها، الحروب نفسها ولكن بإخراج أفظع وأقسى، يجعل من أبي وأعمامي الأبطال عصابة من القتلة والسفاحين المتوحشين، لا تهتز لهم شعرة أمام الطفل والمرأة والشيخ المسن. يقتلون ويغتصبون ويستولون، وشعارهم الدائم: «حفنة تراب ولا حفنة نمل».

لم تكن ترحم أحدا، أو تحترم أحدا، كلهم قلبهم «كافر» وعينهم «زركا» والعالم يتسع ويظلم ويتوحش، وأنا أصغر وأنكمش، وأندس في «قشابة» (نَانَّا) الباهتة، ولحمها الأسمر المجعد.

لم تكن الفظاعة في الأحداث أساسا، بل في طريقة حكيها: القتل والدم والخديعة والوحشية تسرد بنغمة رتيبة مستوية لا تعطي أية أهمية للمعنى وظلاله، كمن يقرأ قصيدة عمودية قديمة قراءة عروضية محضة تحافظ على البحر، وتلغي الدلالة.

كانت عين العالم الكبير تزرورق شيئا فشيئا، وضمنها عين (نَانَّا) نفسها.

فعولن مفاعيلن

ذات ليلة، وكما كانوا ينصحونني، خرجت إلى (مراح) الدار لأبول قبل أن أنام.

وأنا أبول في الظلام والصمت والسكون، وأشباح الحكايات تحيط بي: تدفعني إلى الإسراع في البول لأعود إلى الدفء والأمان، وتزيد من إدرار البول في الوقت نفسه، سمعت فجأة صوتا غريبا.. كان ينادي علي.. كان الصوت ينطق اسمي، ولكن بطريقة خاصة: تفصل بين حروفه وتمططها حتى يصير، خيطا، وتصغره في الصيغة حتى يصبح عين إبرة: (ا.. حـ.. مـ..ي... مـ... د). لم يناد الصوت غير مرة واحدة. ولكني ارتعدت فزعا، وصرخت.. وبدل أن أعود هاربا إلى الداخل، قفزت إلى الأمام.. إلى خارج الدار. لأن الصوت المنادي كان صوت (نَانَّا)، وسقطت.. ربما أغمي علي... ربما أصبت بصرع، ولكني ظللت محموما عدة أيام، من يومها تبدلت العلاقة بيني وبين (نَانَّا).

أصبحت أخافها أكثر مما أحبها، ولم تعد هي الأخرى تهتم بي، أصبحت العلاقة بيننا شكلية محضة، أصبحت عروضية، نلتقي . ومع آخرين غالبا . فتقول لي:

– فعولن مفاعيلن آحمد. وأجيبها:

– فعولن مفاعيلن آنَانَّآ. وينتهي الحوار.

منادمة التنين

أ. السيدة التي تحدثت عنها فيما سبق، ماتت منذ زمن بعيد وأنا صغير. ولم أعد أتذكر الآن عنها شيئا على الإطلاق. لقد كنت أتحدث . ربما . عن

علاقتي بالكتابة، ولذلك، أرجو أن يعيد القارئ. على ضوء هذه الملاحظة. قراءة النص السابق من جديد.

ب. قد يحتاج الأمر مع ذلك إلى قراءة ثالثة (هل الثالثة ثابتة؟) إذ أنني لا أدري في الحقيقة عمَّنْ أو عمَّاذا كنت أتحدث. أما الكتابة! فمن يستطيع الحديث عنها؟ من يستطيع أن يشرب الراح مع التنين في الصيف. كما يقول الجميل أبو نواس؟ من؟...

الفنان

الجمال علاقة، لذلك بدأ برسم الوجوه... ياه كم رسم من الوجوه: وجوه أصدقائه، وأفراد عائلته، ونجوم السينما والكرة والسياسة، بأشكال مختلفة: كاملة. مكسرة الحواف، بخطوط هيكلية. كاريكاتورية. وفي كل ذلك كان يحس بالمتعة: متعة اكتشاف العلاقة بين الأصل والصورة. الأصل عادي والصورة عادية ولكن المسافة بينهما مكان جميل.

الجمال كالقبلة. كان يقول لأصدقائه. لا يتم إلا بين وجودين يسعيان نحو بعضهما.

– الملاكمة تتم كذلك أيضا. كانوا يردون.

– والملاكمة جمال أيضا.

ولكنه افتقد الثقة في الوجوه بالتدريج وبدأ يهتم بالأشياء. لوحات. كروكيات. تخطيطات، لأشجار وآلات وأثاث وفاكهة وأدوات ومياه. الأشياء قبيحة منفرة ناتئة ناقصة معوجة، ولكنها مادة خام رائعة. يجلس في المقهى... يشرب قهوته، ويتأمل العمارة المقابلة، الإسفلت، السيارات، الإعلانات،

الكراسي الفارغة حوله، والفنجان، وبخار الفنجان، علبة السجائر واللون الشوكولاطي للولاعة... أمكنة . أمكنة . أمكنة، كلها ناقصة مشوهة، وكلها قابلة للتحول إلى أمكنة رائعة لو وجدت الفكرة، لأن الجمال في النهاية فكرة. والمشكل هو أن يرى العين وهي ترى الأشياء: عينه الداخلية العميقة وهي تخلق الأشياء، لأن الأشياء فكرة، العالم فكرة، والفكرة فكرة أيضا. ولكن أصدقاءه لم يكونوا يسمحون لعينه المراهقة بممراسة عادتها السرية، سرعان ما يفدون، يجلسون على الكراسي ويحتلون أمكنته ويبدأون في عرض وجوههم أمامه. يجب إخلاء الوجوه إذا أردت إكمال العالم. إخلاء الوجوه أولا ثم إعادة الترتيب.

لخلق مكان، مكانك أنت، مكانك الجميل يجب إعادة الترتيب. في الحقيقة، رغم اختلاف الأشياء فإن النقص الذي تشكو منه واحد، هناك حجرة ما في هذا الكون، حجرة واحدة، ليست في محلها... لو غيرت لاستقام، أو لانهار... كحجرة سينمار.

ولم تكن تلك الحجرة الصغيرة الوحيدة المقدسة غير الزمن: فحين غير إيقاع حياته صدفة ذات صباح، فأفاق مبكرا، تغير كل شيء... خرج إلى الشوارع وتجول في الحديقة، وشم رائحة الصباح الطازجة، وسمع حوافر الخيل تقرع الإسفلت وهي تجر عربات الخضر إلى السوق المركزي، وسمع «صباح خير» مبتسمة بيضاء من صبي الفران، فأصبح كل شيء جميلا: الأبنية والسيارات والناس وفسحة السماء بين العمارات والطائرة المارة في الجو... كل شيء جميل. أية مهنة حمقاء: مهنة الرسم والتصوير... بدل أن نتحرك ونستمتع بأشكال العالم الحلوة، نغلق علينا الأبواب وننهمك في خلق أشكال جديدة... يا للسخافة، جمع لوحاته وأغلق عليها باب إحدى الغرف

وانصرف إلى العالم يمضغه بعينيه وحينئذ ظهرت هي.

زارته مع عائلتها لاختيار إحدى لوحاته، أدخلهم الغرفة المكتظة وفيما كانوا يتأملون رسومه... كان يتأملها... أحست بنظرته فالتفتت إليه وابتسمت، ابتسم، وقال فجأة مندفعا:

– أنت لوحة جميلة... أنت أجمل لوحة في العالم.

احمر وجهها، وتضاحكت محرجة وهي تقول:

– لا... أنا امرأة.

أية موسيقى؟ أية قطعة موسيقية خالدة «لا» هي القرار الموسيقي، والكلمتان الأخريان تنويع. لأن «لا» هي «أنا» وهي «امرأة» شكل زخرفي عربي من ثلاث وحدات. الأنوثة والأنوية والتمرد وجوه ثلاثة لنفس الشيء: الجمال... ذلك أن الجمال امرأة... الجمال أنثى. الجمال يفتح فمه الجميل ويقول «لا» ويقول «أنا» ويقول «امرأة». الجمال يرسم نفسه، فماذا يفعل هو؟

لم تشتر عائلتها أية لوحة. أجلوا الاختيار إلى وقت آخر، وبدلا من ذلك باعوه هم لوحتهم، فقد ظل يلاحقها بحبه وهي تضحك ساخرة حتى انتهى الأمر بالزواج... وانقلبت حياته رأسا على عقب. فأولا يجب أن تعود إلى الرسم... أنت لست ملك نفسك. أنت فنان. وإذن فأنت ملك الناس. فلماذا تحرمهم من فنك. وأنت فنان ممتاز لو نظمت نفسك... لو اعتنيت بها أكثر. فعاد إلى الرسم وأصبح أنيقا... مزخرفا معطرا مغسولا... لوحة كلاسيكية تمشي على قدمين. حاول إفهامها أن كلا الأمرين تطرف: تكلف الأناقة مثل تكلف الشعككة والإهمال. وأن الأحسن هو أن يكون الإنسان عاديا وطبيعيا.

– لا... وتقول إنك فنان؟ الطبيعية والعادية أيضا ليست لونا... لأنها مجرد تدرج بين ألوان... هي أيضا تكلف... ومادام كل شيء تكلفا فلنتكلف الأناقة.

كان يرسم على ضوء... الفيوز... ذات ليلة حين جاءته تقول:

– هل تعرف ما هو الفنان في اللغة العربية؟

– الفنان هو الفنان.

– لا، لقد وجدت في القاموس أن العرب كانوا يطلقون كلمة «فنان» على الحمار الوحشي المخطط.

– ياه أية فكرة رائعة؟

– طبعا... هل تحسبني بلا أفكار؟

– أقصد فكرة العرب.

فمطت شفتيها ومضت. توقف عن الرسم وطور الفكرة في ذهنه. وبعد أسبوع كان يلقي في الجمعية محاضرة عن «نظرية العرب في الفن» ركز على مفهوم التنوع أساسا، وربطه بمشاهد الصحراء، وبالأصنام، وبالاستطراد في متن الكتب العربية القديمة، وببناء القصيدة، وحتى بالقبيلة... وعلى العموم، فقد قال كلاما كثيرا و«متنوعا». ونال بالتالي تصفيقا طويلا... وحين شكرهم على التصفيق أضاف: إن الفكرة في الحقيقة فكرة زوجته، وأشار إلى حيث تجلس في الصف الأمامي فاستأنفوا التصفيق... ووقفت هي لتشكرهم... مترعة بالزهو كانت، حتى لقد راوده أمل في أن تغزوها الدودة: دودة البحث عن إعجاب الآخرين، فتصبح فنانة، وتخفف من توجيهها الحازم له، ولكنها قلبت الفكرة مالا، وفرضت عليه أسلوب الخطوط... خطوط، خطوط،

خطوط، أفقية، عمودية، مائلة، متقاطعة، وملونة كلها بألوان «متنوعة» غابة من الخطوط كبلته، فأراد أن يتنفس، وصرخ في وجهها:

– هذا ليس تنوعا... هذا مجرد سلاطة فرنسية.

– ما هو التنوع إذن؟

وحينئذ حدثها عن جمال الحذف والاختزال... الكون أغلق واستدار منذ زمن طويل، ولن نضيف إليه شيئا... حجرة كبيرة مصمتة. وما يمكن عمله هو أن ننحته... الرسم في الحقيقة نحت، فلنتصور لوحة رائعة تنحت الكون، لوحة تجمع بين آدم وسيزان ونيوتن. ليس كما كانوا: ولا كما فكروا، ولا كما فعلوا، ولكن كأحجار متنوعة قابلة للتشكل بالإزميل. ياه... كم ستكون رائعة.

حدثها وهو ممسك في توتر بيدها الخاملة، ينظر في عينيها ويصب فيهما انفعاله... حتى أنه اضطر لأن يقول لها: يا تفاحتي.

– هل كان سيزان يحب التفاح مثلك ومثل آدم؟

فأطلق يدها وصرخ: كلا... كان يمقته... ولم يكره سيزان شيئا كما كره التفاح أما نيوتن فلم يكن يحس به إطلاقا، كان يراه مجرد كتلة. ولكن التنوع يكمن هنا: خلق شكل يجمع بين الحب والكره والحركة بينهما.

– وكم تستغرق لوحة كهذه من الزمن؟

– أستطيع رسم الكتلة في ليلة واحدة، ولكن العمل في هذه الكتلة بالحذف والاختزال يتطلب سنة على الأقل.

– لا... هذا كثير.

ولكنها وافقت أخيرا... واقترحت عليه أن يرتاح من اللوحة بين حين وآخر

– بالموت.

– ماذا؟

مد الفنان يده بأصابعها القصيرة الغليظة، ولكن الناعمة الممسوحة الملساء (أين ذهبت خشونتها المبقعة القديمة)؟ وربت وجنة الشاب... وجنة حية جميلة تطل على الحياة... خجولاً مرتعشة كالخلية الأولى أصل الحياة... ربتها وابتسم.. وقال في خفوت:

– الجمال يا بني... هو الموت.

وتهاوى من كرسيه على الأرض... أسرع الشاب إليه... جس نبضه... مات الفنان... وقف الشاب.

صدر حديثا

الرواية التي صدرت مؤخرا تحت عنوان: «الفلاح والتاجر والكاتب» أثارت مجموعة من الانتقادات وردود الفعل المختلفة. والعرض التالي يحاول تقديم صورة عن هذه الرواية للقارئ مع مناقشة لأهم الانتقادات المثارة حولها.

I

تتألف الرواية من ثلاثة فصول وخاتمة

الفصل الأول: بعنوان «**الفلاح**» ويركز على مأساة الفلاح «رمضان»، لقد كان هاجسه الأساسي في بداية الفصل هو الجوع، ولأنه عرف حالات سابقة للمجاعة الشاملة التي كان الناس خلالها يأكلون القطط والكلاب، ويأكلون بعضهم أحيانا، ولأنه كان يفلت من قضمة تلك السنين بمشقة، وبالكاد، فإنه يتوقع عودتها من سنة لأخرى، ويتخذ احتياطاته: يطمر الزرع، يُقَتِّر في الطعام، يجفف العلاقات المغرية بالسخاء... إلخ.

وتجسد الرواية هوس رمضان بالخبز، وخوفه المرضي من الجوع في كل شيء، حتى في معجمه الخاص: فحين يقدم للبغل كمشة تبن، يقول له في حنق: «امضغ تمضغك الأيام»، وحين يسمع حديثا عن تقسيم العالم بين روسيا وأمريكا يقول: «هي نحن في كسرة أمريكا».

ثم يصبح هاجسه الأكبر في أواخر الفصل هو الشرف حين تكبر ابنته ويبرز صدرها ويفشل في أن يجد لها زوجا، وكما كان يتوقع المجاعة من سنة لأخرى فهو يتوقع الآن الفضيحة من ليلة لأخرى، حتى إذا وقعت (يحصل عشيقها على الكونطرا ويهرب إلى أوربا، فتفر بحملها إلى المدينة) أصابه الشلل. ويتركه المؤلف مشلولا لينتقل إلى الفصل الثاني.

الفصل الثاني: بعنوان «**التاجر**» ويدور حول مأساة التاجر «شعبان» المهووس في بداية الفصل بالسكن، وبإعلانات التلفزيون عن السلحفاة التي لها بيتها. وكالسلحفاة يسير . ببطء ولكن بإصرار . نحو الفيلا الخالدة. ويكاد يقتله الفرح حين يرحل إليها أخيرا. وتنتهي همومه تقريبا إذ لا يهتم بعد ذلك إلا بابنه طالب الطب الذي يهيئه لقيادة قارب العائلة من بعده، ولكن الإبن العزيز يسقط في حضن المخدرات، ويفقد تدريجيا جماله وشبابه وحيويته، واهتمامه القديم بعائلته وأحلامها، ويحلل المؤلف بدقة انعكاس ذلك على «شعبان» وصحته إلى أن يصاب بقرحة المعدة، وحين يجري عملية جراحية يصاب بالسرطان... ويموت.

الفصل الثالث: بعنوان «**الكاتب**»، ويحكي مأساة الكاتب «رجب» المهموم بالكتابة، والذي يحلم في البداية بكتابة رواية كبرى في حجم «الإخوة كرامازوف». لا يفكر في أية تفاصيل، يفكر في الحجم فقط، ثم يسأم فكرة الحجم ويسخر منها ليفكر في التركيب والتعقيد والتشابك وتكثيف الزمن

والوعي، فتصبح روايته الحلم في شكل «أوليس» ثم تزداد صغرا وعمقا، وتشع في خياله كالماسة من جميع الزوايا لتصبح قصيدة شعر، على أنه في الأخير يحلم بالجملة الخالدة، «الجملة الكمبيوتر» على حد تعبيره: جملة واحدة يجمع فيها الكون كله، ويجرب جملا من نوع: «القلب يمضغ العلاقة، العلاقة تمضغ القلب».

أو: «تسكن الأحلام كوخا من أفيون»

أو: «بحرك العذب أنا، أنادي عليك

أيها الشعر،

نورس على جوهري ريشة من جناحيك».

ثم يمزق ما كتب، ويكتفي بكلمات وحروف من نوع «أنا... أنا... أنا... أ... أ... أ... إلى أن تغيب الكتابة كليا، ويبدأ الشرود والجنون والعنف البدائي المتوحش بحثا عن قربان من الدم البشري يقدمه على مذبح الكتابة، وحين يفشل في ارتكاب الجريمة التي خطط لها، ينتحر... هل انتحر؟

أما **الخاتمة** فتربط بين الفصول الثلاثة في محضر الشرطة عن الانتحار، هذا المحضر الذي نكتشف فيه أن للكاتب «رجب» علاقة حميمة بابنة الفلاح وابن التاجر، ولا نخرج من التحقيق الذي أجري معهما إلا بأسئلة أخرى: هل كان الكاتب صديقا حقيقيا لهما؟ هل كان يبحث في تجاربهما الشخصية عن مادة لكتابته؟ هل كان يحاول قتلهما فعلا أثناء فترة جنونه المتأخر؟ وأليسا مسؤولين بشكل ما عن مأساته؟ هذه الأسئلة كلها تتركها الرواية دون جواب محدد، ولكنها بنهايتها المفتوحة تدفع القارئ إلى آفاق واسعة من الخيال عملا بالمبدأ الفني الحديث: على القارئ أن يستخرج بأصابعه الكستناء من النار.

II

تتلخص الانتقادات الواردة فيما كتب عن الرواية في الصحف

فيما يلي:

1. **عن البناء:** البناء مفكك، ولا تفلح الخاتمة في الربط بين الفصول الثلاثة أو القصص الثلاث، كما تخيل المؤلف... هذا بالإضافة إلى الغياب الكلي لأي تصور محدد عن الزمان والفضاء.

2. **عن المنظور:** رغم أن للفصلين الأولين زاوية محددة للرؤية ينبع منها السرد (الفصل الأول بلزاكي، والثاني هيمنجوايي)، فإن الفصل الثالث شديد الاضطراب، ويتأرجح بين السرد الذاتي والمونولوج الداخلي، وحين تصل الشخصية إلى قمة الجنون، يحاول المؤلف أن يقلد (فولكنر) دون نجاح.

3. **عن موقف المؤلف:** فصول الرواية الثلاثة تنتهي بالشلل / الموت / الانتحار. هل يعتقد المؤلف أن مجتمعنا يسير نحو الانهيار؟ ولماذا هذه «الباقة» من الجوع والموت والمرض والدم والجنون والاغتصاب والمخدرات؟ وهل المؤلف يتحدث عن مجتمعنا حقا أو عن مجتمع خيالي يخلقه عقله المهووس بالجريمة والعنف؟ ولماذا لا يرتفع إلى مستوى النظرة الشاملة لحركة التاريخ؟ ثم لماذا هذه العودة إلى الوراء كلما تقدمت الرواية (رمضان . شعبان . رجب)؟

4. **انتقادات صغيرة تافهة لا تستحق الالتفات مثل:** هل نحن في كسرة أمريكا حقا؟ هل يتناول طلبة الطب المخدرات؟ هل ينشأ السرطان من قرحة المعدة؟ هل يوجد جوهر في الماء العذب؟.. إلخ.. إلخ...

III

ولهؤلاء جميعا نقول

1. إن بناء الرواية مرآوي، فالفصول الثلاثة يعكس بعضها بعضا، وعلاقة الفلاح بابنته شبيهة في عمقها وتطورها بعلاقة التاجر بابنه، وعلاقة الكاتب بعمله الذي يحلم به، كما أن شخصية الكاتب (رجب) ونموها في الرواية وجه آخر أعمق للراوي وموقعه المتغير والمتطور بين الفصول، وكل ذلك صورة ذاتية لمؤلف الرواية نفسه، وأحسب أن هذه الصياغة المرآوية تبرر ـ إن لم أقل تفرض ـ عمومية الزمان والفضاء.

2. إن التعلق ببلزاك وهيمنجواي وفولكنر لا يوجد إلا في خيال المنتقدين، الذين يفشلون في الإمساك بخصوصية الرواية وجدتها، فيلجأون إلى هذه التعلات القديمة والمبتذلة، وبلزاك وهيمنجواي وفولكنر أشهر من نار على علم، وإن من يسرقهم لسروق.

3. نحسب أننا قد خرجنا من تلك الفترة العقيمة التي كنا نحاسب الكاتب فيها على أفكار وأقوال وأفعال شخصياته، ونحن ندرك الآن أن هذه مجرد علامات، وأن منظومة القيم التي يؤمن بها الكاتب تستقر خلفها في العمق كالماء السري في عروق الأوراق والأغصان البادية للعيان. وعلى الذين يبحثون عن الإديولوجيا في رواية: «الفلاح والتاجر والكاتب» أن يمسكوا بخيط التاريخ في الرواية وأن يتتبعوه من الجوع إلى الشرف إلى الوطن إلى الانتماء إلى الوعي الشقي بالذات، فلعلهم يفهمون حينئذ كيف تحرك ويتحرك التاريخ، وكيف جسد ويجسد الفن حركته.

ملاحظة ضرورية

لا علاقة لكاتب هذا العرض بمؤلف الرواية رغم الشبه الملحوظ في الاسمين... فوجب التنبيه.

سرنمة

«النور يبصر النور،

والظلمة لا تبصر إلا الظلمة»

عبد القادر بنعجيبة

(... لم يسكت، أبوه أيضا لم يسكت لهم حين حاولوا إغراءه بعد الاستقلال. إنها عائلة رجال، رجال أحرار: الأنفة في دمهم، والمستقبل مفتوح أمامهم، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ الشرف والمال والمستقبل والـ...).

كان صديقي يتكلم في حماس، وبحرارة. وأحيانا يشدني بيده، يوقفني في وسط الشارع، ويغرس عينيه الزائغتين في عيني الهاربتين، وأنفاسه السكرى في وجهي، ويصب لي / علي خطابه الساخن.

شددت أذني بإحكام، وبدأت أنظر إلى كلماته، كلمات جميلة، تلبس المايوه وتستحم مرحة في أنفاس صاحبها الاستوائية، وأنا أنظر/أتفرج من وراء زجاج. ولكنه يمد يده أحيانا فيوقفني: يهشم الزجاج، ويصب لي / علي عجائزه الثرثارات:

(... أنا أعرفك وأعرفهم، دع الأمر لي... لا تفعل شيئا، قل فقط نعم، ولن تندم...) كنا ذاهبين إلى العرس، وصاحبي سكران، يبدو له الناس أطيب الناس، والناس أخبث الناس، وأبدو له مشروعا حافلا بالإمكانات، ويبدو لي...

كنت أخاف أن يعربد في العرس، فحاولت أن أقول: نعم، وأخاف أن (يشربني) فحاولت أن أقول: لا. وأخيرا وعدته بدراسة الموضوع هذه الليلة على الطبيعة، وبالرد غدا، وكررت أمامه للمرة الألف ثقتي وصداقتي...

ودخلنا دار العرس، فوجدت أن خوفي لا أساس له، ماذا يهم أن تقول: نعم، في عرس؟ أو حتى أن تقول: لا؟

قدمني صاحبي في احتفال، وأجلسني في مكان الشرف، وذاب في حمى الأضواء والأصوات والوجوه، فبدا لي وسط العربدة العامة رصينا، وجد مناخه، فبدأ يسيطر: يصافح ويقبل ويقهقه، ويؤكد بالقطع، وينفي البتة، ويشير إلي أحيانا وهو يستشهد بي.

كان العرس في القمة: مجموعة من الشباب تغني، وأصوات الشيخات تخترق الجو من بعيد، صوت التلفزيون يقرأ النشرة الأخيرة، وأصوات الناس تخاطب الناس دون أن تسمع الناس. وتحت قدمي زربية بيضاء ناصعة، وأمامي طاولة عليها مختلف أنواع الزجاجات والكؤوس. وإلى جانبي، جاء أخيرا صاحبي، فجلس، تحيط به ضوضاء معارفه وضحكاتهم، وبدأ الحديث عني... (سراق زيت أحمر كبير، كان يتحرك على الزربية البيضاء بجانب الطاولة متخبطا بين أشعة الضوء وموجات الصوت. يسير قليلا في صمت، ثم يقف، ويحرك شعيراته متقاطعة، ويتابع السير... لابد أنه كان يسمع، يتسمع؟) وأنا أيضا كنت أسمع، مرغما. لا أحب أن أسمع الكذب الذي يعرف صاحبه أنني

أعرف أنه كذب، ويزعم مع ذلك كذبا أني لا أحب أن أسمع الحديث عن نفسي، لأنه يعتقد كذبا: أنني أحب ذلك حبا جما. عيناي تهربان إلى سراق الزيت دون جدوى، فأنت لا تستطيع أن ترى بعينيك شيئا إذا كانت أذناك مشغولتين. ونظر صاحبي إلي (لابد أنه نظر إلي) واطمأن إلى عيني الهاربتين، فصدق نفسه، ووضع لسانه في قفاز حريري أبيض، وتابع التشريح (غالا غالا غالا غا...).

أما أنا فتسرنمت: دوخني الضوء والحرارة واللغط، فسرت دون شعور، دون حركة، دون صوت: وجدتني في حافلة مزدحمة بالرجال والنساء: الحر والعرق حتى الاختناق ولا صوت. لم تكن الحافلة وهي تجري تصدر صوتا، والرجال لم... والنساء لم... والسائق لم... والجابي لم... وأنا أيضا لم... فقد كنت أرى، واقفا بانحراف، في سنتيمتري الذي اقتطعته بالكاد، وتحت وجهي مباشرة، وجه طفل صغير في الرابعة من عمره: وجه غض وحلو وجميل وصغير، لطفل يقف في حجر أبيه، الجالس محشورا مع آخرين في المقعد المستطيل. وحولي وحول الطفل وحول أبيه مجموعة من الفتيات، يداعبن الطفل بأناملهن الحمراء، كالمناقير، يربتن على وجنتيه، (يخبلن) شعره، يبتسمن له، يقبلنه. وأبوه المحمر الخدين (من الخجل أو من الحرج؟ أو من السرور؟؟) يحرك شفتيه دون صوت، ويحاول إدماج الطفل في الجو. ولكن الطفل كان خارج الجو: وجهه الصغير الحلو حالم، وعيناه مشدودتان إلى زجاج الجانب الأيسر للحافلة، حيث كان يرى (ليس ما وراء الزجاج ولكن) ما ينعكس عليه من الجانب الأيمن: الجدران والإعلانات والعناوين: (بنك... شركة... مؤسسة...) مقلوبة الكتابة معكوسة الأشكال. وجهي فوق وجهه، ووجهه فوق الجانب الأيمن للشارع المتحرك، المنعكس في الزجاج الأيسر للحافلة... دقيقة صغيرة

ساهمة... دقيقتان... ثلاث دقا... وكأنما أحس بنظراتي المتفحصة، فرفع عينيه: ابتسم لي الصقر الصغير الجميل، وقالت لي عيناه: «عد إلى عملك الآن فقد عرفت، ولا عذر لك». حين التفت إلى الطريق، وجدت الحافلة على الحافة، فاستيقظت هلعا. كان سراق الزيت قد اختفى، وكانت (الغلا غالا غالا غا) تتخثر في الجو نفاذة ثقيلة كرائحة (الجاوي). قلت لصديقي إنني مريض، سأعود إلى البيت.

خطفت نفسي، وهربت إلى الشارع. اشتريت صحيفة الغد، كانت العناوين تقول (غالا غالا غالا لا)، في الطريق إلى البيت، وسط الشارع المضاء، وأنا وحدي، لم يكن الصديق قد سكت بعد. والعرس لم... والتلفزيون لم... والصحف لم... والعالم لم... وحتى بعد أن دخلت البيت، وجدت الضوء الكهربائي – الذي نسيت إطفاءه قبل خروجي – يقول (غالا غالا غالا غا) فأطفأته.

وحين سمعت العالم يسكت، استيقظت، فوجدتني على الحافة.

وأنا لن...

الهندي

– احك لي قصة.

فنظر إلي في دهشة وقال مبتسما: أنت لست صغيرا.

– احك لي قصة.

أصررت. مسح وجهي بنظرته المتفرسة، وقاس طولي، ووزنني، ثم نظر إلى كأس الشاي في يدي، وتردد قبل أن يقول:

– من الواقع أو من الخيال؟

– لا يهم.

– عن الكبار أو عن الصغار.

– لا يهم.

– طيب، سأحكي لك قصة، ومن الواقع، وعن الصغار، مادمت كبيرا إلى هذا الحد.

(لم أكن قد تجاوزت العاشرة فيما أعتقد، حين رأيته لأول مرة. كان لونه

أسمر، وعيناه سوداوين واسعتين هادئتين. هو كله كان هادئا: عيناه ووجهه وحركته البطيئة إذا مشى وإذا تكلم وإذا ضحك. كلا، لم أره ضاحكا قط – إذا ابتسم، وكثيرا ما كان يبتسم. لم يكن أي شيء يحدث ليخرجه عن هدوئه المطمئن الواثق – الواثق؟ لا أدري، أحيانا كنت أحسبه بليدا، أو «بارد القلب» كما وصفه أبي ذات مرة. حتى لو زلزلت الأرض تحته لانخسف به المقعد وهو هادئ مطمئن كما لو كان هو الذي أمر بذلك. كانوا يسمونه في الحي: «الهندي» لا أدري لماذا؟ للونه الخلاسي؟ أم لأنه يعمل مع الهنود في مركز المدينة؟ أعتقد أن أصله من الجنوب، ولكن شعره الأسود الناعم الطويل، الطويل، وعينيه الواسعتين، وشاربه الكثيف، الشديد السواد لنصاعة أسنانه بين شفتيه الغليظتين المفترتين، كل ذلك كان يوحي - مع لونه الزيتي - بأجنبية أحد أبويه. ولكننا لم نكن نعرف عنه شيئا، عدا أن له غرفة بالسطح، وأنه يعمل في مركز المدينة مع الهنود، وأنه يحب الأطفال، ويحكي لهم القصص.

ولكي يتخلص مني أبي ذات أحد، أمرني بأن أنضم إلى أطفال الهندي وأنتظر حتى يعود. بعد الظهر، وهو جالس في ظل حائط المسجد، والأطفال يحيطون به، وهو يحكي عن السندباد.

كانت أول مرة أجلس أمامه فيها وأستمع إليه. ولكني شغفت بالهندي منذ ذلك اليوم، وصرت أهرع إليه كل أحد بعد الظهر، مفتونا بعينيه الواسعتين السوداوين، وابتسامته المغسولة، وشعره الممشط، ولباسه الأنيق وسندباده المغامر.

لم يكن في تلك الأيام تلفزيون، وحتى الكرة لم تكن تجذبنا بالشغف الذي تجذب به أطفال اليوم. لا أدري، ربما حتى القصص لم تكن لتجذبنا لولا الهندي. كنا نحب البحر، ولكن الهندي نافسه، واستنقذ منه جمهوره الصغير

بحزم ومثابرة.

أنت تعرف حكايات السندباد، ولكنه كان يحكيها بطريقة خاصة، لا، ليس تلك الطريقة المسرحية التي تشخص الحكايات وتتقمص أبطالها. كان يحكي بطريقة هادئة تنسجم مع طبعه الهادئ، غير أن خصوصية طريقته في قفزاتها. كانت حكايته مجموعة من الطفرات كأنما هو حيوان صغير متوجس، يقف قليلا متلفتا إلى اليمين وإلى اليسار، ثم يقفز فجأة. ويقف بعدها ليبرر قفزته ويشرحها، ثم يسكت مبتسما ويمسحنا بنظرته المتفرسة، ويقيس من عيوننا اهتمامنا، ثم يقفز فجأة... وهكذا...

كان يقول مثلا فجأة، دون أن يمهد لذلك: «وأكل الجني السندباد» ويسكت. كيف؟ وهل انتهت القصة؟ ولكنه يتابع شارحا أن الجني كان واسعا من الداخل كمدينة، وأن السندباد بعد أن ابتلعه الجني كان يتجول في شوارع أحشائه كسائح، ويكتشف أصقاعا بكرا حافلة بالفاتن والمدهش والغريب.

«وأكل السندباد الجبل» ويسكت. كيف؟ هل أصبح السندباد جنيا؟ ولكنه يتابع شارحا أن الجبل كان في الحقيقة من الحلوى، وأن أشجاره وطيوره وحيواناته كانت كلها من الفانيد والكراميل، وأنه سلخ في امتصاص الجبل اللذيذ سبع سنوات.

آه كم كان ما يرويه لذيذا، غير أنني لا أحكي لك الآن حكاية السندباد، بل حكاية الهندي نفسه:

كنت في السابعة عشرة حين لقيته لأول مرة خارج الحي، رأيته وأنا أتجول في مركز المدينة جالسا في إحدى المقاهي يتابع بعينيه المارة في تفرس وتركيز كأنما يأكل بنهم حركة الناس في الشارع... نظرت إليه طويلا من موقعي الجانبي. وحين التفت أخيرا، ورآني، ابتسم، وأشار بيده إلي. جلست إلى

جانبه، وطلب لي «قهوة». وحين سألته عن حياته، اتسعت ابتسامته، ومد في وجهي سبابته الغليظة الهادئة وهو يقول:

– ألا تزال تحب القصص؟

قلت إنني أسأله عن حياته هو. قال: ما الفرق؟

نظر إلى حذائه اللامع في صمت، ثم سمعته يقول:

– يحكى أن رجلا في الزمن القديم كان كلما مَرَّ به يوم طيب في حياته، رمى بحصاة في كوب، حتى إذا سئل عن عمره، قلب الكوب وعد الحصى. وبالنسبة لي فإن أول وآخر حصاة رميتها في الكوب كانت يوم لقيت السندباد.

– تعني يوم قرأت ألف ليلة؟

– كلا... لقد لقيت السندباد فعلا. ونظر إلي مبتسما: السندباد لا يموت، إنه كالخضر، يعيش في كل العصور، مع كل الأجيال: الخضر ينتج العلوم، والسندباد ينتج القصص.

– حسنا، كيف لقيته؟

– لقيته في بار. كنت أيامها مدمنا، وجمعتنا الكأس على طاولة. ولفت نظري أنه كان يكتب بين الحين والآخر في ورقة الكلينكس، كلما شرب كأسا كتب سطرا، ثم يطوي الورقة ويضعها في جيبه. قلت له: ماذا تكتب؟ قال: إحدى رحلاتي. قلت له: خذني معك. قال: تعال. وأمسك بيدي هكذا...

(فجأة، والهندي يمد يده ليمسك بيدي، قلب كأس القهوة البارد على الطاولة، ووجدتني . وأنا أتشبث بأذيال الوعي . أصارع تيارا عنيفا من الأمواج السوداء الصاخبة. أصرخ دون صوت، وأمد يدي، أحاول أن أمد يدي، ولكنها ثقيلة كالرصاص، وبينها وبين يد الهندي، التي شرعت تمتد ثم جمدت

في وضع الشروع، مساحة آلاف الكيلومترات من الماء تعلو تارة حتى تغطي اليد الغليظة الساكنة السمراء، ثم تنخفض تارة حتى تبدو أصابع الهندي كالنجوم...) حين التفت لم أجد بجانبي أحدا.

المقهى تكاد تكون فارغة، كأس الشاي على الطاولة تكاد تكون فارغة وصاحبي القديم الذي كان يحكي عن الهندي، لم يعد موجودا، الشمس اصفرت، والجو أخذ يبرد، والعرق أحسه على جبيني باردا وثقيلا كماء البحر. أخرجت من جيبي المنديل، فسقطت على الأرض ورقة... ارتجفت هلعا: ورقة كلينكس بيضاء... فليكن... نشرت الورقة على الطاولة وأخذت أقرأ: «فززز... وأقفز، سررر... فررر... هللا... بللا، وأسكت؟ كيف؟ وأكتب؟ كيف؟ وأسكن؟ كيف؟ وأحل؟ كيف؟ وهم فززز... فززز... وأنا أقفز. ألا تقفز أنت؟ انظر يمينا... يسارا... أماما... خلفا... تحتا... فوقا...حذار، اقفز، انزل، التفت، انظر يمينا، اقفز، العمل بسيط، فقط راقبهم. فقطقط أشعرهم بالمراقبة، حتى ولو لم تراقبهم. لأنني أنا أيضا أشعر بالمراقبة فقطقطقط. ولذلك أراقبهم، وأسافر من هنا إلى هناك، من هناك إلى هنا، من هنا إلى هنا، ولا تفعل شيئا: لا تقرير، لا ملف، لا أقلام ولا رؤوسها، فقط من هناك إلى هناك، وراقبهم، قب جيدا وإلا قبقب.اقفز، انزل، التفت، قب، قب أيضا.

وأخيرا (طبت). إلى الجحيم جميعا: أنت، وهم، والآخرون،وأنت، وهم أيضا وجلست على الأرض. المسها بأصابعك اللزجة المسها تحسسها: الزفت، الأرض أيضا زفت. قالت الأرض: «زففففت، زففففت» فوضعت رأسي بين يدي، وبكيت، تساقط من عيني الزفت. بحيرة من الزفت. اخلع ثيابك قطعة قطعة، الجورب مركب يخرج من البصرة مع الفجر، اركبه، الهند تبدو في الأفق، وهو ينتظرك على الشاطئ فمد يدك. ولكنه سيقبقبك، وينهال على جووربك

المتسخ بـ: لماذا؟ كيف؟ أين؟ متى؟ لماذا ذا ذا ذا ذا...

آآآآه... فينشق حلقك، لينشق ولينشق شق ألف مرة شق. من يسمعك في هذه الهللا بللا...؟

الحل الوحيد أن تشرب، الحل الوحيد أن تكتب، الحل الوحيد أن تصحو، وتمحو، حتى تشرب وتكتب، حتى تعرب وتقرب، حتى تسقط في البحر وتغرب، فاكتب... تب».

ومددت يدي...

صاد

الصمت... هو معنى الصوت. تنحنح، وسلك الغصة نفسها. ما أن يشعر بالصمت، وبمداه الواسع والعميق كبحر أو كبحيرة أو كسطل ماء، سطل أحمر من الميكا تضعه زوجته تحت عداد الماء الفاسد لتسقط فيه القطرات الفالتة: صطاب... صطاب... صطاب... بعد كل صطاب... قبل كل صطاب... يولد الصمت يكبر الصمت يموت الصمت تنحنح. ما أن يشعر بالصمت حتى يدخل شيء ما في قصبته الهوائية ينتهز غفلته وغيابه في صحراء الصمت ويتسرب، لولا انتباهه السريع ونحنحته الفورية لاختنق. لو كان هناك من يغلق النافذة الحمقاء، تخبط الريح الدفة على الجدار صاط... صرررر... صاط... ثم الصمت ثم الصوت ثم الغصة تنحنح. وفكر في الريح. تثرثر معهن بصغائره وسخافاته. تقلبه أمامهن ظهرا لبطن كما يقلب جامع القمامة كنوزه صطاب... وتقلبه بطنا لظهر صاط... وظهرا لبطن أيضا وأيضا وأيضا.

وأنت كورقة مرحاض بطنك الوسخ كظهرك الوسخ وليس فيك ما يقلب،

مهروقة من شرفة الزمن على رأسي فلماذا لم تغلقي النافذة الحمقاء ولم تغلقي فمك الأحمق ولم تغلقي صطاب... وفكر في الريح... ليلتها كانت تلك المرأة الأخرى تلده. تدفع به إلى الخارج، تدفع تدفع كأنما تنفذ حكما بالإفراغ لعدم الدفع، تَدُعٌّ تَدُعٌّ وكان هو الجنين اليتيم يحس بأن هناك شيئا ما يضرب دماغه من الخارج مرة ومرة ومرة كنافذة ترتطم بالجدار صاط... صاط... صاط... فلماذا لم تغلقي تلك النافذة الحمقاء ولم تغلقي فمك الأحمق ولم تغلقي... وفكر في الريح، تنحنح وفكر في الريح. ليس للريح أخلاق... ليس للريح أخلاق مطلقا. مهمتها... ليس لها حتى مهام. الريح مجرد ريح، تدفع وتدفع من البحر إلى البحر إلى البحر إلى بحيرة من الصمت صطاب... الصمت أحمر والصوت أحمر والعيش أحمر فلماذا لم أغلق النافذة العلوية ليلتها، ولماذا تعمدت . لابد أنك تعمدت . أن أنسى إغلاق تلك النافذة الحمقاء في أعلى الجدار حين فتحت الغاز وأغلقت الباب ونمت، ليلتها كان ذلك الحلم الأصفر: راية من الحرير الأصفر بعرض الأفق تخفق في... (الأفق الأزرقي يا علم). فلماذا لم تنتبه . أنت المصطف مع باقي الأطفال في تلك الساحة المكنوسة بالريح – إلى أن العلم أصفر. والريح تضرب عينيك وأنت ترمش كالجرو الوليد وتصرخ مع الآخرين بصوت أصم كما لو من وراء زجاج أبيض في الطابق العشرين والعصفور صوصو... فلماذا لم تغلق فمك الأصفر وتفتح عينيك الجرويتين حتى تبصر ما وراء الأفق الأزرقي يا بنادم.

جميلا سأكون كيوسف... وسأطير في فضاء الغد والحرير من حولي يحيطني بالحب ويحميني من الريح والذهب الأصفر تحت قدمي والعالم يسجد لي وأنا أبتسم كيوسف. ذلك الجبل القائم خلف القرية كلاليجو... والذي تهبط منه الخنازير البرية فتفسد الغرس وتفترس الأطفال... سأدكه دكا حتى

أسويه بالوادي، وأشق فيه الطرق وأزرع فيه الحدائق والشرفات وصنابير الماء ومصابيح الكهرباء ومنصات الرقص والموسيقى.

سأملأ المطامير بالزرع والخوابي بالزيت والرؤوس بالعلم والقلوب بالحب والأيام بالفرح والآفاق بالغناء «في الأفق الأزرقي يا علم».

يا أسفا عليك يا مومو... لم تجد من يأخذ رأسك الجميل ويدقه كالوتد حتى تصحو وتعرف أن الحب جب والذهب جوع والحرير «حريرة». وأن الزرع صاط... والزيت صاط... والعلم صاط والحب صاط. والفرح صاط. والأفق الأحمقا صاط... صاط... صاط.

والصمت هو معنى الصوت تنحنح. ما أن يشعر بالصمت حتى تدخل الغوريلا: تحدجه بمؤخر عينيها وتسأله إن كان يحتاج إلى شيء... بلهجة من لا يتوقع جوابا، أو من يتوقع نفيا، أو من لا يهمه إن كان هذا أو ذاك... وإذا سألتها أن تغلق النافذة فستفتح فمها، وترتطم بك... صاط.

فصبر جميل أيها الأخ أو فاصهل: احمل جمرتك في كفك واخرج إلى الفضاء العاري. هل رأيت جوادا قط مات تحت السقف؟

الخيل الكريمة ترفض التمريض، وتواجه مصائرها وحيدة تحت السماء.

لا تفكر في الريح... واجهها. كن أنت ريحا لا أخلاق لها، واخبط الجدران وقل صررر... للشامتين قل صررر... وللتافهين قل صررر... ولفئران الكراسي قل صررر... وللذين «كايسيريو» كلماتهم قل صررر... صررر... صررر...

حصان الساعة اليابانية

انظر، ما أجمله! طفل صغير يبتسم لا تستطيع أن تعرف لماذا؟ ربما لزرقة السماء، لفوضى الأصوات في الهواء، أو للساعة اليابانية الصغيرة في معصمه النحيل، أو لأنه طفل، وصغير، ومبتسم، وجميل، ولا يراه ـ كما يرى ـ أحد.

أو لأن شفتيه تعودتا الابتسام: يهددونه ويخيفونه، ثم يكشفون له فجأة: أنهم يداعبونه فقط فلماذا يبكي؟ ينبغي أن يبتسم، فيبتسم، وتتهيأ شفتاه للابتسام كلما تكلم أحد، لأنه أصبح يظن وراء كل كلام خبيئا: نية مبيتة بالمداعبة وراء التهديد، وبالألم وراء المداعبة.

يا للطفل المسكين! لقد أصبح مريضا بالفزع... وحتى حين يسمع صوت الريح يبتسم، كأن وراء الريح ريحا أخرى، ووراء الزقزقة ضحكة ساخرة مرة كالدواء، ووراء زرقة السماء بحرا من الدم الأحمر يلعب معه لعبة الاختفاء. أما الساعة اليابانية، فإنه يكتفي بالنظر إليها، لأنه لا يستطيع أن يضع أذنه فوقها، ويسمع ـ كما يشتهي ـ تكتكتها الترانزيستورية الواهنة، خوفا من أن يبتسم ابتسامته نفسها.

انظر، إنه يدخل إلى الساعة، يتعلق في العقرب الصغير ويتدلى، كالجدي، إلى رمل الميناء، يتلع جيده القصير ليرى رقم 3 البعيد، ثم يجري نحوه على الرمل المشاكس الذي يعرقل، دون جدوى، خطواته اليابانية المتقاربة المصممة. هذا الطفل سيصل.

إلى الرقم 3؟ نعم، حيث سيجد الحراب المشرعة في الفضاء، تطعنه إذا قال الحرية، وتطعنه إذا قال الخبز، وتطعنه إذا قال فلسطين، وتطعنه إذا قال أمي، وتطعنه أيضا إذا لم يقل شيئا، لأن وراء كل صمت خبيئا. ما فائدة أن يصل؟ أن يقف؟ أن يعود؟ أن يقتل؟ ما فائدة الفائدة؟

ولكنه وصل. بل تجاوز الرقم 3. في الجسم جراح لما تندمل، والثياب القصيرة مزقا عادت، ولكنه يتقدم ما يزال، خطوة وراء خطوة، ببطء، وبتصميم. حوله على الرمل يلعب الأطفال: يبنون البيوت والقلاع والحصون. لا يعرج على أحد. الحياة أطول/أعرض/أعمق من أن تختصر في شقة/صالون/ تلفزيون. سيلحس البحر كل هذا غدا. الحياة هي الريح نفسها. حرة مدمرة للأنساق والأنظمة والاتساقات. وهو يتقدم ما يزال نحو الرقم 4. سيصل، ويتجاوزه إلى الرقم 5. لو امتد به العمر فسيصل إلى الرقم 7 نفسه. انتظر، وسترى.

غير أن الرمل كمين. ها هو يتكشف عن بئر تبتلع الطفل بغتة. وقبل أن يجد الوقت للصراخ، ينطرح على أرض البئر العميقة الغور مندهشا. لن يرى أحد ابتسامته في هذا الظلام الشامل، ولكنه مع ذلك يبتسم، الأحمق المسكين! لا نجم في السماء، لا سماء. انطفأت المصابيح وخبت المثل وتراجع الهداة. وما يبدو له أبيض أو أشهب من مكان بعيد، ليس إلا بقية وعي يبصر بها الظلام، أو هو فوهة بئر أخرى، بئر البئر نفسها.

هو ضوء ذلك الذي يبدو من بعيد، يخافت به الظلام المحيط فلا يكاد يبين؟ ولكنه ضوء لا بد. أبيض أصفر أشهب كأنه زغب شائب. بل هو زغب فعلا، ها هي اللوحة تتضح الآن: غرة حصان ما كان يرى. ولكنه حصان فني: مرسوم على جدار هذه البئر العميقة على خلفية حمراء. معالم الحصان هائلة: ذيله ضاف، وقوائمه طويلة، دقيقة بالنسبة لحجمه. صدره واسع، ورأسه مرتفع، وعلى جنبه تتحفز للحركة ساق فارس لا يرى: فارس يذهب رسمه بعيدا في أعلى البئر. لابد أنه يطل برأسه من فوهتها الرملية الصفراء، ويرى الأطفال يبنون البيوت. اللوحة جميلة، جليلة، والطفل يستبطن نهما للمعرفة يفتح عينيه على سعتهما من الانبهار، وأذنيه إلى أقصاهما من الفضول، حتى ليكاد يسمع في اللوحة ربو المنخرين. وبين القوائم، ترتفع الخلفية مادة ألسنتها الحمراء إلى الجنب تحت ساق الفارس: خلفية حمراء طامية تبدو على مساحتها الواسعة عشرات من الكائنات الصغيرة هنا وهناك كالحيوانات أو كالحيوات: حيوات الأحصنة القديمة والرسامين القدامى، التي كانت تبتلعها مغارة الدم هذه منذ سال الدم. الفن ألم: الجزء الظاهر من الألم في عيون لا تتأمل. الطفل ينحني على ألسنة الخلفية الحمراء في جنب الحصان يلعقها. المذاق؟ كيف تجد مذاق الدم في أصبعك المجروح؟ مالحا؟ دافئا؟ كثيفا؟ منوما؟ كيف تجد. كنت تجد. مذاق لبن الأم؟ والأحمق يذوق المهر المسكين يذوق ويستمرئ ويرفع عينيه الساذجتين إلى الفرس والفارس، سيلحس البحر كل هذا البحر غدا.

انظر، الغرة تكاد تومض، وفي عيني الحصان نبل يشع من حوله هيبة لا تنتهك.

إنما في عينيه الدمع، غلالة دمع تغلف صفاء العين الواسعة المغسولة،

فتبدو مع الحزن الكامن ترفعا، ولولا اليأس يمسكها لسالت. الكبرياء ألم: الجزء الظاهر من الألم في عيون لا تتألم. والطفل الأحمق المسكين لا يفهم، فيقفز إلى حافة العين: الإنسان الطفل ينظر في عين الحصان الشيخ ويتأملها. ولأنه لا يفهم، يقفز فيها. ولأنه لا يعرف السباحة، يغرق. ولأن العين دون قعر، لا يصل. يغرق في الغرق.

على سطح العين تطفو ساعة يابانية صغيرة، يراها الحصان ويهم بالحمحمة. إنه يبتسم. هل يفكر في القفز إليها؟

أيها الرقبة

فراغ... لا حيوان على الأرض، لا غيمة في السماء، لا حركة في المدى، بلى... هناك شيء ما، إحساس بثقل ما، إحساس غامض يوجد ولا يوجد معا، يشبه الإحساس بخدر الرجل، أو ألم الإبن أو رائحة المطر. هل هو المطر يتهيأ للسقوط؟ كلا، هناك شجرة. أليس ذلك الشيء البعيد شجرة؟ بل إنسان. من أنت؟

– «هل تعرف القطار؟ القطار السائر بسرعة 100 كيلو، القطار المكتظ بالركاب والأمتعة والمفتشين والباعة والشحاذين والأنفاس والدخان، القطار المنطلق كالسهم وسط الحقول الخضر المفتوحة للشمس والريح...

أنا القطار.

– هل تعرف الصخرة؟ الصخرة النابتة في الجبل المنغرسة عميقا في الجبل، المطلة برأسها الخشن المفلطح الأشهب فوق التراب، الصخرة اللامبالية بالعالم، الجهمة الوجه البقرية الاهتمام، تجتر وجودها الساكن، ولا تعرف شيئا عن حبة الخردل الصغيرة السوداء التي تَكِنُ فيها كعاشق صوفي يمارس اليوغا ويتأمل

السماوات والأرض... أنا حبة الخردل.

– هل تعرف الغاز؟ الغاز الذي يستخدمه الناس وقودا في المطبخ، الغاز المسترق المحبوس كعفريت القمقم، والذي عليه أن يحترق، ولكن بإذن وأن يحترق، ولكن بمقدار. وأن يحترق رق رق...برقة. هل تعرف الغاز الرقيق؟... أنا قنينة الغاز».

– «شد فمك باركا من الإنشاء. أنت زيرو. عندك السرتفيكا؟ ما عندكش. أنت زيرو. اللي عندو السرتفيكا يزيد، اللي ما عندوش يرجع للور. أنت عندك ال... شكون أنتا؟».

– أنا الجريدة اليومية، جئت أقول في آخر صفحتي الثالثة:

«تم يوم الإثنين الماضي، وفي إطار الحجز القضائي، بيع أمتعة المرحوم عباس المسعدي بطل المقاومة وجيش التحرير، والذي اغتيل بفاس، غداة الاستقلال. عائلة هذا البطل لا تزال منذ الاستقلال تسكن في بيت الكراء، ولكن خلافا بين مالكي البيت جعل أحد الأطراف يستصدر حكما بأن تؤدي زوجة الشهيد المسعدي الكراء عن عشر سنوات، بينما هي دفعت ذلك الكراء للطرف الثاني مقابل وصول».

وأقول في الصفحة الرابعة:

«وسألنا السياف: كم تتلقى مقابل عملك؟

فأجاب: كنت أتلقى في ذلك الوقت راتبا قدره: 130 ريال ولكن بالإضافة إلى ذلك حصلت على وعد بتلقي مبلغ 500 ريال عن كل رأس أقطعها بسيفي وكنت أتطلع إلى المزيد من الفرص، التي تتيح لي قطع المزيد من الرؤوس، حتى أستطيع أن أكسب المزيد من النقود.

– وما هي الأدوات التي تستخدمها في عملك؟

– لقطع رؤوس الرجال أستخدم سيفا خاصا حسب سنة النبي محمد عليه السلام وبالنسبة للنساء أستخدم مسدسا. والسبب في استخدام المسدس مع النساء هو تجنب إزالة غطاء الجزء الأعلى من الرأس.

– خلال سنوات عملك، هل واجهتك مواقف غير عادية؟

– نعم، ذات مرة نفذت الإعدام في شخصين، وقف الرجلان متجاورين. وعقب صدور الحكم، قطعت رأس أحدهما، ووقعت الرأس مباشرة أمام المجرم الآخر. وعندما توجهت إليه لأجهز على حياته، حدق في وجهي بطريقة غريبة. ولم أشعر بأية رأفة نحوه. وعندما أوشكت أن أرفع سيفي لأقطع رأسه، وجدته قد انهار على الأرض فجأة. وفحصه الطبيب، وقال إنه أصيب بذبحة صدرية، وتوقف قلبه عن الخفقان. وعندما حمل إلى المقبرة لدفنه سمع المشيعون صوته يطلب شربة ماء. وتم استدعائي مباشرة، فقطعت رأسه».

وأقول في الصفحة الأخيرة:

«... ويضيف إدواردو غاليانو في مقالة له بعنوان: الطفل الضائع في الخلاء: ليس باطلا ما يقال عن إصلاحات غورباتشوف. إنها كانت ممكنة لأن الاتحاد السوفياتي لم يكن معرضا للغزو من طرف الاتحاد السوفياتي. كما أنه ليس باطلا كذلك ما يقال عن الولايات المتحدة. إنها ليست معرضة لخطر الانقلابات والديكتاتوريات العسكرية لأنها لا توجد بها سفارة الولايات المتحدة».

ألقى بالجريدة على الأرض، وقام إلى الهاتف الذي يرن:

– ألو. نعم يا سيدتي. من أنت؟

– أنا مسرحية... اسمع هذه العينة من فصلي الأول:

– «إنها ثقافة الصرصار: ارفض كل شيء وسر عكس التيار، ماذا ستربح في الأخير؟ انتحار بطيء. الموت فقرا. أما النمل الحكيم، فيتابع عمل من قبله. يكرر ويراكم، ويبني مدنا وخزائن. يبني - بالصبر والتكرار - حضارات. الوجود الإنساني نفسه ناتج عن التكرار. اقرأ التاريخ يا ولدي. لهذا السبب خلق التاريخ لو تدري.

– عقلية الفقهاء والمعلمين وقصص الوعظ والإرشاد. لماذا أقرأ التاريخ؟ أنا مولع بالجغرافيا. فهي - على الأقل - تتجدد.

– تتجدد بتدخل الإنسان، تجدد الجغرافيا هو ما نسميه «التاريخ» لو تدري.

– «لو تدري» «لو تدري»... أنا لا أريد أن أدْرِي، أريد أن أُدْرَى. لماذا تحبسوننا في مكان مغلق وترغموننا على أن «ندري». لماذا لا تطلقون سراحنا، وتشجعوننا على أن «نفعل» أن «نلعب» أن «نتحرك» أن «نختلف»، لا أن «ندري»...».

وهذه عينة أخرى من فصلي الثاني:

– «نعم جمالية السقوط. وتصور عمارة تنهار. (ليس في الشارع، بل على الشاشة، وبالإيقاع البطيء، ودون صوت) إن لذلك جماله الفريد. أشبه بثوب امرأة يسقط عند قدميها. يسقط تلقائيا، وكأنها لم ترد إسقاطه. تذوق جماله. جماله هو، لا جمال المرأة العارية. جمال الحرير المتهاوي، جمال اللون الأصفر في أوراق الخريف.

– إنه ذوق الغربان التي تعيش على الجيف. ذوق حفاري القبور.

– بل ذوق رجال الإدارة والأعمال. ذوق الصاعدين.

– على الرقاب.

– نعم على الرقاب، أيها الرقبة».

– وهذه العينة من فصلي الأخير:

– بلا بلا بلا بلا بلا بلا. جاوب

– بلا بلا بلا بلا بلا بلا. جاوب

– بلا بلا بلا بلا بلا بلا. جاوب

– بلا بلا بلا بلا بلا بلا. جاوب

علق السماعة، وعاد إلى مقعده، وضع رأسه بين يديه قليلا، ثم انتفض، وفتح الراديو. كانت أغنية إيطالية تقول:

«ذات يوم يا حبيبي

ستضيق بها

حريتك تلك

وتعود إلي

ذات يوم يا حبيبي».

ابتسم في استسلام حزين، وتمتم: ولكن، إلى من أعود أنا؟

استدار إلى النافذة، وتطلع إلى الفضاء الفسيح الخالي:

لا حركة في المدى، لا غيمة في السماء، لا إنسان على الأرض... فراغ.

طرح السر

I

النظارتان السوداوان، الشعر الطويل المرسل على الظهر، الحقيبة السوداء بالعلاقة الطويلة على الكتف، الجاكيت الجلدية والسروال الضيق والحذاء الأسود ذو الكعب العالي: دق، دق، دق، دق، وأنا وراءها.

ما الذي تخفيه النظارتان السوداوان؟ كبرياء؟ بارد كالثلج، وبريء كالثلج. كبرياء لم تصقله التجربة، ولم تدبغه آلام الحياة. عرف الآلام، ولكن... لا بد أن هناك فرقا بين ألم الجوع أو المرض أو الضرب حتى ازرقاق الجلد، وبين ألم الخيبة لأنها تمطر اليوم أو الضيق من الضوء الأحمر في الطريق. هناك فرق لابد بين (الوجع) و(النرفزة).

ما الذي تخفيه النظارتان السوداوان؟ قصة حب فاشل؟ حب يمتد في الداخل عميقا، يحفر في الوجدان، ويدمغه بآلام الوحدة والفقد والغيرة والخداع والمهانة والشبق والكبت والفضيحة والسخرية والنميمة والاحتقار والإصرار على الإمساك بسلة الآلام هذه ورفعها عاليا وبتحد مطبوع بنبل وفرادة

الانتحار؟

ولكن، ما الذي تخفيه النظارتان السوداوان؟

أنف المخبر الشمام؟ مكر الذئب؟ ذرائعية البزنسة؟ أعصاب صيادي السمك؟ شيطنة الصبية؟ لامبالاة الحكماء؟ سروح الشعراء؟ قصور المتخلفين عقليا؟ تنكر الناس المهمين؟ زرقاء اليمامة؟

ما الذي تخفيه النظارتان السوداوان إذن؟ وصاحبتهما تنزل من الرونو البيضاء بالعلامة الخضراء لتدخل كريمري كاليفورنيا وتطلب عصير الليمون وتشعل سيجارتها الطويلة وهي تلقي. ومن خلف النظارتين دائما. نظرة على الأوراق الأنيقة الناعمة، ثم تشرب ليمونها، وتتأبط حقيبتها وتخرج من الكريمري إلى إدارة الشركة العالمية في الزنقة المجاورة، وقلبي: دق، دق، دق، دق، وهي أمامي.

II

وضعي يتدهور، ولكني طموح. وأهم ما في الأمر أني أومن بالمعجزات.

كلما دق الباب توقعت خبرا سيئا، كلما لقيت صديقا سبقني إلى طلب السلفة، وفي كل يوم يحدث لي شيء ما: أسرق في (الطوبيس)، تنفجر في البيت جعبة ماء، ينغلق باب على أصابعي، تأتيني رسالة أو برقية بأن والدي مريض، أو أنني إذا لم أدفع خلال سبعة أيام فسينفذ علي الإكراه البدني، أو أن أختي. وهو الأفظع. قد ولدت، أو ببساطة «آسفون، لا شغل في الوقت الحاضر»، ولكني أومن بالمعجزات: مسألة ضرورية جدا، لأني إذا لم... فسأنفجر ذات صباح كجعبة ماء، وأفيض على نفسي وعلى... نفسي.

III

غبت سبعة أيام، أين يمكن أن أكون قد كنت؟ لا أدري، لم أقل لي.

في الشارع (على السلامة). في البيت (على السلامة). في المقهى (على السلامة). والجيران على سلم العمارة (على السلامة). وأنا لا أعرف أين كنت. لا بد أن أسألني، ولكن رأسي كالحجر الصلد لا يَنْدَى بقطرة خبر، لا بد أن أسرق غفلتي وأنا أسرح في أحلام اليقظة، أو وأنا أناقش في السياسة:

أفتح فمي كالأبله حين أحلم، أنسى نفسي كليا وأسرح في... (فنيسيا) من أين جاءتني هذه الفنيسيا؟ من فيلم سينمائي لا بد، أو ربما من رواية ألمانية عن فنيسيا، أو ببساطة، من أغنية لعبد الوهاب. ولكن، ما الذي يهوسني بهذه القنوات الضيقة الطويلة المتعرجة العميقة الغور المحاطة بالجدران والجسور والسلالم الحجرية، والتي تقفز كالجرذان إلى مخي بين الحين والآخر، وتنسيني أن (أحضي رأسي من القومان)؟ وحين أناقش في السياسة، أتخلى عن كل هدوء أو موضوعية، وأمارس الصراخ والحركة لأحاصر آراء الآخرين. أزرع الأسئلة حول المواقف، وأشم خلف كل حدث سياسي مؤامرة أو مخططا جهنميا، وأجد دائما علاقة ما: بين سقوط جدار برلين، وبناء كوميسارية جديدة في الحي، ودخول المريكان إلى جزيرة العرب، وبطالة الخريجين.

أقف على حافة مخي وأسرق النظرة إلى قنوات المياه وقضايا السياسة، وأختطف هذه الفلاشات:

1. وقفت أمامي الرونو البيضاء وقيل لي (اطلع) فطلعت.

2. على رأسي، ومن وراء، وفي الظلام، صبوا ماء باردا: أسناني اصطك طلك طلك طكت، ولحمي العزيز علي ارتعد (يرتعد الآن).

3. (وجه أول): أمامي على الطاولة الخشبية المضاءة من أعلى سرحوا الورقة المكرمشة البيضاء وقالوا لي (اقرأ) فبحلقت.

4. الأم العجوز الضئيلة الجسم، في الصف، أمام باب السجن، طرحت سلتها على الأرض، خدها عاى يدها، أسرارها على سطح وعيها، ورأت ابنها المعتقل:

«صغيراً، مُغَرْغراً، ممَامياً، دَدَادياً، فرحاً بالماء، مطَرْطشاً فيه، لاثغاً بالراء، كبيييراً، قارئا للعلوم والألسن، ساهرا، نائما، مريضا، خائفاً، حالماً، متكلماً، غاضباً، باسماً، مُقَبِّلا، مُقَبَّلا، مُقَبِّلا، مُقَبَّلا».

اختلطت أسرارها المطروحة حتى الغموض، طرحت كلها كومة واحدة يحجب بعضها بعضا. لم تكن أما، كانت أمة تطرح أسرارها (هوامشها، مكبوتاتها، محرماتها، ممنوعاتها، هزائمها، مذابحها) مختلطة معجونة بالعرق والدموع والدم والسعال والنفي والبعد والعناد والعناد والعناد. ثم فجأة، قرقع الباب الحديدي الكبير. جمعت المرأة أسرارها وعقدتها في رأسها الأشيب كخمار، ونظرت إلى الأمام في تحفز واستعداد.

3. (وجه ثان) وضعت على الورقة الفارغة البيضاء نفسي، نفسي بالقلم البيك: جافة صغيرة متعرجة كنفوس العدول والأطباء. ولكنها نفسي أنا، ولذلك فرزت خطوطها وبدأت أقرأ:

«قطتي صغيرة . واسمها نميرة».

2. (إعادة).

5. ... مطروحا على السطح الأبيض الناعم لطاولة كبيرة، وقد تحلق حولي السادة المسؤولون، فقال السيد الـ... ورد السيد الـ... غير أن السيد

الـ... في حين أن السيد الـ... بينما كان السيد... وختم السيد الـ...: إن... وإن... وإن... وإن... فاستل السيد المقدم إبرة طويلة رفيعة سوداء، غرزها في صدري، وسمرني كالفراشة على السطح الأبيض الناعم المضاء للطاولة المسؤولة، فأصبحت الفرصة متاحة لفحصي بدقة، وللقيام بدراسات متخصصة عن حاجياتي وميولي واتجاهاتي ومواضي ومستقبلاتي... وفي انتظار استكمال الدراسات كلف السيد المقدم بإبقائي مسمرا على الطاولة رهن الفحص كلما دعت الحاجة.

6. النظارتان السوداوان ارتفعتا قليلا، قليلا، و... لا عينان، حفرتان فقط، مطموستان، وسوداوان أيضا، والشفتان الشهيتان افترتا، الابتسامة، والأسنان الجوهر في الدلالة، واللسان الحلو حلاوة الفانيد المغلف تحرك ونطق وقال: «أنا أصبن أحسن».

7. حصان، حصان أدهم نبيل، على الأرض للعشبة الخضراء، وفي رشاقة، خطوة خطوة، وبرأس الحافر، خطوة خطوة، والعنق الأشم مرتفع نحو الشمس، حنحنة مكتومة: أمر للأفق بالاقتراب، انطلاقة سريعة كالسهم، ثم، لا أفق، لا عشب، لا شمس، ولا حتى حنذول في القناة، فقط للمياه العميقة السوداء، عميقة، وسوداء.

ولكن، أين يمكن أن أكون قد كنت؟

ماء

اشتريت لوح الشوكولاطة، وأخذت الصرف. وضعت الصرف في جيب السروال، ولوح الشوكولاطة في جيب السترة، وانحدرت إلى شارع محمد الخامس لآخذ الطاكسي الكبير إلى الحي.

كان،ينبغي أن أبقى على الرصيف الأيمن حتى الضوء، ثم أقطع معبر المشاة للانعطاف إلى اليسار. ولكني بادرت بالانتقال إلى الرصيف الأيسر مباشرة، معرضا نفسي ـ كالعادة ـ للاصطدام بالسيارات العابرة.

مسألة أعصاب غالبا ـ حين يكون علي أن أقوم بعمل ما، فإنني أحاول إنجازه بسرعة ـ وحتى قبل وقته ـ لأرتاح، وأتفرغ لـ... فراغي وسرحاني (ذهني كالماء، لا يستقر. وما أن يجد من الواقع الحاضر مسربا حتى يسيح في الأحلام).

أعصاب غالبا. أو نقطة من نقاط ضعفي الكثيرة والمتزايدة. غير أن الشوكولاطة هي نقطة ضعفي الكبرى، ولا شك أن من المخجل لرجل مثلي في سن الأربعين، متزوج، وله ثلاثة أبناء، أكبرهم في الخامسة عشرة، أن يشتري

شوكولاطة، ويختفي بها، في التواليت مثلا، ويقضمها، وذهنه سارح في الغروب، في غروب قديم رآه وهو طفل (حين نحس بأن الغبار يهبط إلى الأرض بالتدريج، والضجة تتخافت، والنهار يتنهد، والأفق البعيد الأحمر يكشكش كالجمر المرشوش بالماء) ماء... ماء... كان الخروف يقول، وكنت متفقا معه حينها. أما الآن، فلم أعد خروفا، ولم أعد متفقا، ومع ذلك، فقد اشتريت شوكولاطة. وحين أنزل من الطاكسي سيكون الناس أقل في الشوارع، وسيتاح لي أن أقضمها بحرية، وأنا أقطع الباقي من الطريق إلى البيت.

كلب... أغبر أشهب ضامر البطن، وقوائمه تقلقل هيكله الهزيل وهي ترتفع وتقع، كأنما يمارس رياضة، أنفه في الأرض، وعيناه. لا بد. حمراوان. لا أستطيع تخيل كلب له عينان غير حمراوين. لا أدري لماذا؟ بل إن لفظة «كلب» نفسها حمراء في تصوري... لعله الدم: دمي أنا الذي ياما سال في صغري وأنا أجري وأسنان الكلاب الحادة تنهش أعقابي، وأنا أجري وأصرخ ملقيا بما في يدي من الحجارة، وما في رأسي من وصية أمي بأن أقف وأثبت، وأنني إذا جريت فسأغري الكلب بالجري من ورائي، وأن الكلب جبان لا يعض إلا الجبان، وأن... ما الفائدة؟ لقد كنت. لا أزال. أعاني عقدة من الكلاب لا تحلها الوصايا. الحل الأفضل هو أن أنتقل إلى الرصيف الآخر، وأترك للكلب. حتى يترك لي الكلب. المرور في سلام.

– (ولكن يا أمي، لماذا أنا، وحدي من دون الناس، أخاف من الكلاب؟

– لأن أول صوت سمعته هو نباحها، إذ لم تنقطع ليلة ولدتك عن النباح. خرجت خالتك عدة مرات في الظلام لترى من القادم. ولكنها لم تكن تجد أحدا. فقط الكلاب. كلابنا وكلاب الجيران. تنبح وتنبح وتنبح. لم تمسكت إلا مع الفجر حين صرخت بين يدي القابلة. كانت تنبحك أنت... وأنت

كنت القادم).

حين وصلت إلى شارع محمد الخامس، أمام المارشي سنطرال، كانت الطاكسي على أهبة الإقلاع. نبحني الكورتيبي، فأشرت برأسي أن نعم، وانحشرت بين الركاب: أسرة من الضجيج والصخب والحركة والغوات، الأب والأم. لا بد أنهما الأب والأم. اثنان. أما الأطفال فلم أستطع عدهم كلهم صغار: بين رضيع لا يكف عن الصياح وأطفال السنتين والأربع أو الخمس سنوات. وكل طفل يتعدد، بلسانه النشط وأعضائه الحرة المقتحمة، فيصبح. وحده. عدة أطفال. وأنا قابع في هامشي الضيق أحاول إغماض أذني بفتح عيني على محكمة الاستئناف في الخارج، لولا أنها تسرع إلى الوراء، على الأشجار... إلى الوراء، السيارات... إلى الوراء، محطة القطار... إلى الوراء، (شوكولاطة... شوكولاطة...) وانتبهت فزعا. فرأيت لوح الشوكولاطة بغلافه الذهبي تتخاطفه الأيدي الصغيرة النشطة... جيب سترتي الأيسر...؟ الفراغ. الأب والأم مشغولان بالرضيع، السائق بالطريق، الأطفال يمزقون الغلاف، ويتناهبون الشوكولاط بأسنانهم الحادة في تحفز حيواني نهم، وأنا أغمض عيني، وألقي برأسي إلى الوراء كالمنتحر... كالمستسلم للنحر، لا أحد ينتحر، ولكنه الاستسلام بعد اليأس، وإلا ماذا يمكن أن يعمله الواحد في هذه الحالة؟ (مجرد رملة... منحدر من الأرض مرمل، في أعلاه شجرة التين، وفي أسفله عين الماء. ولكن أبي ضربني هذا الصباح، وأنا خرجت إلى الرملة، وركبت الصبارة، كما كنا نفعل معا، أنا وأختي التي ماتت قبل شهر، وبدأت أتسرسب على الرمل. ولكن في بطء، إذ لا أحد معي، حتى أنني وقفت في منتصف المنحدر، وبدأت أنظر إلى حبات الرمل كأنما أراها لأول مرة: دقيقة وصلبة، ومتنوعة، وأنا الذي كنت أعتقد أنها متشابهة، حبات زرقاء... صفراء... سوداء... لامعة.

صغيرة جدا وصغيرة وكبيرة بعض الشيء. وتعيش بينها ومعها أمم أخرى من دقاق أوراق الشجر وأعواد التبن وفضلات البغال والحصى والكاغط والمسَّاك: (مساك) صغير جدا وجميل جدا وسلكه أليف جدا. كان مساكها الذي تعلق به بنيقة قشابتها الصفراء، والذي بحثت عنه طويلا قبل أن تموت، دون جدوى) نزلت من الطاكسي في الترمينوس، وتابعت طريقي المظلم والخالي نحو الموت، عفوا، نحو البيت، وفي رأسي ذلك الماء الذي يسيل في أودية غميقة تحيط بها أشجار العوسج الشائكة، وتلمع فيها تحت أشعة الشمس المتسللة حجارة خضراء كالذهب... كالذهب الأخضر. كم تبدو الطبيعة جميلة حين نكون حزانى (مشغولين عنها بالآلام التي نسببها لبعضنا): الصباح – العشب – الحيوانات – السماء – الحصى – التراب، كل شيء يبدو جميلا، وغريبا، خارجا عنا، ومفارقا لنا. لا بد أن الجمال شيء غير إنساني. الجمال ينتمي إلى الطبيعة. الحزن هو الذي. في المقابل – ينتمي إلى الثقافة... والكلاب؟ أليس صوت كلب هذا الذي أسمعه؟ انتبهت فوجدت نفسي في ساحة ضيقة لا أعرفها، تحيط بها العمارات من كل الجهات... من كل الجهات تقريبا، ما عدا الطريق الذي نفذت منه إليها، والذي يأتي منه النباح. الظلام شامل، فقط بعض الأضواء في نوافذ الأدوار العليا من العمارات. الكلب هناك، في المنفذ الضيق، ينبح. والظلام والجدران من حولي. وفي رأسي ماء. فلماذا أنا وحدي من دون الناس...؟

صياد النعام

كنت محصورا، لذلك لم أهتم: تركت المفاتيح في باب الكارسونير وأسرعت إلى التواليت. وحين رجعت، وجدت نفسي أمام الأمر الواقع: أحدهم أغلق الباب من الخارج، وأخذ المفاتيح معه. مزاح؟ لا أحد يمزح معي من الجيران. أصرخ؟ أدق الباب من الداخل؟ لا فائدة. هناك قانون غير مكتوب تسير عليه هذه العمارة: لا أحد يتدخل في شؤون الآخر. لا أحد يهتم بأحد. ولو وجدنا على الدرج جثة، لمررنا بجانبها في صمت ولا مبالاة. فقط قد نسرع الخطو قليلا، لنهرب إلى الشارع حيث الناس أكثر، أي حيث لا أحد، أو إلى بيوتنا الضيقة التي تتألف منها هذه العمارة الأرخبيل: جزر صغيرة متجاورة، ولكن المياه بينها عميقة الغور، وفي قيعانها ترقد عشرات التماسيح هادئة ساكنة تتربص بالفضوليين.

في غرفتي الضيقة: من الباب الخارجي إلى باب الحمام، ومن باب الحمام إلى النافذة المفتوحة الضاجة بأصوات ودخان الحافلات: قفص مثلث الأضلاع. وفي الخارج عالم الدخان والحديد والزفت يتفرج على الحيوان

المحبوس، ويقهقه (من الشاكمات) ساخرا. تخيلت أني أسرع في الشارع، وأقف أمام الطاكسيفون وأتلفن لسعيد بأني محبوس في غرفتي، وأن عليه أن يلحقني بسرعة، ومعه نجار.

— «ولكن من أين تتكلم؟».

لا فائدة، لو كان عندي هنا تلفون.

لنتخيل أنه أتى يزورني؟... ولكنه لن يأتي قبل نهاية الأسبوع. أو أن تأتي المحامية؟ تتذكر (دوك الفعايل) وتحن إليها فتتناسى الخصام الأخير وتأتي لتصالحني؟.. هيهات. مرت بضعة شهور ولابد أنها استبدلت بك آخر أو آخرين.

إنه نوع من القتل المتعمد، وأنا أتهم العالم كله. وفوق ذلك، هذا الحذاء، اخلعه، والجوارب. والآن: قدمك اليمنى على كرسي المكتب: الخدش في ظاهر القدم متقيح. القطن. الكحول. التطهير. للذع الكحول لذة مازوشية.

أحمل الكرسي وأدخل التواليت، أغلق الباب بصعوبة بعد إدخال الكرسي فالتواليت ضيق جدا. أجلس على مقعد التواليت، وأمد رجلي .كرجل أعمال أمريكي . على الكرسي الخشبي. فوق رأسي صندوق الماء، وأمامي الأدراج الخشبية المغبرة: في الدرج الأسفل كتبي المدرسية القديمة، ومحاولاتي الأدبية المنسية، وفي درج أعلى الروايات البوليسية. ثم الدواوين الشعرية وأخيرا المجلات الفنية. وعلى ظهر الباب الخشبي صورة كبيرة لرومي شنايدر وهي تبتسم ابتسامتها الملغزة، الملغزة أكثر من ابتسامة الموناليزا. هي في منتهى البراءة والمرح إذا وضعت غطاء على باقي الوجه، ولكن العينين فيهما حزن عميق عمق الحزن الذي عرفته الإنسانية في تاريخها كله. لماذا لا يوجد قليل من هذا الحزن في عيون الممثلات العربيات؟ البكاء فقط. وما هو البكاء؟ مجرد كوب من

الضعف ينهرق. أما الألم، فبئر عميقة الغور لا يرى منها في عيون الأقوياء إلا دمعة تترقرق هناك، هادئة باردة بعيدة... ومؤثرة.

(وا... واع... واع) صوت طفل يصرخ في إحدى جزر الأرخبيل... أمي وجارتنا العجوز التي كنت أسميها أمي أيضا لأنها القابلة التي «سقطت» على يديها إلى هذه الحياة «الدنيا»، هما معا حملتاني إلى ضريح «سيدي الطاهر»، تركتاني مطروحا على تراب الضريح البارد اللين وخرجتا وأغلقتا الباب وراءهما: في الجو انتظار متوتر كأن هناك وحشا يوشك أن ينقض، وأنا (واع... واع... واع) ولا أم تسمعني، لا الأم التي أرسلتني ولا الأم التي استقبلتني. فقط الوحش.. الوحش الصغير هناك.. على حائط الضريح المقابل: وزغة... بذنب طويل لا أرى نهايته الدقيقة في الغبش المترب المغبر، والعينان فارزتان والبطن مكتنز ناصع البياض. وهي تتحرك بسرعة، ولمساحة صغيرة ثم تقف. تجمد تماما كأنها جزء من المحيط المغبر، وأنا أكف عن البكاء، وأحدق في الوزغة جاحظ العينين من الدهشة، ثم أنصرف عنها و(واع... واع... واع) ثم أراها من جديد، فأكف وأحدق. وهي تسير قليلا ثم تحس بنظراتي فتقف وتحدق. كنت وإياها في منافسة غريبة: حين أبكي، تتحرك، وحين أصمت، تسكن تماما، ويقف العالم كله صامتا ساكنا باذخ الإثارات كخيط من حرير يربط بين عيني الجاحظتين وعينيها الفارزتين: عينيها اللتين أراهما الآن بوضوح كما لو كنت قد صورتهما بالفيديو في ذاكرتي: عينان حافلتان باللامبالاة، اللامبالاة القاسية المتوحشة النهائية التي لا تقبل التراجع أو الإقالة أو التريث أو التفكير. كلامبالاة الحجر والخشب والحديد والأمهات اللواتي أضجعن أطفالهن الصغار الأحياء بين الموتى، وأغلقن القبر من الخارج، وذهبن إلى شؤونهن النسوية.

لذلك، ربما، أنجذب نحو العيون البارزة، ونحو الخال، نحو «حفرة الزين»، ونحو كل علامة فارقة في الوجه الأنثوي، علامة لافتة تعطي للوجه خصوصيته واستقلاليته، وبالتالي لا مبالاته بالآخرين... نحو هذه اللامبالاة أنجذب. تغريني بغزوها، بفتحها بإرغامها على المبالاة.

ولذلك فتحت ذات يوم في الزمن البعيد كتاب (الرحمة في الطب والحكمة) وكتبت منه بماء الزعفران، على قطعة سكر، اسم المرأة ذات الخال واسم أمها و(جدول المحبة)، وأعطيتها قطعة السكر المكتوبة، في خلوة، لتأكلها.. فابتسمت ساخرة من الطفل العاشق وهي تقول: «لا تحتاج إلى كل هذا يا صغيري، سأطرق عليك الباب ليلا، وأعلمك المحبة كيف تكون».

وجاءت (معلمتي) في غيهب الغسق، وباتت تعلمني حتى أذن الفجر، فغطتني جيدا وراحت إلى بيتها. ولذلك ألهبني الهلال الصغير على الشفة العليا للمحامية (أثر جرح قديم) لا أهمية للون الوجه الوردي، ولا للبشرة الماصة كالإسفنج (أحيانا تبرز فوقها تجعيدات صغيرة ورقيقة كالشعرات، وأحيانا تنفتح مسامها وتنبض كتضاريس القمر الشهية) لا أهمية لكل ذلك، ولكنه الهلال الصغير (مفتاح الحياة)، الذي ربط بيننا هذه المدة الطويلة رغم كثرة الخصامات، ورغم لسانها العصبي الذي لا يسكن أبدا.. أنا لا أعرف لماذا تتكلم المرأة؟ الحقيقة أنها لا تتكلم... مجرد أصوات ملساء... دعها تنزلق على صفحة أذنك، وأجبها بأصوات ملساء مماثلة، التعامل الوحيد المعقول مع لسان المرأة هو أن تمصه، ولذلك خلق.

أقف، أخرج من التواليت. الثلاجة، عصير البرتقال، التواليت مرة أخرى. (لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق) لذلك ضقت سياسيا، وأنا بعد تلميذ، فانتميت. ولذلك سحبوني من العالم الواسع في ذلك

الزمن البعيد، وحشروني في زنزانة. ورغم ضيقها علينا نحن الرفاق الستة، فقد وسعناها بالأغاني. في الليل. وبعد انسحاب الضباط والمفتشين والموظفين من الكوميسارية، كان حراس الليل يتسامحون. وقد يتفضل بعضهم بشراء السجائر لنا. وأحيانا حتى بالشاي. وحينئذ نتناسى عذاب التحقيق في النهار، وينطلق صوت المكي بأغاني المغرب الشرقي:

«وركبت علي (عين زورا) واشوش خاطري وشحال بكيت»

«ما يباشي بلادي... بيا غزالي اللي أنا خلّيت...»

ولكن صوت العلمي هو الذي كنا نحب سماعه: ضحكنا حين سمعناه يغني لأول مرة (على بلدي المحبوب)، للمفارقة بين صوته الخشن الغليظ وبين ما نتذكره من صوت أم كلثوم الرفيع الحاد (في هذه الأغنية بالذات). ولكننا مع الوقت... أحببنا صوته، بل ربما وجدناه أجمل وأعمق من صوت أم كلثوم. أصبح في صوته الخشن الغليظ، مع الزمن، رقة ونداوة كدمعة أسد. ربما لأننا سمعناه كثيرا (والتكرار سكَّرُ الصوت). أو ربما لأنه كان محملا بحنينه إلى الخارج، إلى الحرية، وإلى الأحباب... أو هو حنيننا نحن؟

في تلك الزنزانة الضيقة، أصبحت أديبا، وبالقلم الذي تدبره الرفاق لكتابة رسالة يهربونها إلى التلاميذ بالخارج لحثهم على القيام بإضراب غير محدود من أجل الإفراج عنا.. بذلك القلم نفسه كتبت قصة صغيرة قرأتها على الرفاق، فاتهموني بأني بورجوازي صغير يكتب عن الحب، لا عن الشعب. فكففت عن الكتابة، وطويت القصة المجهضة. وها هي ذي ترقد هناك، في درج خشبي منسي، في زنزانة أضيق من الزنزانة التي كتبت فيها.

أتناول القصة المودعة في غلاف قديم مغلق مكتوب على ظهره: «العصفور على الشجرة، ولا شيء في اليد».

أنتبه إلى غرابة وضعي، وأقول لي: لم أر أحمق منك: تجلس على مقعد التواليت، وتضع رجليك ممدودتين على كرسي خشبي، وتشرب عصير البرتقال، وتجتر الماضي، عجيب.

فأرد علي: العجب منك أنت، إذ تحمل حتفك بيدك ولا تدري. ولأني أعرف قصة صحيفة المتلمس، أفتح الغلاف، وأقرأ قصتي:

العصفور على الشجرة ولا شيء في اليد

I

«قال أبي: ينبغي أن نتركه يلعب حتى المساء.

وقال عمي: ولكن ينبغي أن نعطيه شريحة الخبز بالزبدة، لأنه يحبها.

وقال خالي: تماما، وأن ندعو زهرة لكي تلعب معه.

وفي تلك الأثناء، كنت / أنا الذي يتحدثون عنه / منهمكا في جر شاحنتي البلاستيك. متجها نحو المدينة. لأبيع البطيخ. ولكني كنت أسمع ما يقولون... متظاهرا باستغراقي في اللعب. وزيادة في التظاهر رفعت صوتي بزفير الشاحنة وأنا أتخيل زهرة تركب إلى جانبي في المقصورة، وهي تضحك بسنها المكسورة التي قالت أمي إن السكر هو الذي أكل منها.. ولكن أمي كانت تمزح طبعا، فالسكر لا يأكل أسنان الأطفال، بل أسنان الأطفال هي التي تأكل السكر.. زهرة تقول إنها رأت عند أخوالها سيارات من الحلوى يلعب بها الأطفال حتى يشبعوا ثم يأكلونها. في الحقيقة أنا أحب الحلويات كثيرا، وأحب بالطبع الخبز بالزبدة، ولكن الذي أحبه أكثر هو اللعب مع زهرة. لذلك محوت من خيالي

أبي وعمي وخالي (إنهم كبار السن قساة، ويستحيل أن يقولوا ما تخيلت أنهم قالوه) واستدعيت زهرة. فجلست إلى جانبي وأخرجت عروستها، ألقت علي نظرة خاطفة، ثم وضعت العروسة فوق البطيخ في صحن الشاحنة، وقالت لي: «تعال نهرب إلى المدينة».

ابتسمت لفكرتي التي أصبحت فكرتها... ركبنا الشاحنة، وأسرعنا إلى المدينة، مخلفين وراءنا الغبار... والكبار.

II

ما أجمل أن يكتشف الإنسان جسدا، جسدا حقيقيا، يشع كالماسة بعشرات اللحظات الهاربة من العمر: يوزعها ويستدعيها، يكثفها ويُذَرِّيها، ويحتفظ بها حية دائما وطازجة دائما، لا تشيخ ولا تموت، ولا تمحي. قد يكون هذا الجسد الكنز حجرا أو نبعا أو سنبلة أو شجرة عرعر. أما أنا فقد اكتشفت حبة عرعر، رأيتها أولا وسط الأوراق الصنوبرية الدقيقة الحادة الرؤوس كالإبر: زرقاء/خضراء، مستديرة صغيرة في حجم بيض الطيور، تستقر في قاع العالم وتجتر غذاءها المزيج من حفيف الريح وشذى الزهر وضوء الشمس ورفرفات الأجنحة.

وقفت مشدوها كالأمير الصغير.

وأخيرا دجنتها، وحملتها في جيبي، لابد أن بداخلها لبا صغيرا أبيض، سأسميه (زهرة)، وسأحتفظ به حتى أشيخ، فأحك بضع ذرات منه في كأس الشاي كل يوم، وأشرب مغمضا عيني على شمس الصباح الطالع نصفها من الأفق البعيد: حمراء حلوة محبوبة حية حُلمية: حاءٌ طفلة تتقافز على الحبل بجديلتها الطائرة خلف ظهرها، وصندلها الأحمر، وصوتها الرفيع الحاد كأنما

يخرج من وتر صوتي واحد، وأنا لا جسم لي، مجرد عين، مجرد نظرة عين، نظرة عين مغمضة.

III

كأنني واقف على حافة حفرة. وكأن الحفرة واسعة ومليئة حتى منتصفها بقمامة المدينة. وكأن هناك، في الأسفل، وسط القمامة، شيئا يلمع. مرآة؟ صفيحة ألومنيوم؟ زجاجة موناداا؟ يلمع كأنما تحت أشعة الشمس مع أن الدنيا ليل، وحتى القمر محتجب خلف الغيوم. ما أن انتبهت إلى الليل حتى داخلني الخوف، وترددت في الهبوط لاكتشاف طبيعة ذلك الشيء الذي يلمع. الغريب أنه هو، بدأ يصعد. يصعد كما لو كان طافيا فوق بحيرة، وكما لو كانت البحيرة في حالة مد، فهو يقترب ثم يبتعد، ولكنه يتصاعد دائما، وتدفعه الموجة تلو الأخرى نحوي، وأنا أتبين ملامحه شيئا فشيئا... وفجأة أكتشف أنه وجه (زهرة): الوجه نفسه بحروفه الدقيقة نفسها، بشعرها البليل كأنما غسلته للتو، وشفتيها الرقيقتين النديتين، وعينيها الواسعتين كما لو من الدهشة لوجودي هنا. إنني أدرك أنها مجرد صورة لها، ولكني أرى الوجه المندهش حيا متحركا يكاد ينطق اسمي لولا خوفه. مم يخاف؟ أنا أيضا أحسست بالخوف، أحسست أنني سأموت فورا إذا نطقت اسمي. وفي غمرة هذا المزيج المركب من الإحساسات: الرغبة في رؤيتها والخوف من نطقها اسمي، والخوف من الليل ومن القمامة، والرغبة المزدوجة في زهرة، وفي البقاء وحيدا في نفس الوقت . في غمرة ذلك كله، سمعت صوتا آتيا من القمامة في قاع الحفرة: صوتا يشبه صوت أبي... صوت أبي في كهولته، قبل أن يشيخ ويهرم، صوته الخشن الصارم والواثق الذي يتحدث عن الغد جازما كأنما يخبر

عن أمس: (زهرة أو الحياة). هذا كل ما قاله، ولكن كأنما ينقل إلي عن حاسة مجهولة: تأويل كلامه، فأفهم أنه يعني بالحياة: كل طموحاتي.. كل أحلامي في السفر وفي المعرفة وفي الإبداع... ورغباتي العميقة في أن يقبلني الناس في كل مكان، ويحبوني، ويشركوني في ألوان حياتهم المختلفة. أفهم أنه يعني بالحياة: الكلمات التي أحلم بصياغتها للتعبير عن هذا كله، أو للتعويض عن هذا كله. وأفهم أنه يعني بـ (زهرة): زهرة وحدها بدون العالم، بدون حياة، (زهرة) مقطوفة.

هززت رأسي رافضا... ربما كنت في العمق أرفض هذا الاختيار الظالم بين أمرين كلاهما حلو. ولكني كنت أعي أن ما سيفهمه من رفضي هو رفض زهرة... لذلك أخذ الوجه اللامع يتراجع ويهبط قليلا قليلا كما لو كانت البحيرة في حالة جزر. وقبيل أن يغيب، قبيل أن يغيب مباشرة وكأنما غيابه هو الذي تكلم، سمعت صوتا صغيرا حادا ومحتجا كأنما هو صوتي وأنا بعد طفل في الخامسة أحتج على تركهم لي أمام الفقيه في الجامع لأول مرة... صوتا يقول مرتجفا من بشاعة الظلم «ولكن الحياة... هي زهرة».

من فم حسن التقطت اسم (زهرة) الوارد في القصة. كان يتغنى به دائما، مع ذلك فلم تعجبه القصة.. ذلك لأنه لم يكن مرتبطا بأية (زهرة) في الحياة. كان فقط يردد ما سمعه من الأغاني، ويردده في شكل خطي مسترسل كأنما يقرأ القرآن بالطريقة المغربية القديمة:

«نبدا قولي بالزّايْ: زهرة ركبت التّْرَانْ، تْرانْ الزمان، اللِّي ما عَنْدو قْرانْ».

أما أنا فأركب خيالي، وأسافر إلى كل الساحات والآفاق الفسيحة في العالم، ولكن شريطة أن أكون في مكان ضيق.. لماذا أولع بالزوايا والممرات والعلب والصناديق والغرف الضيقة؟ بينما يولع خيالي بالآفاق والسماوات؟

هل يمكن أن يعشق الإنسان مكانا؟ وعشقا مقدسا أيضا؟ مكانا لا يهم كيف يكون، قد لا يكون جميلا ولا رحبا ولا متميزا عما حوله، قد يكون مجرد حافة حفرة في ظاهر المدينة تُرمَى فيها القمامة، ولكننا نهرب إليه من الناس، ونخلو فيه بأنفسنا لنتأمل (كلا، كنت أصغر من التأمل)، لنحلم، أو حتى لننظر في فرحنا الخاص، أو حبنا الخاص، أو عبقريتنا الخاصة: كنت أنظر طويلا في مرآة الحلاق إلى عرق أزرق في جبهتي، وأسميه «عرق العبقرية»، للأسف انطفأ الآن، وغطته التجاعيد، أو ربما عَرّته، إذ كان جماله وما يوحي به من عمق ناتجا عن أن الشعر كان يغطي كل ما حوله، يغطي منبثقه من الجمجمة فلا يكاد يبين بوضوح إلا في مرآة الحلاق الذي يحصد ما حوله ويبرزه بالتدريج ولكني أصبحت أصلع الآن).

في ذلك المكان: (حافة الحفرة) كنت أنكب على مشاعري الداخلية، وأتفحصها مغمض العينين كما يتلمس شحاذ أعمى، في الليل، كنزه الخاص، مشاعر قليلة وفقيرة وصغيرة، ولكنها نفيسة غالية... وأنا أيضا كانت لي زهرتي يومئذ... ولكنها كانت تتقدم نحوي دائما ولا تصل.. تخطو إلي كأنما في شاشة سينمائية.. مقبلة علي، مبتسمة لي، تسير باستمرار، ولا تتخطى مكانها أبدا إلى حبيبها الجالس في القاعة مثلما فعلت (زهرة القاهرة).

وها أنذا في آخر العمر لا أزال جالسا في نفس القاعة، لا أصل إلى شيء، ولا يصل إلي أحد.

ماذا يهم إذا خسرت العالم. لقد ربحت نفسي.. نفسي.. نف...


ققنس

تعبير الرؤيا

1. الحلم:

رأيتُني أعمى، تحت المطر. كنتُ شخصين اثنين: الرائي والمرئي. الرائي قابع خلف المشهد يَرى كل شيء ولا يُرى، والمرئي سائر أمامه يتخبط تحت المطر، أعمى، لا يرى شيئا ولكنه يتقدم، وهو يحس بهذا المطر الهاطل دافئا لا باردا، لنقُل: فاترا، فاتراً في درجة حرارته، وفاترا في أثره في الحس معا، يتساقط بغزارة فوق رأسه فيلبد شعره، ويتسرب على جسده، وينفذ تحت ما لعله كان قميصا... نعم، هو قميص، ولكن كأنه ليس هذا النوع الحديث من القمصان الذي يلبسه الناس اليوم، كأنما هو «شامير» تنقفل عروته الوحيدة في جانب العنق على الكتف وليس على الصدر، وفتحة الشامير على الكتف تمتص ماء المطر وتوزعه على الظهر والبطن، وكأنه ماء أسود، يراه الشخص القابع أسود، ويحس به الشخص المتحرك أسود حتى دون أن يراه، كأنما هو ماء طين لا ماء مطر، ماء له لون أسود، وله صوت كالفحيح، وينساب متلويا كانسياب الثعابين، ينساب حتى يصل الفخذين، ويلوب كالرغبة العطشى حول عضوه

التناسلي الذي ينتعش وينتصب.

تمسك بيده يد لا يراها، كأنما لتقوده نحو هدف ما، يد رخصة لينة، منقوشة. يحس. بالحناء، يد حمراء. ويسمع في نفس الوقت شخصا يقول: «مخضوب البنان»[1]. وكأنما ليس شخصا آخر خارجه يقول ذلك، كأنما هو يقوله أو شخص داخله يقوله.

المطر يلح على اليدين المتعانقتين حتى ليكاد يمحو الحناء من الكف المخضوبة، ولكنها لا تمحي، كأنما تمتح حمرتها من طاقة داخلية لا تنضب، بل تلون المطر الأسود حتى يصبح هو الآخر أحمر.

ثم أراني فجأة طفلا صغيرا يجري ليختبئ من المطر، أدخل دار«بوراسين» جار جدي في «العروبية»:

بوراسين وجدي يتحدثان حول النار، ابنتا بوراسين تسرعان بثوب تجففان به شعري ووجهي، أجلس بين البنتين: الشقراء والسمراء. شقراء؟ ليس تماما، (زعراء)، وبياض ساعديها الخارجين من الأكمام وركبتيها اللتين تتعمدان لمس ساعده الأيمن بين الحين والحين، وأختها السمراء بشعرها الأسود الغزير الثقيل (ثقيل بالنسبة لخفة شعر أختها): كأن الشقراء تحمل الأزهار والسمراء تحمل الثمار.

كنت أجلس بجنب الشقراء وأنا أقول في نفسي: «ذهبي الشعر»(2)، وأختها السمراء تنادي عليها لتكلم أمها، فتقوم بعد لأي وهي «منرفزة»، لتأتي السمراء وتجلس مكانها، ولتحكي، ليس كأختها بصخب، وعن الأخريات، بل بهمس، وعن نفسها، ولكنها ثقيلة نوعا ما... كالزيت فوق الماء.

وأنا أقترب لأسمع، فتتباعد، وتقول فيما أحسب: إنها تنسج الزرابي أو تطرز القفاطين أو تدرز العقيق في عقود أو تفلي رأس أخيها الصغير أو تضفر

الحلفاء أو تنقي القمح أو تفتل الكسكسو أو تحلب الماعز.... أو أشياء من هذا القبيل، أو أشياء هذا القبيل كلها (قبيل الأصابع وصنائعها التقليدية).

وتعود أختها لتنهرها وتطردها (مع أن السمراء هي الأكبر)، وتجلس لتتابع حديثها معي عن الحب (عن الحب؟ أو عن العطر؟ أو عن العرس؟....). بل عن الحب. كنت أسمعها تقول إنها تحبني أو إنها لا تحبني، أحسست أنها تقول الجملتين معا في وقت واحد، وهي تنظر إلي ساخرة العينين حادة الشفتين، وأبوها يتابع الحديث مع جدي عن أنه ليس سهلا، وأن بناته أشرف البنات، وأن أي واحد لو تجرأ على بنته الشقراء هذه «التي تتحدث مع حفيدك هناك، لقطعت رأسه»، أو قال أنفه؟

وكأنما يُسمعني، وكأنما يعنيني، وكأنني محتار في موقفه المزدوج: يحرضني ويحذرني معا، فأعتذر بسرعة وأقول: إنني مضطر للرجوع إلى دار جدي لأمر ما (لم أفصح عنه حينها أو لا أذكره الآن).

وكما لو أردت إظهار المودة والاحترام لبوراسين، بالغت في تحيته. وهكذا حين مد لي يده (أنا واقف وهو جالس) انحنيت عليه لأقبل رأسه، فقام نصف قيام وهو خجل مرتبك، فسقط طربوشه (طربوش وطني مستدير السطح لا مشقوقه، وفي وسطه حفرة صغيرة)، والعجب أن رأسه العاري المحلوق كليا، بدا ـ بعد أن سقط عنه الطربوش ـ وكأنه طربوش آخر، في وسطه حفرة. وكأنه خجل من انفضاح طربشة رأسه، وكأني أكثر خجلا منه لكوني سببت له هذه الفضيحة، واختلط خجلي من ذلك بدهشتي من كونه يلبس الطربوش وأنا أعرف أنه يلبس العمامة دائما(3).

في الطريق إلى دار جدي كان ثلاثة شبان يسدون الطريق: أحدهم بجلباب مخطط، على وجهه علامات الاستهتار ولامبالاة المجانين: بشفاهه الغليظة،

وعينيه المسطحتين، بدون أغوار. والثاني هو الذي أثار الشك في نفسي، فقد كان وجهه واسعا (قميصه نظيف. أزرق؟ أخضر؟ كاكي؟)، ولحيته مشذبة حول الفم، وعيناه واسعتان سوداوان عميقتان مثل كاسترو(4). هل هم سياسيون؟ والثالث نحيف عصبي، وهو يقفز هنا وهناك في طيش واستمتاع مريض بالحركة وبالفريسة معا.

كلا. إنهم قطاع طرق، لصوص ببساطة. متى بدأ اللصوص يظهرون هنا؟ إن في جيبه بعض الدراهم: خمسون، وخمسة عشر في الجيب الآخر، ولكنها دراهم يحتاجها للعودة بأمه إلى المدينة. ماذا يفعل؟

وهاهم يسخرون منه، ويشيرون في سخرياتهم إلى ما في جيبه، وهو يقول لهم إن من الأحسن أن يبعثوا معه بأحدهم إلى دار جده، وسيعطيهم كل ما يملك من دراهمه الموجودة هناك. وبينه وبينهم مسافة لا تزال، وهو يستطيع الهرب لو شاء، وهو يهرب فعلا، ولكن سيره يتسم بطابع حيواني، كأنه فيل هارب أو ديناصور: يقتلع قدميه من الأرض بصعوبة. وزاد الطين بلة ووحلا هذا المطر الذي عاد إلى السقوط بغزارة، والذي أخذ يكعبل قدميه ويلطم خديه ويضبب الرؤية أمام عينيه، حتى ليحس بعبث الجري، فهم طبعا سيلحقونه، ولكنه يعتمد على حتمية قدرية في الإفلات، لأنه أخذ يعي بشكل ما أنه يحلم، وأنه في هذه الثانية أو التي تليها سيفيق، وسينجو.

وأثناء اقترابه من دار جده في حركة أشبه بحركة السينما البطيئة يأمر النساء والصبيان بالدخول وإغلاق الأبواب، يأمرهم بإشارات يده فقط، فنفسه المتلاحق والمتقطع لا يسمح له بالكلام، ولكنهم يفهمون، وكأن الوقت وقت «سيبة»، تكفي إشارة هلعة صغيرة لبث الرعب وإغلاق الأبواب.

ويصل، ويدخل من أحد الأبواب فيجد أمه، ويخاطبها قائلا في بساطة

مسرعة، وفي لامبالاة تعمدها ليوحي بتلقائية وعفوية وشجاعة الدفاع عنها: «هاتي ساطورا» (أو قال قدوما؟ أو مقدة؟). وأمه ترضى منه ذلك وتَقبَله (بل وتبسم له، ولكن في لامبالاة العارفة بنقاط ضعفه أو المستغنية عن هذا الدفاع أو اليائسة).

ويقبل أحدهم (كاسترو) كما لو على دراجة نارية، وقبيل وصول الدراجة العدوة إلى الباب المغلق، تظهر أخته المتخلفة عقليا، وبالطبع يفتح لها الباب لتدخل، فيدخل كاسترو بسرعة في أثرها، لم تأت القدوم بعد، ولكن حمدا لله، هاهي ذي عصا غليظة، حتى ولو كانت من خشب منخور، وهو يستطيع الدفاع بها، يستطيع مفاجأة خصمه، وضربه على وجهه بالعصا، وما دام قد جاء وحده فسينتهي منه بسرعة، ولكن كاسترو يتفادى الضربة بمهارة وهو يضحك، ثم يتقدم إلى الداخل من باب ضيق... يدخل، يدخل إلى حيث الغالي والنفيس، إلى حيث الحُرم، إلى حيث الخالات والأخوات، إلى حيث الأم (الحمقاء التي لم تفر إلى أعماق الدار الداخلية، وبقيت تراقب من نافذتها المستطيلة).

ويقبض كاسترو على يد أمه ويعضها (كأنه مكلوب)، (اليسرى أم اليمنى؟). أمه بعد العضة تبدو مستسلمة ناعسة: تصعد إلى إفريز نافذتها المستطيلة الواسعة، وتنام عليه واضعة يديها كلتيهما تحت خدها الصغير.

يخرج كاسترو إليه الآن، ليصفيه لا بد، ولكنه حين يرى ما وقع لأمه يكون قد غلى كقدر، ويهجم على صاحبه بيديه المجردتين دون أداة، يغمره غضب أبيض كالحديد المحمى، ويأس شامل كالماء الداكن حول الغريق، ويقبض بيديه العاريتين على عنق خصمه وهو يصرخ صرخة (طرزانية؟ أو كلبية؟)، صرخة طويلة كعواء كلب متنبيء، عواء طويل طويل، حزين حزين، مخيف مخيف.

وتمر في ذهنه أثناء هذه الصرخة ـ وفي ذهن خصمه أيضا ـ يحس ـ صور كصور شريط سينمائي تطالعه أمامك، تقبض على الشريط بيديك وتستعرض لقطاته، صور متقطعة: صور تعذيب سياسي تعرض له من قبل (وتعرض له خصمه أيضا)، الصرخة أشبه بشفرة لغوية يقول مدلولها إن القاتل والمقتول ذوا قرابة.

ولكن الوقت كان قد فات، وخصمه أصبح جثة هامدة.

القاتل شُفي (من خوفه؟ من تعقله؟ طموحه؟ يأسه؟)، ولكن الرفيق المكتشف أثناء الصرخة كان قد قُتل، والأم البريئة كانت قد أصيبت.

2. الهوامش:

1. مخضوب البنان: كان في ذهني، وأنا أسمع هذه الكلمة في الحلم، قصة قديمة مع أستاذ الأدب العربي بالجامعة. كنا طلبة ندعي الانتماء إلى اليسار، وكنا نستغل أي فرصة للسخرية من الأساتذة اليمينيين. وحين درس لنا الأستاذ بيتي كثيّر:

أجمع رأينا على أن «يمين» في بيت كثيّر لا تعني الحلف كما يقول الأستاذ، بل تعني مقابل اليسار، وأن غرض الشاعر هو أن يقول: إن النساء يساريات بطبعهن، وإن الثقافة ـ وهي حينئذ وإلى اليوم ثقافة الرجل ـ هي التي تحكم عليهن بأن يكن يمينيات، وإن الحناء الحمراء هي تعبيرهن العفوي عن طبعهن اليساري، وخرجت زميلاتنا في الفصل بقانون أنتربولوجي من المناقشة يقول: «المرأة يسارية الطبيعة، يمينية الثقافة».

2. ذهبي الشعر: كنا نسمع ذات مرة عبد الوهاب يغني: «ذهبي الشعر

شرقي السمات»، فتساءل أحد الأصدقاء في دهشة: «كيف يكون شرقي السمات، وذهبي الشعر؟». وأذكر أن الآخرين كانوا يردون ساخرين: «إن من الشعَر لشعْرا»، أو «إن شعَر الشعْر شعْري»، أو «إن الشعْر نبوءة، وإن الشرق سيعيد ترتيب حروفه في القرن المقبل، ويصبح أشقر»...إلخ.

3. بوراسين: كنت، وأنا طفل صغير، أنظر إلى رأسه متعجبا، وأتساءل: لماذا يسمونه بوراسين؟ وكان أحيانا ينزع العمامة بيسراه ليحك رأسه باليمنى، فأقترب بسرعة لأنظر إلى هذه الرأس عارية، ولكنه كان يعيد العمامة دائما قبل أن أرى الرأس كلها، مما جعلني أتخيل دائما أن في وسط رأسه شيئا ما (رأسا أخرى، مثلا).

4. كاسترو: كنت دائما معجبا بكاسترو، بوجهه العريض، ولحيته الصافية، وبعينيه السوداوين العميقتي الغور. ولست أدري لماذا كان يختلط في ذهني دائما بعمر بن الخطاب وقطري بن الفجاءة؟ ربما لأن اللحية توحي بالأسلاف، بالاحترام، بالعظمة الكلاسيكية، وحتى بالطوباوية. وربما لأن أفكار أوكتافيو باث عن الثقافة الأمريكولاتينية واختلافها عن الثقافة الغربية بحكم تأثير الحضارات الهندية ما قبل الكولومبية والحضارة الإسلامية الأندلسية، هذه الأفكار، قربت كاسترو وقديسي أمريكا الجنوبية في ذهني من قديسي الثقافة الإسلامية.

ولكن الوجه الكاستروي في الحلم بدا معاديا، ولذلك أثار الشك في نفسي، فكأنه وجه مزيف، كأن وجهه كله (لحية وعينين وحاجبين...) قناع مغرض يسرق به الثقة، كأنه وجه راسبوتين: غيب يغتال الشهادة، ماض يسرق الحاضر، رؤيا تضبب الرؤية، أو أسطورة تعوق الحداثة.

3. التعبير:

1. ابن سيرين:

الماء في الحلم خصب وغنى.

الطفل والبنتان شباب.

العمى غي وضلال.

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

لكن اللصوص أولياء الله.

والقتل هداية ورشاد.

الحالم شاب غني فاسد، يقيض الله له أولياء يهدونه السراط المستقيم، فلا يموت إلا وهو مسلم صالح إن شاء الله.

2. فرويد: للحلم ثلاث بُنى:

. بنية فوقية عليا هي حمرة الخجل، وعمى العين عن ارتكاب المحرمات، وقتل الآثم.

– وبنية تحتية عميقة توحي بأن الحالم هو الرائي أيضا وليس المرئي فقط، هو اللص الذي عض الأم أيضا وليس ابنها فقط. هو إذن بوراسين، ورغبته التي يحلم بتحقيقها هي أن يكون واحدا.

– وللحلم بنية ثالثة أعمق لا يمكن تفسيرها: «إن في كل حلم مستوى ينتهي عنده التفسير، سُرة . إن جاز التعبير . تربط الحلم بالمجهول».

4. المجهول:

ماء كماء بحيرة نرسيس، وأنا أطل عليه، وأنظر إليه، وأحدق فيه، فلا أرى في الماء غير الماء.

قُقْنُس

1. الحلم:

أقف أمام كشك لبيع الجرائد والمجلات والكتب. أحسست بهذا رغم أن البائع كان قد جمع بضاعته فيما يبدو وهو على وشك الإغلاق. أسأله عن كتاب ما، كأنما هو «منطق الطير» أو «موسيقى الطيور» أو... آه تذكرت، كنت أسأله بالضبط عن كتاب «كيف تطير الموسيقى». وكنت حينها أفهم كلمة «تطير» بالمعنى الدارج النوعي: «تذهب أو ترحل أو تغيب أو تمحي». وكأن البائع فهم العنوان في شكل سؤال، فأخذ يجيب بإسهاب، وبكلمات تقنية خاصة لم أفهمها. قلت له إنني لا أسأل عن علم الموسيقى، بل عن الموسيقى نفسها. فأعطاني شريطا موسيقيا، وكأنه قد أصبح بائع أشرطة، وقال: استمع إلى هذا. أخذتُ الشريط، وقرأت في غلافه:

«موسيقى ققنس»(1)

«كونشرتو للبيانو»

«عزف أوركسترا لندن السامفونية»

«بإدارة السير كولين دافيس».

فجأة، وأنا لا أزال أقرأ غلاف الشريط، أحسست بأني أطير، أطير فوق الكشك، بين العمارات، أدخل من باب شرفة ضيقة، أطل. وأنا لا أزال محلقا. على شخص يكتب فوق مكتب. أكتشف فرحا أن الشخص هو «زهرة»(2).

تكتب ببطء، وعلى ضوء مصباح صغير لا يبدِّد من الظلام المحيط إلا رقعة محدودة على المكتب. أفكر في أن أضع يدي الإثنتين على أذنيها، وأسألها: من أنا؟ فأرى على أذنيها سماعتين، كأنما هي في أستوديو. ولكني أراها تكتب. تسمع وتكتب في نفس الوقت. أطل من فوق كتفيها لأقرأ ما تكتبه، فأسمعها تقول، والكلمات تنكتب تلقائيا على الورق كأنما تكتب بلسانها:

«أنت أيتها الشعاعة الصافية التي تسمى مُوزَارْتْ.

أنا سنابلك العطشانة اخترقيني

أريقيني في عنان الريح حتى الذوب واسقي بي وأسقيني

آه يا قبيلة الكمانات المجنونة أرجحيني

رنحيني، وافتحيني. ثمّتَ اجتاحيني

حان حيني».

وكنت خلال سماعي/رؤيتي للقراءة/الكتابة، ألتقط ذرات الموسيقى التي تسمعها ذرة ذرة. وكأنما في كفتي ميزان، كان صوت زهرة يخفت، وصوت الموسيقى يتصاعد، وأنا أغمض عيني، فأرى موجات من المياه تتعاقب وتتوالى ناشرة أعرافها البيضاء على حافات الوجدان.

مياه... مياه... مياه، وموسيقى، ورجل طويل أسود الوجه أبيض اللحية

حزين العينين ينبت لي على ضفة أم الربيع، فأسأله: من أنت؟ فيجيب مبتسما: «بيراجو ديوب»(3)، وأسمع جرسا يرن:

«قُقْنُسْ... قُقْنُسْ... قُقْنُسْ...».

تلفون؟ الباب؟ كلا، إنه جرس إنذار. يغمرني إحساس بالخطر الوشيك: خطر هائل وعام، يشبه الزلزال أو الطوفان أو الوباء أو الحرب العالمية أو قيام الساعة...

ولكن إحساسي غريب ومتوحد وسط حالة لامبالاة عامة من حولي، كأنما يدق الجرس لي وحدي، كأنما يدق تحت الماء، الجرس موجود، وحي، ويدق، ولكن لا أثر له، ولا ينبه أحدا، لا ينبه أحدا غيري، وأنا وسط المياه، والسيل بلغ التراقي.

الماء... في... فمي.

2. تعليقات الحالم:

1. «ققنس»: طائر أسطوري يقول عنه المعري:

«يزعمون أن هذا الطائر طائر حسن الصوت، وأنه كان في بلاد يونانية وَخِمة خرق الإسكندر إليها البحر فغلبت عليها أمواهه. ويزعمون أن هذا الطائر كان إذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام، حتى لا يمكن أحدا أن يسمع صوته، لأنه يغلب على قلبه من حسن ذلك الصوت ما يميت السامع، وأنه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح.

ويزعمون أن عامل الموسيقى من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت ققنس في تلك الحال، فخشي إن هجم عليه أن يقتله حسن صوته، فسد أذنيه سدا

محكما، ثم قرب إليه فجعل يفتح من أذنيه شيئا بعد شيء حتى استكمل فتح الأذنين في ثلاثة أيام، يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة، ولا يبغته حسنه في أول مرة فيأتي عليه.

ويزعمون أن ذلك الطائر هلك فلم يبق منه ولا من ولده شيء، وكأنهم يرون أن ماء البحر غشيَ ققنس ورهطه بالليل في الأوكار، فلم تبق له بقية.

وأهل الفلسفة يزعمون أن البلاد الوخمة يكون أهلها أصلح أفهاما من أهل البلاد الصحيحة، لأن الهواء إذا صح، والماء إذا كان نميرا، دعوا إلى شهوة الطعام، والاستكثار منه مضر بالفهم، وقد قال الأولون: البطنة تذهب الفطنة. ويقال إن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله، فتحوب من قتله بالسيف، فأعطاه قدحا فيه سم ليشربه، وأعلمه بذلك فظهرت منه مسرة وفرح، فقال له أصحابه: ما هذا أيها الحكيم؟ فقال: هل أعجز أن أكون مثل ققنس؟».

2. «زهرة»: شاعرة صديقة قصفها الموت في ريعان الشباب. كانت تحب موزارت، وتسميه ققنس، وكانت تحب البحر، وسيدي علي، ودراجتَها النارية التي جلبت حتفها في حادثة سير ذات صباح ممطر. لم تنشر شيئا، لأنها كانت تكتب الشعر لنفسها ولأصدقائها، ولم تكن تعجبها قصائدي. كنت أقول محتجا، وهي تلقي بها على الأرض:

– أنت لا تفهمين شيئا، أنا شاعر سوريالي.

وكانت تعلق ساخرة:

– سوريالي؟ لا بد أنك صحفت. أنت شاعر ساليري، أنت من نمط «ساليري» لا من نمط «موزارت». دائما مبدع «لاروبْ». ودائما تحسد المبدعين الحقيقيين. إني أخاف لو بقيت معك أن تقتلني ذات ليل، وبكأس

سم أيضا. أرجوك، أخبرني بذلك إذا فعلت. كم سيكون رائعا الجناز الذي سأكتبه حينئذ. سأقول مثلا:

«بحر من النار البعيدة يقترب

وأنا على الشط

والشمس في كبد السماء

كبدي على تلك السماء

وبدون ماء...».

ما رأيك؟

وماتت بعد يومين. لم أكن أحسدها كما كانت تظن. كنت أحبها، وأحب ما تحبه. بدقة: كنت أحب أن أحب ما تحبه. هل أحب الآن فعلا ما كانت تحبه؟ ولكنها كانت تحب الموت، وكانت تعيرني بأني مصاب بفوبيا الموت، وتقول: إن ذلك مؤسف، لأن الإبداع هو الموت، ولأن من يخاف من زوجته لن ينجب منها.

ألذلك أنا الآن عجوز عازب وعقيم؟

3. «بيراجو ديوب»: شاعر سينغالي، كنت قد قرأت له في اليوم السابق على الحلم قصيدة يقول فيها:

«استمع إلى صوت المياه

استمع في الريح، إلى الأشجار تبكي

هذه أنفاس الأسلاف

أولئك الذين ماتوا لم يرحلوا عنا، إنهم في العتمة التي تستضيء

وفي الظل المتكاثف

إنهم في الشجرة التي ترتجف

إنهم في الغابة التي تئن

إنهم في الماء المنساب...».

3. التفسير:

– المفسر الشاب:

الحلم تعبير عن فصام مزدوج يمزق ذات الحالم من جهة:

– بين الهوية والحرية: وهو وهم عقلي مفارق للواقع، إذ أن الحالم شبيه بذلك الرجل الذي سجل شكوى ضد زوجتيه يقول فيها: إنهما غيوران، وتحرضه كل واحدة على تطليق الأخرى، وإنهما تضعان له «السحور» في طعامه، وقد أصابه ذلك بعسر الهضم، وبأمراض باطنية أخرى، فإذا مات فهما قاتلتاه. وبعد البحث والتحقيق في الشكوى اكتُشف أن الرجل أعزب، وأن المرأتين اللتين شكا منهما إحداهما زوجة أبيه والأخرى زوجة جاره.

الواقع إذن أن الحالم لا هوية له، لأن الهوية تعني الاطمئنان، وهو قلق. ولا حرية له، لأن الحرية تعني القدرة، وهو عاجز.

والفصام المزدوج يمزق ذات الحالم من جهة أخرى:

– بين الإبداع والموت. وهي عقدة يمكن أن نسميها مؤقتا عقدة شهرزاد المقلوبة، لأنه يتخيل أن كل قصيدة يكتبها تقربه من الموت.

لذلك لا يستطيع كتابة الشعر، ولذلك يدق الجرسُ في أذنه باستمرار معلنا حلول الفجر، وأن عليه أن يسكت عن الكلام المباح، مع أنه لم يتكلم قط.

أقترح العلاج السايكودرامي. وأقترح بالتحديد دور «هاملت». فإذا أدى

المريض هذا الدور مرتين في الأسبوع، أداء فرديا في العيادة، بدون خشبة، وبدون ممثلين، وبدون الفصل الأخير، ساعده ذلك على تفريغ انفعالاته، وبالتالي على الوعي بواقعه الصفر.

– المفسر الشيخ:

يحكى أن طبيبا اسمه تشيخوف، كتب ذات يوم قصة يتخيل فيها طبيبا في مستشفى للمجانين، وقد بلغ من إخلاص الطبيب المتخيل لعمله، وتفانيه في خدمة مرضاه، أن انتهى به الأمر إلى أن أصبح واحدا منهم. ويحكى أن كتابة تشيخوف لهذه القصة أنقذته من الجنون.

لذلك أنصح الزميل الشاب بكتابة قصة يتخيل فيها حالما يحلم ومفسرا يفسر حلمه. فربما ساعده ذلك على التخلص من هذه الإسقاطات التي يغرق بها مرضاه، لأن التفسير الذي قدمه ليس إلا إسقاطا للهلوسات التي بثتها في نفسه الموضة التلفزيونية عن الصراع بين العرب والغرب، أو بين الأصالة والمعاصرة، أو بين الجنوب والشمال...إلخ....إلخ. أما الحلم فهو بسيط. وهو مجرد تعبير عن الحنين الذي يحسه الحالم الشيخ نحو طفولته. هذه الطفولة التي أصبح يراها الآن بشكل أوضح.

إن الطفولة مجرة بعيدة. والضوء الذي يصدر عن أحداثها لا يصلنا إلا بعد زمن طويل من انقضائها، لذلك لا نري الطفولة حقا إلا في الشيخوخة، ولا يحس بالطفولة في كل شيء إلا الشيوخ.

– المفسر الشاب:

أنت الذي قلت.

4. تفسير التفسير:

«ألف باء تاء... اكتب»

«لن تكتب إلا الأرشيف»

«ألف باء تاء... اقرأ»

«لن تقرأ إلا نفسك»

– لكن، من أنت؟

– «أَنَ...» قال، وأمسكْ.

الرقص مع البالرينا

على شاشة التلفزة فضاءان:

خشبة مسرح ترقص فوقها البالرينا.

وقاعة المسرح، مليئة بالمتفرجين.

تراوح الكاميرا بين الفضاءين:

– فضاء الخشبة، مركزة على البالرينا: قدميها الصغيرتين الواقفتين منتصبتين – كأذني فرس عتيق – على البنان، على أباهم البنان، يديها المبسوطتين كالجناحين، ساقيها اللتين تطير بهما مع الموسيقى في الفضاء، أو ترتفع/ تصوب/تلف إحداهما، أو تنقر بهما معا حبات الضوء على الخشبة المصقولة.

– وفضاء القاعة، حيث تدور الكاميرا مبرزة صورة الصمت: الظلام، أشباح المتفرجين، نقاط ضوء خافت أصفر في جوانب القاعة، الممرات المفروشة بأبسطة مخملية حمراء تمتص وقع الخطوات، مركزة على وجه فتاة في مقدمة المتفرجين: وجه حالم شارد في سماء الموسيقى محمول على غنى وتنوع واتساق أنغامها كما لو على ريش أجنحة الملائكة. وجه غسقي يقع على

التخوم: بين الخشبة وظلام القاعة، حيث يخفت الضوء ويشف الظلام، بين الخيال الذي يولد على الخشبة، والذي يتقدم مع الضوء، والواقع الذي يحتضر في القاعة والذي يتراجع كالخفاش مع الظلام.

وجه حي تحس بملامحه تخفق مع الرقص والموسيقى. وجه حالم، يحلم بأن يرقص، وعلى الخشبة، وأمام متفرجين، أمام هؤلاء المتفرجين بالذات، بمن فيهم الفتاة نفسها صاحبة الوجه الحالم. يحلم بأن يرقص نفس الرقصة التي يراها، وعلى نفس الموسيقى، يحلم بأن يحلم نفس حلم البالرينا وهي ترقص على الخشبة الآن.

بم تحلم البالرينا؟ بأن يكون لها أجنحة؟ بأن تطير؟ ربما تحلم بالحليب: ثوبها الأبيض الحليبي، والضوء السائل المتخثر الأبيض، والموسيقى المهروقة؟ كلا، المسكوبة كالحليب. ربما كانت البالرينا تحلم بأن تَرضع العالم أو أن تُرضعه. ربما كانت تحلم بأنها هو وأنه هي.

أمام التلفزيون فضاء ثالث:

امرأة وحيدة تتابع ما يجري على الشاشة الصغيرة، وهي جالسة في صالون مغربي صوفي، صالون محشو بالصوف.

ورغم أن الصوف لا يظهر لأنه داخل المضربات والمخاد، إلا أن الألوان التقليدية لأغطية الصوف هذه، والضوء الخافت (الصالون مضاء. بل شبه مضاء. بمصابيح صغيرة في الزوايا المتباعدة للصالون الكبير، وبالضوء المنبعث من شاشة التلفزيون)، وكون المرأة وحيدة في الصالون، وعارية، إلا من الثياب الداخلية طبعا...

(لماذا طبعا؟ لماذا الثياب الداخلية أصلا؟).

لا أدري، ربما ليكتمل الإحساس بالالتباس: بين الضوء والظلام، بين الواقع والخيال، بين اللبس والعري؛ كل ذلك يعطي إحساسا بالصوف، إحساسا بالخفة والنعومة والوداعة (وداعة الخرفان؟)، إحساسا ببضع عشرة درجة فوق الواقع.

المرأة تتابع ما يجري على شاشة التلفزيون، وهي تبكي. تبكي؟ نعم تبكي، ولكن بصمت، دون نشيج، وببطء، دون غزارة. لنقل: تغرورق عيناها، ممكن؟ تنديان قليلا قليلا كالرشح حتى تمتلئا ثم تسيلان أو تقطران دمعا خفيفا صافيا كماء معدني. دمع تحس أن لا ملح فيه ولا ألم.

ليس دمع حزن ولا دمع فرح. هو فقط دمع موسيقى. كأن الموسيقى تنسكب في وجدان المرأة حتى تمتلئ البحيرة فتفيض. والمرأة تحلم بأنها داخل الشاشة، بأنها الفتاة المتفرجة في قاعة المسرح، أو حتى بأنها البالرينا نفسها، وترقص أمام نفس المتفرجين... فقط لو أضافته هو إلى الصف الأول للمتفرجين، ولو عصرته عصرا حتى يفيض من عينيه دمع كهذا الذي يبلل خديها الآن، عينيه اللتين اشتاقت الآن - تشتاق دائما - إلى نزع النظارتين عنهما، ورؤيتهما عاريتين خجولين. خجولين؟ نعم. يبدو فيهما قصر النظر: اضطراب البؤبؤ وارتعاش الأهداب وطراوة وبياض بشرة الجفن بالنسبة لما حولها، كل ذلك يبدو شبيها بالخجل: خجل العريان المفاجأ. (النظارة لباس أيضا، والعين تحتها عورة).

ثم بعد أن تراهما عاريتين تقبلهما، تقبلهما في نعومة وبطء، وبخفة، بمجرد لمسة حانية بالشفتين للعين الواحدة، ثم للأخرى. وخلال ذلك تسمعه يدندن: «بلاش تبوسني في عينيا»، فتبوسه وتبوسه وتـ... حتى تذوّب في عينيه كل جسدها الثقيل (جسدها العبء، جسدها بما عليه من شامات، بما يرشح

من مسامه من الشوق واللهفة والعطش، بمرتفعاته التي تحن إلى الانخفاض، ومنخفضاته التي تهفو إلى الارتفاع، بما يكمن فيه من نزعات ونزوات ونزيف، من أحلام وأمزجة و«شهيوات»، من رغبات تخبو في ضوء النهار الصاخب وتستعر في الوحدة والسكون والظلام)، كل جسدها، تذوبه ثم تقطّره بقبلاتها في عينيه الخجولين، ثم تغلق جفنيه، وتضع عليهما النظارتين، علّه حينئذ يراها... يراها فعلا، ويحس بها، يحس بها كامرأة، كأنثى، وكأنثى عاشقة، وعاشقة له هو. أواه... أين هو الآن؟

هو؟ نعم هو. أينه الآن؟

هناك، في الطرف الآخر للمدينة، ساهرا وحده، وبدون تلفزيون. يخلع نظارتيه، ويمسحهما ثم يعيد المسح، كأن قصر/سوء/ضعف النظر، كأن الشيخوخة/المرض/الوحدة/انعدام المعنى... ذرات غبار على زجاج النظارة يمكن مسحها فيعود الزمان إلى الوراء، وتعود الفرص التي ضيعها متاحة دانية يمكن رؤيتها بالعين الكليلة، ولمسها بالكف الخشنة، وانتهازها بالجسد الهرم.

لم لا؟ قد يحدث ذلك مرة. في إحدى المسحات قد تنقشع الغشاوة عن عينيه فجأة، ويبصر ملء العين جسد المعنى يختلج في إحدى الكلمات.

ليتابع المسْح إذن، ليتابع الكتابة، على الأقل إلى أن تنتهي هذه القصة التي يكتبها تحت عنوان: «الرقص مع البالرينا».

غيابات القلب

الغيابة الأولى: الحليب

أحسست بطعمه في فمي وأنا أستيقظ هذا الصباح. لم أتذكر الحلم، ولكن طعم الحليب كان في فمي، وسرعان ما عادت إلى ذاكرتي رائحته الفاغمة التي عرفتها في الطفولة وهي تتصاعد مع البخار إلى الأنف، وشرشرته وهو يهبط من الإبريق الأبيض إلى الكأس المزوقة في الصينية النحاسية الصفراء، حتى لقد أحسست بالشرشرة تغلف. بغلاف مخملي ناعم. ضجيج السيارات وراء زجاج النافذة المغلقة. وغمرني وأنا بين النوم واليقظة عالم الحليب الطفولي القديم:

– حليب الكأس المزوقة والإبريق الأبيض.

– وقبله حليب المعزاة الملتذة بالحلب وهي تجتر ساكنة مستسلمة، ورائحة الضرع المكتنز الأجرد، والخشونة الناعمة لـ «البزولتين» الدافقتين، والحليب وهو يسقط منهما في دفعات موقعة في نغمتين متتاليتين: نغمة الخروج من الضرع، ونغمة السقوط في «الحلاب» الطيني الأحمر المغسول، المسدود فمه

بنبات شوكي (لتصفية ما قد يقع في الحلاب من قذى أو غبار).

– وقبل هذا حليب الرضاعة، ولم يعد في ذهني منه إلا أطياف حس لا تكاد تبين، ولكني أعاود الإحساس بالرضاع:

– في غموض كثيف تارة حين أتصور أمي وهي تتزين وتبكي في نفس الوقت، أرفع عيني الطفلتين إليها فأراها تتكحل أمام المرآة المكسورة، وأرى الدمع الأسود ينساب على خديها الجميلين، فأبكي لأنني لا أحتمل جمالها الخارق أو لا أحتمل بكاءها الحزين الصامت أو لا أحتمل اجتماعهما معا: الجمال والبكاء، فتحملني إلى حضنها وتلقمني ثديها الأبيض وهي تطل علي بوجهها الجميل الباكي فأغمض عيني وقد انحفر فيهما إلى الأبد.

– وفي غموض شفيف تارة أخرى حين أتصور جارتنا (خالتي فاطنة) تلقمني ثديها الأسمر الكبير وهي تغني أو تذكر الله أو تتابع حديثها مع أمي، وأنا أسمع صوتها الحلو المدغدغ، وأتأمل وجهها الموشوم وعينيها البراقتين وأسنان ضحكتها البيضاء قبل أن أغمض عيني لأركز حواسي على طعم الحليب.

هو ذا الطعم الأبيض الحلو يعود إلي الآن بعد هذا العمر الطويل، وأنا الذي لم أذق الحليب منذ سن السابعة، ولكنه يعود ممتزجا بطعم غريب: طعم كطعم التراب. (وأنا صبي، كنت مولعا بأكل التراب، حتى لقد كانت أمي تسحن كفي الصغيرتين في قفازين مصطنعين من مزق الأثواب البالية، وتضربني حتى يرتفع صراخي حين تجدني مكبا بوجهي على الأرض ألحس ترابها في «نَشَهْوَة» دونها «نَشَهْوَة» الرضاع).

أو لعله طعم الصلصال. ذلك النوع الأصفر المتماسك من التراب، الذي كنا – ونحن بعد في الكتاب – نطلي بـه ألواحنا الخشبية بعد غسلها من

محفوظات الأمس لنكتب عليها من جديد.

أسترد طعم الصلصال في فمي الآن، طعم مزدهر، مهرجان حواس. أرى صفرة الصلصال الباهتة، وأسمع سن قلم القصب وهو يخط عليها، وأحس بلساني وأسناني نعومتها وهي تتفتت تحت أضراسي كالشوكولاطة، وحينئذ، حينئذ فقط يأتي الطعم المزدهر، طعم الجنة (كنت أتصور الجنة في الآيات التي أقرأها جنة من صلصال).

هذا الإحساس المزدوج بالحليب وبالصلصال، أو بدقة: هذا الإحساس المركب المتداخل بالحليب الصلصال، هو ما أحسسته وأنا أستيقظ فزعا من حلم لم أعد أتذكره.

اشتريت نصف لتر من الحليب، ليس عندي إبريق، غليت الحليب في «الكاصرونة»، حليته بالسكر، ثم صببته في الفنجان (لا كأس ولا صينية ولا صلصال)، نفخت على الحليب الساخن ليبرد، «اللي ينفخ على الحليب يشتاقو»، كانت المرحومة تقول. ثم تذوقت الرشفة الأولى. قبل أن أتذوق الثانية، تذكرت الحلم. كاملا، وبوضوح. بوضوح باهر ورهيب.

الغيابة الثانية: الحلم

رأيتني أولد. أخرج إلى الدنيا شيئا فشيئا، أتولد. كنت أحس على زغب رأسي الناعم (أراه زغبا صغيرا ملتصقا بجلدة الرأس الطرية وأحسه ناعما وأنا مغمض العينين بعد) نفحة هواء بارد تعقبها لفحة هواء ساخن. تعقبها؟ بل في نفس الوقت. أحس بالنفحة/اللفحة باردة ساخنة في نفس الوقت، وباليدين، تستقبلانني، يدين صلبتين/مرنتين، يدين خبيرتين، تمسكان جانبي رأسي بحزم ولكن دون ضغط، وتجران، لا تجران فعلا، ولكن تهمان بذلك،

أو توحيان به، أو تشجعان/تساعدان عليه.

رأسي في الخارج أصبح، وسائر جسمي بعد في الداخل، وأنا أولد شيئا فشيئا، وأنا أتولد... لكن دون نهاية. أحس أن هـذه الولادة لا نهاية لها، وأنني سأبقى هكذا إلى الأبد، أولـد وأولد وأولد، دون أن أولد. أحس أني محكوم بولادة مؤبـدة، وأني سوف أعيش أولد حتى أموت.

وداخل هذا الإحساس، ومعه في نفس الوقت، أحس أني أموت، وأن هناك يدا كبيرة من فوق، من فوق وليس من تحت، لا تستقبلني بل ترسلني، وكأن هذه اليد الكبيرة سمراء، وكأنها يد عظمية معروقة لا لحم فيها، يد يابسة باردة تضغط بأصابعها القاسية على كرتي الطينية (ذلك أني أصبحت في هذه اليد كرة طين) وتفتتني، وأنا أتصاغر وأتذارر وأتساقط بين اليد الكبيرة العالية جدا وبين الأرض البعيدة جدا، لا أخرج كليا من اليـد ولا أصل نهائيا إلى الأرض، بين بين أحسني أتولد، بين بيـن أحسني أتلاشى. أتو... اشى، أتـ لا...لد.

ولكن أين الحليب/الصلصال؟ الغريب أن الحلم لا حليب فيه ولا تراب. فمن أين جاء هذا الطعم المركب إلى فمي وأنا أستيقظ مرعوبا من الحلم هذا الصباح؟

الغيابة الثالثة: النمر

وحيدا، حرا، عاريا، يسير على حافة «الآن». على حافة «الآن» السائلة من منبع الأمس إلى مصب الغد يسير النمر وحيدا كآدم، حرا كشعاع، عاريا كإمبراطور. وعلى الضفة الأخرى تتجمع قبائل القلب حول النار ترقص وتضرب الطبول، وتصلي:

«يا أطلس

دَمْ دَمْ.. دَمْ

يا أرقط

دم دم.. دم

يا أجلى من نور الشمس وأخفى من سر الليل الأبكمْ

دم دم.. دم

يا الكائن حتى القتل الفاسد حتى النفي الأدنى حتى المثل الأقصى حتى الضد وياحتى الحتى

دم دم.. دم

يا الضارب في نبضات القلب الساري في كريات الوعي الشاخص في لفظ الموت الناشب في حلق الصوت ويا دمدمة الدمْ

دم دم.. دم

يا الحُطَم القُطَم الخارج مِ الخارج والداخل في الداخل والناشز والمختلف المنتبذ الملتمْ

دم دم.. دم

يا الماء النسغ ويا النار السنيا

يا اللايسكن واللايعيا

دعنا نحيا

دم دم.. دم

دعنا نحيا

دم دم.. دم

دعنا نحـ......».

إغماضة الشاعر

إلى أحمد المجاطي

رأينا تلك الإغماضة على التلفزيون، أنا وزوجتي. كنا نتابع نشرة الأخبار، لكن بدون اكتراث. انتبهنا أولا إلى عناوين الأخبار الرئيسية، وإلى تفاصيل خبر أو اثنين، ثم عادت زوجتي إلى مجلتها، وعدت إلى شرودي. وفجأة ظهر وجه الشاعر. نبهتني زوجتي (طالبته السابقة)، وعرفنا أنهم يقيمون له حفلة تكريم. لم يدم وجه الشاعر على الشاشة إلا لحظة عابرة، فقد اهتمت الكاميرا أساسا بالذين كرموه، بعلاقاتهم به، وبانطباعاتهم عن شعره، ودواعي تكريمهم له.

في تلك اللحظة العابرة رأينا إغماضة الشاعر. كانت الأضواء قد تركزت علي وجهه، ولأنه ضاق بذلك، أو لأن عينيه المتعبتين لا تطيقان الأضواء، أو... فقد أطبق جفنيه، أطبقهما على مهل، إطباقة بطيئة أبية متوحدة عزوفا كخطوة أسد، كدمعة أسد. إطباقة كأنها ـ في كثافة دلالاتها، في رمزيتها، وفي إيجازها ـ كلمة شعرية من إحدى قصائده.

هل كانت تسخر من وهج الكاميرا؟ من ألق الشهرة؟ من الطموحات والأطماع؟ ماذا كانت تلك الإغماضة البطيئة الموزونة تقول؟ وماذا رأى الشاعر خلالها؟

تساءلت في نفسي أولا، ثم اقترحت اللعبة على زوجتي: أن نتخيل كتابة. هي طالبته السابقة، وأنا صديقه القديم. ما يمكن أن يكون الشاعر قد رآه في تلك الإغماضة، ثم نقارن بين الصورتين المتخيلتين.

الصورة الأولى:

«يرى الشاعر وقد أغمض عينيه طفلا صغيرا، صبيا في السادسة أو السابعة، يجري على حافة كأس هائلة في حجم خشبة مسرح، يستوقف الشاعر الطفل، يأخذ كفه الصغيرة في يده الكبيرة، يرسم فيها إطارا ويطلب من الطفل أن يتفرس داخل هذا الإطار. يقول له:

– رَني غدا.

يحدق الطفل قليلا ثم يقول:

– أرى الوطن الذي تحلم به: بحرا من الثورة فوقه جبل من الثروة في رأسه فنار من المعرفة يلقي ضوءه على القارات.

– رَني غدا.

– أرى ديوان شعرك يقرأه الأطفال في تمبوكتو.

– رَني أنا غدا.

– أراك في حفلة تكريم على التلفزيون، وأنت تغمض عينيك إغماضة لا أرى ما تراه خلالها».

الصورة الثانية:

«يرى الشاعر ابتسامة سعاد، ابتسامة غريبة ومعقدة كأنها قصيدة مترجمة، فيها قليل من الحنو القديم أيام كانت تخاف عليه من نفسه الشاعرة مثلما تخاف الأم على طفلها حين تراه يلعب بمدية المطبخ. وفيها قليل من السخرية، سخرية رحيمة لا شامتة، سخرية كأنها تقول له:

«وأخيرا... ماذا لقيت من الشعر... ولقينا؟»».

وفيها قليل من الندم أيضا. الندم؟ كأنما تندم لأنها أحبته، أو كأنما تندم بالنيابة عنه لأنه لم يستجب لرغبتها في الزواج.

وفيها قليل من الحيرة كأنها لا تفهمه، لا تفهم كيف يحبها ولا يتزوجها، ولا تفهم كيف يشتاق إليها في الشعر ويهرب منها في الحياة، ولا تفهم كيف تزوج فيما بعد امرأة لا يحبها، وكيف عاش معها... وحيدا.

استوعب الشاعر هذه الابتسامة المعقدة، تركها تتسرب إلى دمه العجوز في رفق وتؤدة، وربت عليها قائلا:

– أحبيني، فإن جميع من أحببت قبلك (كل من أحببت بعدك) ما أحبوني.

– لقد أحببتك، ولكنك كنت مشغولا عني.

– شغلني عنك الليل.

– الليل؟ ما هو الليل؟

– الليل ـ رغم أن من الصعب الحديث عن الليل ببساطة أو بجزم أو بقول واحد أو بقائل واحد أو بكاتب واحد أو بنص واحد، ورغم أن من السهل الحديث عن الليل باستخدام الركام الهائل من الكلمات التي تتحدث

عن الليل وإن كانت تقف على حافته وتقدم وصفها له من منظور أعشى

ـــ إبريق خمر.

الإبريق عتيق، والخمر عتيقة وعاتق وعتيق، عتيقة لقدمها، وعاتق لأنها بكر لم يمسسها شارب، وعتيق لأنها حرة رغم الإبريق الحافظ، لأنه إبريق من ريق. ريق النهار؟ نعم الليل ريق النهار، رضابه الحلو الذي لا يذوقه إلا العشاق والشعراء و ... أنا».

قلت لزوجتي بعد أن قرأت ما كَتَبَتْ:

– سعاد، هي أنت؟

ابتسمت في غموض وقالت:

– لا تتَذاكَ، أيها الطفل الرائي.

بعد بضعة أيام، تلقيت نعي الشاعر بالتليفون، سافرت فورا لأشارك في تشييع جنازته.

في القطار، أغمضت عيني عما حولي، فرأيت الطفل يحدق في كفه حتى يظهر له الشاعر على شاشة التلفزيون مغمضا عينيه، ويحدق حتى يرى ما يراه الشاعر في إغماضته العابرة تلك، يرى نعشا محمولا، وفوقه الشاعر نفسه مغمضا عينيه إغماضته الأبدية، إغماضة لا يستطيع الطفل مهما حدق أن يسبر غورها.

ناتاشا

إلى إدريس الملياني

الرواية البيضاء:

لمحتها وأنا أقف أمام كشك الكتب والدوريات. شدني العنوان البارز أولا: «ناتاشا»، وتحته بخط رقيق: «راسكولينكوف». لابد أنها رواية روسية مترجمة. راسكولينكوف؟ سبق لي أن سمعت هذا الاسم. هل هو من روائيي القرن 19 أو من روائيي ما بعد الثورة؟ الرواية سجينة غلاف بلاستيكي يمنع فتحها قبل الشراء.

اشتريتها وعدت إلى البيت. في طريقي عرجت على المخبزة، واشتريت بعض الحلوى. (وأنا تلميذ كنت أقطع قراءة دوستويفسكي وتولستوي بالحلوى، أشتري الرواية الأولى من بائع الرصيف وأقرأها ثم أردها إليه وأكتري أخرى بـ 20 سنتيما فقط. وبين كل فصل وآخر آكل الحلوى. مع الأيام، اقترنت الرواية الروسية في ذهني بالحلوى). آمل أن يستحق راسكولينكوف

هذه التضحية بنقودي أنا الفقير، وبصحتي أنا المريض بالسكر.

أزحت الغلاف البلاستيكي. لا كلمة عن المؤلف، لا مقدمة، فقط النص الروائي حافيا، لا يوجد حتى نص روائي. هناك صفحة واحدة مكتوبة في بداية الكتاب، وأخرى في نهايته، وما بينهما صفحات بيضاء. سأرد الكتاب إلى البائع قطعا، وأسترد نقودي. في انتظار ذلك لنقرأ هاتين الصفحتين اليتيمتين:

الصفحة الأولى:

حين عاد الأمير ميشكين من أوروبا كان أول ظهور له في مجتمع بطرسبورج في بيت الجنرالة أنَّا إليتشفنا. وقد خيب آمال أصدقائه الحميمين الذين فرحوا بعودته، وانتظروا أن تعود به ومعه أيام المرح القديم، حين كانوا يملأون أوقاتهم بالفودكا والنساء والسخرية من الآباء والأزواج. لقد بدا عليه تغير كبير. أما الفودكا فما زال يشربها، وربما أصبح يعب منها أضعاف ما كان يشربه من قبل، ولكنه لم يعد يبالي بالنساء. وحتى الجنرالة نفسها التي أسعدتها عودته، واحتفلت به، لم يولها أي اهتمام، ولم تزد ردود فعله إزاء فرحها واحتفالها به على الحركات الرسمية (الانحناء، وتقبيل اليد، والإجابات المختصرة الباردة).

أما أصدقاؤه، فكأنه لم يعرف أحدا منهم من قبل. وحين كان يتقدم إليه أحدهم، كان ينظر إليه في شرود، وكأنه ينظر إلى شيء عابر خلفه.

بدأ الشيب يخط شعره، وظهرت على زاويتي فمه بعض التجاعيد. في النهاية، لقد بدا في عيون أصدقائه عجوزا، وملولا، وضجرا إلى حد الغثيان، ليس فقط من وجوده في هذا المجتمع كما يبدو، ولكن من وجوده أصلا، ومن الوجود ككل. ولم يفق من ضجره إلا حين قدموا له ناتاشا، الابنة الصغرى للجنرالة. كان يعرف أن لها ابنة صغرى، وربما كانت حين سافر إلى أوروبا

قبل 10 سنوات، في الخامسة أو السادسة من عمرها، ولكن الكائن الذي قدموه له باسم ناتاشا كان مفاجأة حقيقية: فتاة رقيقة وخفيفة ولامبالية، كغيمة صيف، غير أن فمها الصغير المزموم، وعينيها الوامضتين بنور أسود باهر يبدو ويختفي، كضوء فنار يوحي بهدير البحر دون صوت، وحمرة خديها القانية، ووقفتها الصافنة على رؤوس الأصابع، كل ذلك كان ينم عن غيمة مضغوطة تكفي لمسة واحدة من أصابعه الخبيرة لتفجيرها في هذه القاعة الأنيقة الممتلئة بالضباط والأمراء والجميلات وأعيان المجتمع الراقي... لكنه حين حاول تفجيرها... انفجر.

المستحيل الأبيض:

انتهت الصفحة الأولى. ناتاشا. ناتاشا. ناتاشا. أحلى اسم في عنقود ذاكرته من الأسماء. كان قد تعرف على الاسم من قبل، في رواية «الحرب والسلم» لتولستوي، ولكنه لم يغرم بناتاشا إلا حين رأى فيلم «الحرب والسلم»، الفيلم الروسي لا الأمريكي. فيلم طويل جدا من جزءين كبيرين. فيلم شده فيه على الخصوص فضاءان: فضاء الطبيعة وفضاء الأرستقراطية.

. فضاء الطبيعة الريفية: حيث يبرز الفيلم السهوب الرحبة والغابات والثلوج، وحيث رأى أجمل مشهد سينمائي شاهده في حياته: مشهد الذئب: كان الصيادون قد حاصروا الذئب، وألجأوه إلى أصل شجرة عريضة الجذع. الذئب الأغبر يحاول عبثا الدخول في جذع الشجرة، والصيادون الأرستقراطيون العابثون يحيطون به، وخلفهم الأشجار والثلوج، وبقع السماء الزرقاء بين السحب البيضاء، وأشعة الشمس المنعكسة بين أوراق الأشجار بألوان الطيف الفاتنة.

وفي هذه اللحظة بالذات، دخلت الكاميرا إلى عيني الذئب، وأخذت تَري وتُري من خلالهما ما ومَن يحيط به، وأخذنا نحن معها ننظر من عيني الذئب الأغبر المحاصر إلى الصيادين، فنراهم من أسفل، وبانحراف، بحيث تبدو قاماتهم أطول، وتبدو وجوههم معوجة ملتوية بأشكال غريبة تثير في النفس نوعا من الرعب الأسطوري، ونوعا من اليأس الأبيض الصامت.

– وفضاء الأرستقراطية الذي تتحرك فيه عربات الجياد حاملة الضباط والجميلات إلى القصور الفخمة، حيث تفتح أمامهم حلبات الرقص ذوات الأرضية الخشبية المصقولة، والأضواء الباهرة والموسيقى الكلاسيكية.

وحين تدخل ناتاشا، تنفرج لها الجموع المحتشدة، ويخلو لها جزء من حلبة الرقص الواسعة تدور فيه كالفراشة بثوبها الأبيض الناصع المطرز بالدانتيلا، والكاشف في أعلاه الضيق عن عنقها الناحل وأعالي صدرها الناهد، وفي أسفله الواسع المستدير عن ساقيها العصفورتين اللتين تنقران خشب الحلبة اللامع نقرات العازف.

فيما بعد، وحين شاهد الفيلم الأمريكي «ذهب مع الريح»، أعجب بـ «سكارليت» إلى حد كبير، ولكن شخصيتها القوية، وعنفها أحيانا، وواقعيتها الفجة، إذا صح التعبير، كل ذلك جعلها في الدرجة الثانية بعد ناتاشا: جمال المطلق، وملاك الموسيقى، المستحيل الأبيض المسكوب في روحه كلبن أم في ذاكرة يتيم.

الحلم المجوسي:

ماذا لو تزوج امرأة اسمها ناتاشا؟ لو كان قد تزوج من زمان، أية امرأة بأي اسم، ثم ولدت له بنتا يسميها ناتاشا. سيرفضون تسجيلها بهذا الاسم

في الحالة المدنية. لا يهم. ليسجلوا أي اسم يريدون. أما هو فسيناديها دائما: ناتاشا. سيعلمها الموسيقى والرسم والباليه منذ طفولتها، سيلاعبها الشطرنج، ويدربها على أن تقرأ له الشعر أمام المدفأة في الليالي الماطرة. وحين تكبر قليلا، سيسافر بها إلى البرازيل، حيث تتعلم كيف تعيش الحياة بالعرض، وإلى الهند حيث تتعلم كيف تصمت، وإلى فنلندا حتى تعقد صداقة مع الثلج، وإلى «بويا عمر» لكي تلمس بأناملها الناعمة وجه التراجيديا الحي.

ماذا لو أحبت وتزوجت؟ تتزوج؟ كلا. أما الحب، فستحب طبعا، ستحب أباها ككل فتاة، ولكنها لن تخونه وتتزوج، كأي فتاة. ستداعب شعره الأبيض، وتهمس في أذنه الصماء، وستغلف منحدره الخشن إلى القبر بحنانها. وحين يموت، ستضع على قبره شاهدة تكتب فيها... تكتب ماذا؟ اسمه الكامل بالطبع وتاريخ ميلاده ووفاته، و... أهم أعماله. مثل ماذا؟ لقد قام بأعمال لا تحصى، ملايين... ملايير الحركات والتأثيرات والأفعال وردود الأفعال، كلها تستحق التسجيل، لأنها كلها أجزاء منه، وليس منها بعض إلا وهو بعضه. ما يستحق التسجيل فعلا ليس هو ما قام به، بل هو ما لم يقم به. ما لم يقم به عن وعي واختيار. شجاعة الترك أقسى من شجاعة الفعل. لم يرتكب شرا، ولم يرتكب خيرا أيضا. لقد عاش فقط حقيقته. عاش صادقا مع نفسه... لكن هذا لم يكن دائما، لم يكن حتى غالبا، كان يحدث نادرا، ونفاقا، كان ينافق نفسه أحيانا، ينافق ضميره، حتى حين يكون وحده وليس معه أحد. كلا، ما يستحق التسجيل فعلا هو «ناتاشا». يكفي أن تكتب تحت اسمه: «أحب ناتاشا». والأجمل أن تكتب: «أحبته ناتاشا». لتكتب على الأقل: «حلم بناتاشا». أما ماذا ستفعل بعد موته، فلا يستطيع أن... وكما أن من لا يحلم ميت، فإن من يموت لا يحلم. يكفي هذا، وليقرأ الصفحة

الأخيرة من الرواية.

الصفحة الأخيرة:

اصطدمت به وهي تصعد إلى القطار. كان هو نازلا. ساعدته في إنزال حقيبته الثقيلة إلى الأرض. وفيما كان يشكرها، كانت هي تتفرس فيه: تغير كثيرا، الشعر أبيض تماما، الظهر احدودب قليلا، والعينان ضاقتا، لكن ابتسامته المواربة لم تتغير، ابتسامته التي كانت تخيفها منه وتجذبها إليه في نفس الوقت، والتي كانت تحس أن فيها نوعا من المكر الطبيعي والتلقائي حتى حين تكون بريئة مثلما هي الآن دون شك، تلك الابتسامة التي جعلتها تسميه: «الأمير موناليزا».

سمعت صوته الغريب يقول (صوته تغير، كأنما ضعف قليلا، كأنه يحمل قناعا شفافا يختبئ وراءه ويشعرك بأنه مختبئ هناك):

– هل تعرفينني يا سيدتي؟

– نعم. أنت الأمير ميشكين.

– وأنت... معذرة. ذاكرتي ضعيفة.

– أنا ناتاشا.

– ناتاشا؟

هل فوجئ؟ عرته اهتزازة سريعة كما لو من كهرباء. لكن، ربما كان ذلك من صفارة القطار التي انطلقت فجأة.

مدت إليه يدها قائلة:

– أنا آسفة، علي أن أصعد إلى القطار.

– إلي أين تذهبين؟

– إلى بعيد... آمل أن أراك مرة أخرى.

أطلق يدها التي حبسها قليلا بين راحتيه، واتسعت ابتسامته الماكرة، وأخذ يردد أبيات «ليرمنتوف» التي كان يرددها في ذلك الزمن البعيد، كلما افترقا:

«أيتها الغيوم الراحلات أبدا

من يطردكن؟

أبدا باردات

وأبدا حُرّات

ليس لكُنّ وطن

وليس لكنّ منفى».

الصفعة

سِنَةٌ خامرته ولم ينم، كصفقة باب أو كهبة ريح. صفقة باب فعلا، ومن هبة ريح، هي التي أيقظته. كانت سِنة بيضاء، دامت بضع ثوان، ومرت ثوانيها صافية دون عائق خارجي، ودون شية حلم. فقط، في نهاية السِّنة، صفقت الريح باب الغرفة، لم يستغرق الصوت وهو يقطع الأمتار الثلاثة بين باب الغرفة وبين السرير الذي أستلقي عليه إلا جزءا من الثانية، ولم تمر بين وصول الصوت إلى أذني الداخلية وبين انتباهي من السِّنة العابرة فزعا إلا ذرة زمن، نواة ذرة زمن. ومع ذلك، ففي هذه النواة المتناهية في الصغر، حدث ما حدث. والذي حدث كان صفعة تلقيتها على خدي الأيسر، صفعة مدوية اهتزت لها عروق كياني، ولم أكن أرى خلال ذلك إلا عينين حمراوين غاضبتين.

هل كان الصافع الغاضب أبي؟ جدي؟ فقيه الجامع؟ أستاذ المدرسة؟ عامل الإقليم؟ الإمام مالك؟ المولى إدريس؟ رئيس الولايات المتحدة؟

لم أكن أعرف إلا ما أحسه في تلك اللحظة، ولم أكن أحس لحظتها إلا عينين حمراوين، وإلا صفعة مدوية أسمع صوتها في الصماخ، ولا أحس لها بأ لم

في الجلد، ولا بغضب في الدم، ولا حتى بنية في الرد.

هل كنت أشعر باستحقاقي لهذه الصفعة؟ باحترام للصافع؟ بخوف منه؟ باحتقار له؟ هل فوجئت؟ تبلدت ؟ شللت؟ مت؟

حين تحركت أخيرا، كانت العينان الحمراوان قد غابتا. لم أر أمامي إلا دَرَجات صاعدة أعلاها غارق في الظلام، وأنا أصعد/أصعد/أصعد. الغريب أنني لا أحس بتعب الصعود، لا بعرق الجهد، لا ببهر النفَس، لا بتسارع دقات القلب، ولا حتى بالحاجة إلى الإمساك بدرابزين. كأنما أصعد شبه محلق لا تلامس يداي الجدران ولا قدماي الأرض إلا أناملي.

ومن آخر الدرَجات، من آخر ما يظهر من الدرجات، ينبع، بل ينز، خوف أسود لزج موحل يسري بسرعة الضوء. ما أن تنز قطرة خوف من هناك حتى تقطر في دمي مباشرة، لا تقطر، بل تتصاعد في دمي، تتبخر، وتُشيع في ركبتي وصدري وصدغي... رعدة؟ قشعريرة؟ أو فقط وَهَنا خفيفا؟ ورغبة معقدة متناقضة، في التراجع طلبا للأمن، وفي التقدم طلبا للمعرفة، في نفس الوقت.

وما أن أفكر في الحسم حتى يبدو لي وجه الطفل في أعلى الدرَجات، يقترب قليلا قليلا، وتضيء وتتحدد ملامحه كلما اقترب.

وجه طفل ينظر إلي، يتفرس في، كما لو كان وجهي مصبوغا بالألوان، أو شاشة تلفزيون، أو شارعا تحت شرفة، أو ربما، مرآة سحرية يرى فيها الطفل وجهه وما وراء المرآة في وقت واحد.

كما لو كان وجهي خلف قناع، قناع إفريقي أسود، يسمع الطفل من ورائه وجهي ولا يراه، يحسه دقات طبول ساخنة يفوح مع كل دقة منها نفَس ثقيل ضاغط من أنفاس الغابة، نفَس مضمخ برائحة المطر، برائحة التفاعل

الصاحب بين المطر وأوراق الشجر وذرات التراب وجلود الحيوانات.

وجهي خلف القناع؟ أم القناع خلف وجهي؟ كما لو كان وجهي الظاهر قناعا، والقناع الإفريقي الأسود الكامن هو وجهي الحقيقي.

والطفل يتفرس ويقرأ، كما لو كان وجهي أمامه صفحة كتاب، والطفل بعد طفل لم يتعلم الأبجدية كلها، أو تعلمها ولم يتعلم بعدُ تركيب الحروف، أو ربما كان الطفل قد تعلم القراءة فعلا، ولكن الكتابة على صفحة وجهي طفلةٌ بعد... كما لو كانت لغتها بدائيةً معرقة في القدم، وكل حرف منها أيقونة مقدسة، بئر أسرار مختومة بالأرصاد، ولكنها مغرية بالبحث، موحية بما يشبه المعنى، تُوقف الطفل على حافة الفهم ثم تُسمره على تلك الحافة لا يتجاوزها ولا يتراجع عنها.

والطفل يتفرس ويتأمل (يتذكر؟)، كما لو كان وجهي مألوفا لديه نوعا من الألفة، كما لو كان يعرفني من قبل ونسيني، فهو يعصر ذاكرته الطرية، ويقلب بين الوجوه المعدودة التي عرفها في عمره القصير فلا يعثر على وجهي بينها، وهو مع ذلك يعرفني يظن، فهل عرفني في حياة سابقة قبل أن يولد؟ هل كان في إحدى حيواته السابقة إبني؟ أو أبي؟ أو أمي؟ هل كانني ؟

فجأة يرتجف الطفل هلعا، ويتراجع إلى الوراء. وفجأة أعرف لماذا.

لقد كنت أنا الصافع. وكان الطفل الهلع المتراجع هو المصفوع.

الموعد

1. من بعيد أمام باب العمارة، رأيتُ بعضهم. ما زال على الموعد نصف ساعة، ولكنهم بدأوا يفِدون، عرفتُ أكثر من نصف الواقفين على الطوار جماعات، ولا بد أن بعضهم لمحني وأنا قادم وعرفني، بل لقد خيل لي أن أحدهم يهرب مني: رآني قادما فغير جماعته بجماعة أخرى أبعد عن باب العمارة. هروبا من السلام، والأسئلة عن الأحوال، وتجنبا لإحراج من يتحرجون، ولأنني كنت عطشان، والموعد لم يحل بعد، فقد دخلت إلى محل للمواد الغذائية وطلبت «سيدي علي» صغيرا وغير بارد.

قال صاحب المحل (يلبس فوقية بيضاء وطربوشا أبيض وله لحية قصيرة بيضاء، كأنني أعرفه من قبل: «الحاج»، وكأنه يعرفني) مبتسما، وهو يناولني المطلوب: «أنا أيضا لا أشرب البارد رغم هذا الحر، الصحة أولا، وللسن أحكامها».

أردت أن أقول له إن «الحق معه على العموم، وإن كنت أصغر منه»، لكنني لم أنبس. لعل الآخرين أقدر مني على تحديد سني، فالسن كالأخلاق،

لا يؤخذ برأي صاحبها فيها. وبدلا من ذلك، أخذت أحدثه عن مزايا «سيدي علي»، وعن الفرق بينه وبين «سيدي حرازم». ونحن نتحدث في هذا، كان المحل يمتلئ بالناس، وكان مجال الحديث يتسع ليشمل الجميع.

ولأني شعرت بهامشيتي في الموضوع، ولأنني أنهيت «سيدي علي» الذي أشربه، ولأنني أحسست بأن الموعد قد أوشك، فقد...

ولكني أحس بثقل الثياب التي ألبسها، وبين جسمي وبين قميصي ثياب أخرى كثيرة محيطة بجسمي وبرأسي، حتى لقد أحسست وسْط هذا الحر والزحمة بالاختناق.

بدأت أتخلص من هذه الثياب الزائدة الثقيلة، أخرجت طرف ما بدا لي كالوشاح الطويل أو كالعمامة الواسعة، وقد أحاط بي ولف جسدي كالأفعى، وبدأت أجذب، ولكنه طويل جدا، وحول رأسي طرف آخر يحيط بالصُّدغ حتى إنه ليمنعني من الرؤية بعيني اليسرى. أجذِب... أجذب... والناس من حولي لم ينتبهوا لي بعد... وأنا أجذب وأتصبب عرقا، وأسرع قبل أن يلتفت الناس إليّ. وأجذب وأجذب... فجأة أحس بالخلاص. أصبحت خفيفا جدا، وهادئا، ومرتاحا، وصامتا... ليس صامتا، بل مصموتا... أقصد مصموتا عنه... أقصد أن العالم نفسه من حولي قد صَمت كليا، حتى لقد بدأت أسمع صمته... أقصد: أحس بصمته. أحسست بهذا الصمت أولا في شكل برد خفيف جفف عرقي وأنعشني. ثم أحسست به في سكون المتحركات في مدى بصري، كأن مخرجا في كواليس الطبيعة قد ضغط فجأة على زر خاص، فتوقف كل شيء كما هو. ثم أحسست به كصوت أبيض، كمسافة حادة فاصلة بين صوت وصوت... مسافة مخيفة مرعبة لأنها تشعرك بأن صوتا هائلا مُصِمّاً يوشك أن يندلع، عتبةٍ بيضاء للرعد الأحمر الينفجر في الثانية القادمة،

لقيامة كونية مجهولة، ولكنها محسوسة ضاغطة في عروق هذا الصمت الملغوم.

فجأة انتبهت إلى أنني عار، عار تماما، من كل شيء، إلا من الحذاء والساعة والكاسكيت. ولكن الناس لا يأبهون بي، لم يعد التاجر الحاج منظورا، ولا دكانه وزبائنه، لكن عمارة الموعد بارزة هناك وسط حشود الوافدين من كل صوب.

نظرت إلى الساعة في معصمي، وفي اللحظة التي كنت أستوعب فيها وصول عقرب الثواني إلى الموعد المترقَّب، اهتزت الأرض تحت قدمي، وأخذت أسمع تباشير الصوت الهائل، كان الصوت فوق طاقة سمعي، والخوف القديم الصاعد من أعماقي خرق كإبرة حادة سقف احتمالي... ففقدت لاوعيي... وأفقت.

2. منذ زمن بعيد، منذ بدأت أعي، إن كنت أعي شيئا فعلا، وأنا أنتظر أن يقع شيء ما، في زمن ما، ودائما يأتي الزمن المنتظر ويمر، ودائما لا يقع شيء. كنت أعتقد أن ذلك يقع . أقصد: لا يقع . لي وحدي، ولكني اكتشفت بالتدريج، ومع مرور وتراكم الأزمنة الخائبة، أن ذلك شأن الناس جميعا في بلدي، كلهم ينتظرون حدثا ما في الغد، وكل الأغداء تمر كسحابات الصيف: خفيفة بيضاء، ولا يسقط المطر إلا في الأحلام. لماذا يكون ذلك في هذا البلد وحده دون سائر بلدان العالم؟ لماذا لا تقع أحداث حقيقية فعلا، تقلب حياة الناس، وتعرضها لشمس التاريخ لتغتسل في أشعتها من أوضار الرتابة والبؤس والانتظار؟؟

ربما كان ذلك شأن جميع البلدان، وليس هذا البلد وحده. ربما كانت المسألة تتعلق بالتاريخ وليس بالجغرافيا، أقصد أن الزمن لم يعد زمن الأحداث والأبطال والتغييرات الجذرية، وأن المرحلة الحالية من التاريخ هي المرحلة

البيضاء: مرحلة لا يصنع الناس فيها الأحداث والبطولات، بل يكتفون بتصريف اليومي، يأكلون القوت وينتظرون الموت... نعم، الموت وحده، الموت الطبيعي، هو الحدث الوحيد في هذا العصر الرملي الأبيض.

هذا كله، إذا لم يكن الأمر يتعلق بشيء ثالث، هو ببساطة: طريقة تأويلي الخاص لما يحدث، أو لما لا يحدث. من يدري، فالإنسان تتغير نظرته للأشياء والأحداث والناس، وتتغير تأويلاته وأحكامه، مع تقدمه في السن. أليس كذلك؟

3. كان في عنفوان الشباب، وكانت جميلة، أقصد «مسرارة»، كما كان المغني أيامها يقول. كان هناك سر ما في وجهها، ربما هو دقة تقاسيمه أو انسجامها، وتناسب أحجامها، أو حياة داخلية خاصة تنبعث فيها حين تبتسم، بالإضافة طبعا إلى عينيها، وشعرها، إلى قدها، ومشيتها، إلى طريقة تسليمها وهي تقبل، وهي تودع، وبالإضافة إلى اسمها، إلى حرف الزاي فيه على الخصوص، ذلك الحرف الذي تخيل أيامها أنه هو قرن الثور الأسطوريّ الذي تستقر فوقه الأرض، وأن الألف في اسمه هو: القرن الثاني للثور.

ياه، كم كان العالم يبدو صافيا أيامها، حيا، جديدا، واعدا... كان العالم عاشقا، ووعدتْه: قالت له من بين شفتيها السمراوين، أو البنفسجيتين؟ ياه، كم تقادم الزمن! قالت له: «غدا. الرابعة بعد الزوال». وكان الموعد حاسما، كان المستقبل المرسوم على المخطط بينهما سيوضع على السكة، ويبدأ في التحقق.

وجاء الزوال، وجاءت بعده الرابعة، ولم تأت هي. العالم كله زال، وهو ما زال، في تلك الرابعة المنحوسة بعد ذلك الزوال، وفيها سيموت أيضا، ماذا يفيد أن تأتي الآن؟ التي ينتظرها، هي التي كانت، والذي ينتظرها فيه، هو

الذي كان.

4. كان يصرخ بأقصى ما في حلقه الصغير من قوة، كان يحتج على شيء ما، أو يحتاج إلى شيء ما، دون أن يهتم به أحد. أحدهم... إحداهن؟ صرخت في وجهه بما يعني أنها ستخرج وتغلق عليه الباب، وأنه إذا عاد إلى الصراخ، فسيدخل عليه الغول، ويأكله.

أما هو فسكت مذهولا، وأما هي فأطفأت الضوء وخرجت، وأغلقت الباب.

عاد إلى الصراخ من جديد، وبأقصى قوته... لكنه سمع شيئا ما في الظلام... فسكت، أنصت... فسمع أزيزا مخيفا، صوتا كصوت سكين حادة تمر على سطح حديدي... كان صوت الباب الصّدِئ وهو يفتح، بهدوء، لكن بحزم وإصرار: زززززز... شَلَّ الرعبُ أعضاءه كلها... لحظة، ثم فقد وعيه.

عود تبن أبيض

لا يستطيع أن يحدد بالضبط كيف أحس بذلك. لقد حدث فجأة ودون سابق إنذار. كان مع عبد اللطيف وزوجته، في ضيافتهما. تحدثوا عن أشياء جميلة ورائعة لا يذكرها الآن. بَلى يذكرها، ولكنه لا يستطيع تذوقها بنفس المتعة: تحدثوا عن شكسبير وعطيل، وعن فاوست وبيتهوفن وفاجنر، وأبدت مليكة حسا مرهفا في الحديث عن الموسيقى الكلاسيكية وعظمتها، وفساد الأذواق المعاصرة، ولقد تمنى في لحظة من تلك اللحظات أن يُتاح له حظ الزواج من امرأة رقيقة مهذبة ومثقفة كمليكة. وربما كان قد أفصح لهما عن هذه الأمنية إفصاحا. لا بد أن مليكة قد ابتسمت خجلى حينئذ، وأنها أعربت عن ثقتها في أن رجلا مثقفا ورقيق العاطفة مثله لن يحرَم رفيقة أحسن وأرقى منها بكثير، ولا بد أن عبد اللطيف قهقه حتى أمال الفوتيل وصاح: هيا يا مولاي، توكل على الله ودع لي مهمة البحث.

كانوا يتحدثون عن سيبيريا، أو بلد مشابه: جمال الطبيعة، والأشجار والثلج، والفن والأدب، ونزهات الخيول وصالونات القرون الوسطى، والنزعة

الإنسانية وانحدار التاريخ: أشياء كثيرة وجميلة وملونة. وفجأة سقط الكأس من يده وانكفأ وجهه على المنضدة الزجاجية. لم يغب عن وعيه. لم يغب عن وعيه مطلقا. بقيت أذنه تسمع وعينه ترى، وبقي طعم الويسكي المثلج في فمه منعشا ولذيذا كما كان دائما، والموسيقى الهادئة تعمق السكون.

وأحس بعبد اللطيف ومليكة يرفعانه ويناديانه، ويمسحان جبهته الجافة بمنديل ناعم مبلل. كل ذلك كان في وعيه، ولكنه لم يعد نفس الرجل. أحس بأنه في هذه اللحظة بالذات... مات. ذلك هو الشعور بالضبط: أحس بأنه ميت تماما. ورغم أنه لم يكن قد عرف الموت من قبل إلا في قراءاته وأحاديث الناس عنه، إلا أن أي ذرة شك لم تخامره في حقيقة موته. كان يسمع ويرى ويتنفس، ولكنه لم يكن من الغباء بحيث تخدعه هذه السخافات.

لقد أدرك بعمق أنه ميت. وكانت الكلمة الأولى التي رد بها على لهفة مضيفيْه الكريمَيْن هي قوله: «أريد كفَنا حريريا».

ولم يدعاه يخرج حتى أقنعهما أنه في كامل وعيه، وأن الشراب المنعش والحديث اللذيذ هما المسؤولان، وأنه يعتذر عن إزعاجهما، ويعتقد أن الوقت قد حان بالفعل لكي يعود إلى شقته.

لماذا تموت الأشياء وهي في قمة نضجها واكتمالها وروعتها؟ لماذا لا يختطف الموتُ إلا الأشياءَ الجميلةَ والطيِّبة والمعطاء؟ لماذا؟

فكر في المسألة حتى أضناه التفكير وهو يجلس في المقعد الخلفي للتاكسي، وترنم:

كان المطر يبلل وجه حبيبي

حين... تَصرَّفَتِ الأقدارْ

لذلك، حين أرى الغيمَ...

تُبلل قلبي النارْ

وقال لنفسه: إن الشِّعر شيء عظيم، وأحس بالندم لأنه لم يفكر من قبل في ترجمة طاغور إلى العربية، الوقت الآن فات، ربما كان آخرون قد قاموا بالترجمة، ولكنه غير واثق من قيمة ما يفعله المترجمون، إنهم يشوهون وجه الفن. ود في تلك اللحظة أن يعانق طاغور ومايكل أنج وكل العظماء. ود لو يحمل الناس جميعا على أن يعانقوا العظمة الفنية وينبهروا بها. ولكن الوقت قد فات. وقال لنفسه: الإبداع الإنساني ينسحب إلى المتاحف والخزائن، والإنسان يغيب في ظلمات التاريخ، وأنا... مت.

في باب العمارة الشاهقة، كانت سلسلة طويلة رقيقة سوداء تمتد في الضوء الشاحب. كانت السلسلة جيشا من النمل يسير في نظام: واحدةً وراء واحدة، وفوق ظهر كل نملة صغيرة سوداء عود تبن أبيض.

قالت نملة

لحم الحلم

كأني أهرب من وحش، أجري لاهثا والعرق يعمي عينيّ. أتخبط دون وعي. في أي اتجاه أسير؟ في اتجاه الحياة. أريد فقط أن أبقى حيا، ولا يهم أين ولكن الوحش. ربما كان أخطبوطا، فأذرعه، ظلال أذرعه، تتخطاني وتتطاول أمامي، الوحش ورائي وأمامي. يطاردني دون توقف. وأنا أجري وألهث قاب قفزةٍ أمامه. والقفزة أتوقعها وأتجمع لها دون أن أكف عن الجري المتخبط العرقان اليائس الـ...

وأُحسُّنِي فوق سرير. أَرِقاً مُسَهَّداً أستجلب النوم بالتفكير في الحلم السابق، ومحاولة فهم الوحش الأخطبوط: من أين جاء، وكيف تصورته وما تأويلُه ووظيفتُه في الحلم وعلاقتُه بالوحوش الآدمية التي أعرف، و... غفوت فجأة دون أن أعي، وإذا بي في... مطعم أظن، أم تراه غرفةَ أكل كبيرةً؟... هناك مائدة واحدة، عليها آكِلٌ واحد هو أنا، ولكن الأطباق كثيرة على المائدة، وكلها مُترعةٌ باللحم. اللحم فقط، دون مرق، دون خضر، دون خبز، ودون مؤاكل. ولكنه لحم صلب. لم ينضج؟ أم تراه لحم خيول؟ تذكرت أقسى

لحظات لقائي بالمدينة أنا القروي الساذج: لحظة رأيت جزاراً يبيع لحم الخيل. كيف يأكل الناس هذا اللحم؟ كنت ـ وما زلت ـ أعتبر الحصان أخا، وأخا نبيلا يستحق الحب والاحترام، ولكني وجدت الإنسان في المدينة يأكل لحم أخيه النبل، فكرِهت المدينة، تُراه إذن لحم خيول؟ كلا. لحم الخيول أحمر كلحم الإنسان. وهذا اللحم أسود قاتم، وأنا آكله دون تذوق: لم أجد له في فمي طعما، وأنا مع ذلك آكل دون توقف، واللحم يفيض عن الأطباق ويتناثر على الخِوان المستطيل، ثم على الأرض والجدران، حتى ليكاد يغطي كل الفضاء من حولي. وأنا آكل وآكل وآكل دون شَهية، دون طعم، دون توقف، ودون أمل. كنت أعي أنني أحلم، وأفكر في اعتقاد الناس في قريتي أن اللحم في الحلم هَمّ. ربما لأنهم يأكثون كثيرا من اللحم في وَضَائم الموت، فارتبط اللحم في خيالهم بالهمّ أي بالموت: يقول أحدهم إذا سئل وهو خارج من السوق عما اشتراه: «غِيرْ شْوِيًّا دْيَالْ اللّحَمْ لَهْلاَ يْوَّرِيكْ هَمّْ». هل هو هَمّ هذا الذي آكله؟ وهَمُّ من؟ لا تسأل أبدا لمن يُقرع الجرس... وهذا اللحم الذي... آكله كما أظن، يبدو أنه هو الذي يأكلني، فهو يتكاثر من حولي، وأنا أتضاءل، حتى لقد غطاني، وأخذ يخنقني كحمار الليل. وعليَّ لكي لا أختنق أن أفيق... فأفقت مرعوبا، وأخذت، بعد أن تأكدت من إفلاتي من الكابوس، ألْحُم أجزاء الحُلُمِ بعضَها ببعض، ثم ألحُم الحلم الثاني بالحلم الأول، وأحاول فهمَ البنيةِ الحُلُميةِ كلها وقراءتَها على ضوء ما أعرفه عن الأحلام. ولكن هذه البنية الحلمية لا تتكون إلا من صور؟ صور الوحش، صور اللحم... ولا صوت. وأنا أعرف من تجاربي السابقة في الأحلام أن الصور مجرد هيكل عظمي للحلم. الصوت... هو لحم الحلم، هو الذي يعطي للحلم قوته وتأثيره في نفس الحالم بعد أن يستيقظ: درجة الصوت، نبرته، تنغيمه، مصدره، ثم

بعد ذلك ذلالاته الملتبسة الغامضة فعلا ولكن العميقة والغنية والمتناصة مع كل الأصوات التي وشمت لحم الحالم وهو طفل متفتح المسَامّ.

أين أنا؟ في حلم آخر يبدو.. وحيداً أسيرا في خلاء: فضاءٌ واسعٌ خال. لا أحد غيري: لا إنسان، لا حيوان، لا نبات، ولا حتى أحجار. تراب الأرض رماد محترق، وليس بيني وبين الأفق إلا شجرة كما يبدو ولكن وحيدة، وعارية، وأغصانها يابسة بيضاء متمفصلة كالعظام. أقترب من الشجرة، فأبصر فجأة على أحد أغصانها طائرا أبيض ساكنا، أدْنُو منه: أبيضُ ناصعُ البياض ساقين وريشا ومنقاراً، يشبه، لولا لونه الأبيض وعيناه الآدميتان المفتوحتان، الطائر الخشبي الأحمر، الأعمى، الذي اشتريته الأسبوع الماضي من سائح يوناني قال لي وهو يخادعني: إنه طائر الحكمة الإغريقي، واسمه: «تِيرِيزْيَاسْ»، فانخدعتُ للسائح الكريكي اللطيف، واشتريت الطائر، ووضعته على طاولة السرير استجلاباً للضّالة.

الطائر الأبيض الناصع البياض ينظر إليّ، ينظر فيّ، إلى شيء آخر بداخلي غيري، وينظر بعينين آدميتين إنساناهما أسودان لامعان، حتى لقد أبصرت فيهما وجهي. نظر إليّ، ونظرت إليه، إلى وجهي في عينيه. وقبل أن أمد يدي، رفرف بجناحيه، ما أطولهما بالنسبة لحجمه الصغير، هل كان يطويهما؟ رفرف بجناحيه، وفتح منقاره، ونطق: «حاميم»، نعم، الطائر الأبيض الصغير نطق وقال: «حاميم»، ثم طار. بقيتُ وحدي مذهولا، أتخبط في عجب مركب: عجب من الطائر الغريب، وعجب من عينيه الآدميتين، وعجب من كونه نطق، ونطق هذين المقطعين الغامضين «حا... ميم»، عجب لم أُفق منه حتى بعد أن أفقت: فتحت عينيّ، فرأيت «تيريزياس» ينظر إليّ من وراء عينيه الطامستين، قلت له: «صباح الخير»، فرد بلَكْنته الأجنبية: «هاميم».

مْـمْمُؤَثَّى

إلى إدمون عمران المالح

... طارح ودني عالحيط، فالبلاصا الرقيقة اللي كانسمع منها كلشي، وهي كاتكول لامها:

– إلى ما حشمش غادي نشرب ليه الما القاطع راه كايعرفني.

كانت كاتكلّم على راجلها، طلقها هاذي اكتر من عام، ومن داك الساعة وهي ساكنة فالبيت اللي حدايا، هي وامّها وشي دري معاهم.

ما كنتش كانديها فيها من قبل، فعمرها 30 ولا 35 حساب، بعض المرات ماللي كاتنزوق كاتبان صغيرة، وشي مرات كاتطلق من راسها وتعقد حواجبها وتبان بحال العكوز. وانا غير كانشوف، ويمكن شي مرا نكول: «صباح الخير» «مسا الخير». كاترد بأدب وبشوية: «صباح الخير آسيدي».

ولكن من النهار اللي قريت واحد الرواية وانا كانطرح ودني عالحيط. فالرواية واحد خيي فواحد الأوطيل، كايسرق الشويفات من شي تقبا فالحيط، عالعيالات فالغرفة اللي حداه. أنا بديت كانسرق الهدرا، فالأول كنت كانسمع

غير الطشاش، ومع الوقت بديت كانفرز الهدرة، ونفرز الصوت ديالها من الصوت ديال امّها، وعرفت راجلها السّكايري وامُّو العوْرة واخْوَاتَاتُو البأَيْرَات، وعرفت امّها المسيكينة اللي عايشة معاها، وولدها البَضْعَة: «مالو؟ مشلول؟ ولاّ صبي صغير؟ ولاّ أشْنُو؟ عمري ما سمعت الصوت ديالو، كانسمع غير الهدرة عليه، سميتو «مُوسَى»»، عْرَفْتْ المشاكل ديال النفقة، وديال المحاكم، وعرفت المسلسل المكسيكي اللي كايتكلم بالعربية الفصحى، واللي كايْسَكّْتْهُمْ حتى يْسَالِي، وعْرَفْتْ الشركة اللي خَدَّامَة فيها، مَنْ الهَدْرَا ديالها على الشركة كايبّانْ بْحَال إلى هِيَا شِي مَعمل سرّي فشي هُنْكار ولا شي كاف ولا شي قِبِهْرَة كَحْلاَ: العيالات الخدامات، والشافات، والساعات، والباطرون،... وْزِيدْ وْزِيدْ.

وهي كاتهدر وانا طارَحْ وَذْنِي، وامّها غيرْ كَاتَدْعِي على السّكايري وفاميلتو... هاذي شي سيمانة وَلأَت بَاغَا تْحَجّ، عندها كالِّيك شي حَقّ فْشي حانوت، غَادَا تْبِيعُو وتحج بيه، الله يعاونها ما شي شغلي، نرجعو لبنتها... طاق طاق طاق شكون هذا تاني، مسّينا على الله، فتّحْتْ الباب وانا نَلقاهاَ هِيَا، لابْسَا جَاكِيتَا حَمْرَا وصَايَة وردية ومْسَرّحَة شْعَرْهَا لَلُّلورْ، وعلى وجهها شي زواق خفيف، فاللَّوّلْ مَا سْمَعْتْهَاش، كنت مَبْهُوط. هيا؟ وكاتدق عليَّا؟ كلت لها:

– سمحيلي ما سمعتكش.. دخْلي.

– لا.. بغيت غير نسولك الله يخليك.. واش ممكن نخلي عندك ولدي مُوسَى واحد الساعة على ما نوصّل الوالدة للمحطة.. هو مريض، وكانخاف عليه من الكريز.

– ما كاين مشكلا ألَلاَّ.. جيبيه.

خليت الباب مفتوح، باش تدخل زَعْمَا.

فالكُولْوَارْ كا يتَّسْمَعْ التلفزيون ديالها كا يغني فالمسلسل المكسيكي: «يلعب بي، كيفما يشاء» واحد الشويا وهيا تدق الباب تاني، ما بْغَاتْشْ تَدْخل.

– ها هو موسى، دَرِّي بَضْعَة ما كيهدر ما كيتحرك، فين ما حطيتو يبقى، ولكن إلَى هدرتي معاه يفهمك من الحركة د شنايفك. غِيرْ إلَى جاتو الكريزْ وَبْدَا كا يضرب بيدّيه، عطيه هذا الكينة عفاك، انا غير واحد الساعة ونرجع، الله يخلّيلْكْ امّيمْتك.

– الوالدة الله يرحمها.

– الله يرحمها آسيدي ويخليلك اللي عزيز عليك، ما غاديش نتعطل.

هزيتْ الوَلْدْ بِينْ يَدَّيّآ، وحطيتو على السدّاري قدام التلفزيون. فعمرو خمس سنين ولا سْتَا، دَرّي زوين من وجهو. كا يظهر مْهَدَّن، ولكن مسكين زيزون، ورجليه عُوجِينْ.

شدّيت الباب ورجعت للسرير اللي كنت ناعس عليه، ورايا الحيط وكدامي الدرّي، شفت فيه وشاف فيا، الشوفا دْيَالُو صَافْيَا مَا فيها لا دَهْشَة ولا خُوفْ، لا فرْحَا وْلا قَلاق، بحال شي حيوان صْغِيوَرْ عاد خْرَج للدنيا.. نهدر معاه؟ نجيبلو شي حاجة يشربها ولا ياكلها؟ نشعل ليه التلفزيون؟ درت بحال إلَى ما كَايْنْشْ وهزيت الكتاب ديالي ودَرْتْ راسي كانقرا.. شويا وانا تبْدَا تقْرَا بَصَّحْ. الكتاب كان عامر بالشعر، قْصَايَدْ ديال الهايكو، وَحْدَة منهم كاتكول:

«باش تدير قصيدة

كا يخصك تقْتُلْ.

تقتل بزّاف دْيَال الحوايجْ اللي كاتبغيها»

دْخُلت مزيان فالكتاب ونسيت الدَّرِّي، ما فطنت حتى بديت نسمعو كايكول شي حاجة، هزّيت عينيا فيه، سمعتو كايكول بشوية: «مْـمْمُؤَنَّى».

– أَشْنُو.

– مْمْمُؤَنَّى.

ما فْهَمْتْ والو، كلت ليه بيدي وبفمي:

– تشرب؟

– مْمْمُؤَنَّى.

– تاكل؟

– مْمْمُؤَنَّى.

– تمشي للتواليت؟

– مْمْمُؤَنَّى.

بغيت نكول ليه باللي ما عنديش هذا المؤنى، كلت ليه بفمي وبيدي: «مْـمْمُؤَنَّى... مُووأَنَّى».

بدا كا يبكي ويغوت: «مْمْمُؤَنَّى... مْـمْمُؤَنَّى... مْـمْمُؤَنَّى»، وانا نبدا نْعَيِّبو، درت بحال إلى كانبكي وانا كانكول: «ممؤنى.. ممؤتى... ممؤتى».

سْكَتْ، وشاف فيا شي شوفة ديال الكبار، وهز واحد الكتاب حْداه وضربني بيه، ما وصلنيش الكتاب نَضْتْ لعندو. كعدت على كُرسي كدامو، وحاولت نْفَهْمُو، الدّرّي رد راسو للحيط وسكت، تخاصم معايا يمكن، حاولت نرد لو وجهو لعندي، ما بغاش، وسكت، ما بْقا كايكول حتى مُؤَانّى دْيَالو، وَلَّى غير كايبكي ووجهو للحيط.. خلِّيتو ووقفت، طلّيت من الشَّرْجَم،

وبْديت كانغني الأغنية ديال المسلسل المكسيكي: «يلعب بي، كيفما يشاء» وانا نسمع الدرّي كا يضحك، شفت فيه لقيتو كا يضحك بَصَّحْ، كا يشير بصَبْعو للتفزيون المطْفي ويضحك. عاودت الأغنية «يلعب بي، كيفما يشاء» وهو يْزيد فالضّحْك، بْديت كانضحك معاه: «والله أولدي ما عرفت شْكون كا يلعب بَشْكُون» وهو كا يضحك ويشير للتلفزيون ويكول: «مْـمْمُؤَتَّى». مديت لو يدي وكلت ليه: «مُوأتَّى».

ضْرَبْ بيْدُّو على يَدِّي وبْدا كا يشيّر ليا ويكول: «مُوأتّى« بحال اللي كانكولها أنا: غليظة وقصيرة ومْتَفْتقَة. كايْعَيّبْنِي العْفِيرِيتْ.

حنا مازالين كانضحكو وَامُّو تدق الباب.

تْعَجْبَات لما شافت ولدها كا يضحاك، خْداتو من بين يديا وشَكْرَاتْني. العَجَابْ هُوَ لَمَّا تْمَاسُّو يَدِّينا ما حسِّيت بْوَالو، بحال إلى سَلَّمْتْ عْلَى الوالدة، وعينيًّا كانت حاطة على موسى، مدّيتْ لُو يدّي شدّْ عليها عليها بْجُوجْ يَدِّيه، كلت لو: صافي؟ حنا صحاب؟ هزْ راسو وهو كا يْتْبَسَّمْ، بغا يتكلم، يمكن بغا يكول «مْـمْمُؤَاتى»، وقبْل ما يكولها بدا كا يضحك، على راسو يمكن، ولا على مُؤَاتَّى دْيَالو، وَلَّى كَايَشْحَمْ يْكولها... أنا اللي لَصْقَاتْ فيَّا. الدنيا كلها وَلاتْ كَاتْبَانْ لِيا «مْـمْمُؤَتَّى» حِيتْ الحوايج اللي ما كتَعْجَبْنِيش كَتْرَاتْ والناس اللي ما كنَعْجَبْهُومْش كَتْرو، ووَلِّيتْ حتى أنا كانصغار وتَعْوَاج ونتْزِيزَنْ... واللي كال ليا: مالك؟ نكول ليه: «مْـمْمُؤَتَّى».

الفِيَلَةُ تصعد الجُلْجُلَة

وزنة 117 كيلو، طوله 1.80، مقاس حذائه 48، أما المقاسات الأخرى فلا يعرفها أحد، لم يتحدث هو عنها، ولم يجرؤ أحد على سؤاله. اسمه حمدون، ولكننا نتحدث عنه - حين يكون غائبا بالطبع - بلقبه (الفيل). هو صديق طيب، مرح، وصريح وإن لجأ إلى العنف أحيانا، ولاسيما حين يُهان لا خطر من التواجد معه وسط جماعة. ولكن، حين أكون وحدي معه، فإني أخاف من... ابتسامتي إذ يصبح «الفيل» حينئذ أكثر جدية، ويحدثني بحرارة وحميمية عن مشاكله الـ... عاطفية. ولأن هذه المشاكل بسيطة وساذجة، ولأنه يتحدث عنها بجدية الحديث عن مشكلة الشرق الأوسط، ولأن الحب منذ زمن طويل مُغْرِقٍ في التاريخ يتنافى مع الأحجام الضخمة، ولأن لي موقفا خاصا من الحب على الطريقة المغربية... لكل ذلك فإني أنساق إلى الابتسام الساخر وأنا أستمع إلى «الفيل» العاشق. ولكن إحساسي بالخوف من التقاطه لسخريتي يردعني. وهكذا أعيش طيلة حديثه الحميمي الخاص، في عذاب التردد بين السخرية والخوف، فأتجهم قليلا، ثم أبتسم تلقائيا، ولكني

أصطنع على الفور سمة المشاركة الوجدانية، وأحوّل الابتسامة الساخرة بسرعة إلى ابتسامة متفهمة، وأدلي بمشورتي، وأقدم نصائحي. المشكلة أنه لا يطلب المشورة والنصائح إلا في الظاهر، أما في العمق، فإنه ينتظر مني أن أحسده، وأن أبرز هذا الحسد في شكل إعجاب به كعاشق وكمحبوب وكإنسان كامل وسعيد. ولم يكن عندي مانع من أن أغدق عليه الإعجاب الذي يريد، بل ربما بالغت في ذلك أحيانا. وهو ما جعله ربما ـ مع الزمن ـ يحس بالتعالي، وينظر إلينا في رثاء، لأننا لسنا عاشقين ولا محبوبين ولا كاملين ولا سعداء... إلى أن حدث ما حدث في ذلك المساء:

كنا في المقهى نستمع إلى «الفيل» وهو يحكي إحدى مغامراته في العشق. في الحقيقة كنت وحدي أستمع إليه مضطرا. الآخرون انخرطوا في أحاديث ثنائية جانبية، أو في تصفح الجرائد. فجأة سكت «الفيل». رفعتُ عيني إليه، فوجدته منشغلا عني بتتبع شحاذة دخلت المقهى: فتاة في مقتبل العمر، جميلة لولا الثياب المهلهلة ونحول الوجه وضمور القد، ولولا الوضع الذي هي فيه مارةً بكل الطاولات، واضعة على كل واحدة منها وريقة صغيرة مكتوبة، مادة يدها في صمت، وبابتسامة حَيِيّة تشبه الاعتذار.

حين وصلتْ طاولتنا بادرها «الفيل» قائلا:

– أنت جميلة جدا. لماذا تتسولين؟

– وماذا أفعل بالجمال؟ آكله؟

– يمكنك أن تفعلي به أشياء كثيرة.

– لا أريد أن أفعلها.

– لم لا تتزوجين؟

– ومن يتزوجني؟ أنت؟

– نعم. أنا. تعالي نتفق في الخارج.

– ولم لا نتفق في الداخل؟

– لمناقشة هذه الأشياء، يجب أن نكون وحدنا. كان مكتوبا في الوريقة: «انظر بعينك، وارحم بقلبك» وقد نظر «الفيل» بعينيه معا، ورحم بقلبه الغَزِل، فتبع الفتاة حين جمعت ما جاد به الزبائن وخرجت. بعد حوالي دقيقة أو اثنتين سمعنا صرخته الحيوانية الحادة، فهرعنا إلى خارج المقهى. كان «الفيل» منحنيا وقد وضع يده على وجهه، وكان الدم يقطر من بين أصابعه. وقبل أن نعرف منه ما حدث، سمعنا تعليقات أرباب الشارع: (حراس السيارات وماسحو الأحذية وبائعو الديطاي والندل وصبية الدكاكين وبوابو العمارات وبائعات الهوى والمتسولون والمتسكعون (...)، وفهمنا من هذه التعليقات أن حظ «الفيل» السيء أوقعه بين يدي فتاة خطرة «شرّطت» وجهه بشفرة حلاقة، وأنهم يسمونها «الزيزوار» لمهارتها في استخدام هذه الشفرات.

استدعينا سيارة إسعاف، وحملنا «الفيل» إلى المستعجلات، حيث خاط الأطباء جراحه. الغريب أن وزن «الفيل» بدأ يتناقص مع تماثله للشفاء. لم يستطع، أو لم يرغب، في إجراء جراحة تجميلية، وظل وجهه يحمل آثار الاعتداء. ولكن هذا كان بسيطا بالنسبة لما حدث له على أصعدة أخرى بجسمه وبروحه معا: تراجع وزنه إلى حد مخيف، ولم يتناسب هذا التراجع غير الصحي مع الإطار الضخم لجسده القديم، فأصبح يبدو كطفل يلبس جسد أبيه بهت لونه الوردي، وانطفأت ضحكته المجلجلة، وجفت ثرثرته وانكفأ إلى صمت حزين، صمت مظلم منسحب عازف. كان يذبل كوردة ملقاة، ويرفض الاستجابة لمحاولات أهله أن يعالجوه... إلى أن أسلم الروح ذات صباح

في إحدى المصحات.

قبل موته بيومين، زرته في المصحة. قلت له: لماذا تستسلم للضعف هكذا؟ حاول أن تقاوم، ما حدث لك يحدث لكثير من الناس في أزقة المدينة ليلا ونهارا. ولكن الحياة تستمر وتتقدم، والناس يتجاوزون ما يحدث لهم وينسون. حاول أن تسترجع مرحك وإقبالك على الحياة، وأن تعود – لم لا؟ – إلى ولعك بالجمال، وإلى مغامراتك العاطفية.

ابتسم ابتسامة واهنة خجولا، وقال في صوت خافت:

– المشكلة أني مازلت أحبها.

– من؟

– «الزيزوار».

الباب المفتوح

.1

خرجت تجري والساعة في يدها قد غادرت السابعة ببضع دقائق.

كانت قد نسيت مفتاح البيت علي طاولة المطبخ. أخذت تعدو في الشارع كي تلحق حافلة الخط السابع والعشرين.

تعدو في الشارع والعين تناشد تلك الساعة في يدها أن لا تسبقها كالأم تخاف على ابنتها أخطار الشارع. تعدو تعدو تعـ... عثرت في إحدى حفر الشارع، كف الكون عن الدوران، انكسر الطالونُ، تمزقت الصايةُ، حتى الركبة رُضت.

جلست فوق الحفرة تندب حظ اليوم، ومرت، وهي تلم حوائجها المنثورة حافلةُ الخط السابع والعشرين. شرِقت بالدمع وأنّتْ، ومضت كالبرق بداخلها ذكرى رجل كانت تعشقه وحَرَقْ.

عادت تعْرِج نحو البيت على مهل، رسمت في الذهن برامج أخرى لليوم، المصعد لا يعملُ، صعِدَتْ نحو الشقة سُلَّمةً سُلَّمَةً، حين اكتشفت أن

المفتاح...

وقفت تضحك كالمخبولة دون توقف.

تضحك تضحك... وهي تريح الجسد المهدود على باب البيت المسدود.

.2

في تلك اللحظة كان الكوكب نمسيسْ.

يُفلت من (لا يدري أحد كيف) مدارِهْ.

رصد العلماء الحادث بعد سنين.

حَسَبُوا السرعة والكتلة والطاقة، واستجلوا خط الإفلات وحظ الإفلاتِ، فلم يجدوا ذَرة بُدٍّ من هول الكارثة المقتربة :

يصطدم الكوكبُ نمسيسُ بكوكبنا الأرضِ على الساعة... في اليوم... من الشهر... من السنة الجارية... الجارية؟ الجامدةِ / الواقفةِ... الآخرةِ المرتقَبَة. كانت هي قدْ احتازت محنا في تلك السنوات العشرْ.. تَسريحٌ / عملٌ / تهديد بالفصلِ، وجيرانٌ أسوأ من شافات المعملْ.

وتزوجتِ المرة تلو المرةِ دون نجاحٍ لا أطفالَ، (لحسن الحظ يقال) لسوء الحظ تحسُّ، تحس بأثقال العيش اليومي كأكياس الاسمنت على كاهلها الواهنِ لا تدري كيف ولا أين... متى ترتاحْ.

ها هي مثل جميع الناس أمام الشاشةِ تنظرُ تنتظر الكارثةَ الزاحفة الآن ولا تشعر، عكس جميع الناس، بحزن أو خوفٍ أو... تشعر، عكس جميع الناس، بحاجتها للنومْ.

تتنسم في فرح أنسام الراحة من تعب العيش وقد حطت عن كاهلها الأثقال.

لكنَّ الشاشةَ تهتز بصيحات الفرح المذهول، وخلف النافذةِ اندلعت كالنار زغاريد الشارعِ، كان العلماء، نجومُ الشاشة في الأزماتِ، يفيدون بأن الكوكب نمسيس تفادى الأرض، ومرّ بجانبها في سرعة ضوء الشمس يتابع رحلته نحو المجهولْ.

فتحت فاها مندهشة. وقفت... تتحرك في الحجرة لا تدري ماذا تفعلُ.. ثم، بدون شعور، أخذت تضحك، كالمخبولة، دون توقفْ.

تضحك تضحك.. وهي تريح الجسد المهدود على باب الموت المسدودْ.

غُفْرَانْ الأبَجِيم

أ:

الآخر؟ الآخر لا يفرض نفسه عليك لأنه يضايقك، أو لأنه يزاحمك، أو لأنه يخدعك وينْصِب عليك؛ بل لأنه داخلك، لأنه محاك كليا، وأصبح هو أنت. لم يمر عليك يوم، ساعةٌ/دقيقةٌ في عمرك الطويل كنتَ فيها أنت (فلا أنتَ لك)، كنت فيها موجودا، لأنك كنت دائما: «هو»، «هما»، «هم»، «هن». كنتَ دائما كما يظن الآخرون، كما يطلب/يتوقع/ينتظر منك الآخرون. وحتى الذين لا يتوقعون منك شيئا، لا/حتى/يشعرون بوجودك، تراعي حقولهم المغناطيسية، تمر بينها محاذرا كأنك (لأنك) دون مغناطيس. وبعد أن تمر، تلتفت، وبانحناءة صغيرة، وبابتسامة مهذبة، تعتذر عن... وجودك... وتغيب، حتى يرغمك الوجود على الوجود، وعلى الشعور الزيتيِّ الثقيل بالآخرين، وعلى المرور المسموح بينهم مرة أخرى... وعلى الاعتذار، وعلى الغياب... مرة أخرى... وأخرى... وأخرى.. فمتى توجد؟ أو على الأقل، متى تكونُ المرة أخيرة، وتغيبُ إلى الأبد، «تَغْبَرْ»؟ متى؟

ب:

سادية لا مبرر لها. بلى، لابد أن لها مبررا، فكل انفعال شُبهة. والذي فيه الفزّ... ماذا يهمك أنت إن كنتُ أنا موجودا أو لَمْ... شعر بيَ الآخرون أو لَمْ... أنت أيها المحْبَط المتوحد العازف الممرور، أيها الخائب العائب الشائب المِلَنْخولِيُّ الكئيب، أيها المنسحب السُّلَحْفائي... اخلُق لنفسك وهما بالاختلاف أو بالاستقلال أو بالمغناطيس الطارد. اخلُق لنفسك وهماً اسمه الهوية أو الخصوصية أو الحرية أو الشخصية. وامح الآخرَ كل آخرَ كما تتخيل. واجمُد كتمثال من الملح في أطلنتيدك الخرافية حتى يُفتتَك قزَحُ المطر حين يشدُّ قوسَه الأطفال من كل الأجناس. اخلُق لنفسك وهما أيها المتشرد واسكنْ فيه إذا شئت، ولكن لا تنعب فوق رأسي كالغراب كلما حاولتُ أن أندمج/ أنتميَ/أنتسبَ/أصادقَ/أعرفَ/أفسرَ/أنْظِم/وأنتظم، أن أحِب أو أحَب، كلما حاولتُ أن أكون.

ج:

خير الأمور أوسطها. والفضيلة وسط بين رذيلتين. وإذا كان سوء الظن من الحزم، فإن حسن المعاملة من الذكاء. وما التطرف إلا سُوءُ تعرف، لأن الناس أعداءُ ما جهلوا، أو أعداءٌ ما جهلوا، فإذا عرفوا تكاشفوا وإذا تكاشفوا تناصفوا فألِفوا وتعاطفوا. ومنذ قرنني الله بكما وأنا أعاني الأمَرَّيْنِ بل الأمرِّينَ من صراعكما البائس حتى أصبحت الأنا تدل على الفرد والجماعة، وعلى الذات والموضوع. وحتى أصبحت «نا» لا تدل على الفاعل بل على السيزوفرينيا. وبمناسبة السيزوفرينيا، فلا أعتقد أن هذا كله ينتج إلا من احتقار الجسد أو إهماله أو تحميله تبعات أوهام القرون الغابرة عن الخطيئة الأولى. لأن

كل أدواء النفس من جوع الجسد، والنفس السليمة في الجسد الشبعان. الذي يأكل جيدا ويشرب جيدا ويمارس الجنس جيدا، وينمو ويتريض ويلبس وينام ويتنظف ويتمرأى ويَفتِن ويُفتن جيدا وجيدا وجيدا و... إذا شبع الجسد قال للنفس غني فتغني:

عَوَى الذئب فاستأنستُ بالذئب إذ عوى

وصوَّتَ إنسان فطرت بريشي

يقع الطيرُ حيث ينتثر الحب وتُمْحَى خصائص الإمَّعات

أبَجِيم:

أنا أنتم وأنتم أنا وَهُمّ. لكن الإنسان اجتماعي وَلا ينفرد إلا الحيوانُ الحيوان، لكن الإنسان كائن منفرد ولا ينخرط في القطيع إلا الحيوان، فقل يا أيها الكافرون الكافرون، لكن المومنين إخوة/كإخوة يوسف/متساوون كأسنان المشط/منفردون لا يلتقون كأسنان المشط/كفى.. مالنا ولهذا الأقرع نمشط رأسه، وإذا بقيتُ معكم انفجرت رأسي، فافرنقعوا عني يا سرب البوم بوووم.

غفران الأبجيم:

... وظل الأبجيم ينتظر دهورا وهو يسمع النداء بالأسماء يتردد في عرصات القيامة، أي ساحاتها، وتسمع معه كل الأجيال من كل الأجناس والأمم، ويطرق سمع المنادى المعني كالمطارق حتى يهب ويستجيب، ثم يتقدم

للمحاسبة فالثواب أو العقاب. ظل الأبجيم ينتظر دهورا يبدده الفزع الأكبر وتتجاهله الملائكة الذين يستنجد بهم، ويرى الناس من هنا وها هنا يتسارعون على السراط فيسقط من يسقط من الأشقياء في السعير، ويعبر من يعبر من السعداء إلى النعيم، بينما يغرق هو في العرق حتى يشرق، ويجتر الانتظار والحيرة حتى يغص. فلما أقفر المحشر وانفض الثقلان وبقي وحده معلقا في فضاء القيامة لا هو سعيد بين السعداء في الجنة ولا هو شقي بين الأشقياء في النار، بعِل بالأمر أي أعياه التفكير فيه والبحث عن مخرج منه، حتى أنقذه من الحيرة ملاك عابر أدهشه وجوده بعد انفضاض البعث، فسأله عن أمره، فلم يُحر جوابا، فقاده إلى خزنة الديوان الأعظم، فترفقوا به وسقوه شربة من رحيق الجنة ثبتت جأشه وأنعشت روحه، وعرفوا منه تفاصيل أمره ودقائق حاله من الاسم والجنس والبلد والأمة والحقبة والجيل، ثم بحثوا في سجلات الديوان الأعظم عما إذا كان له وضع اعتباري أي تولى أمرا من أمور السلطة، أو وضع استشاري أي كان مستشارا لأحد أولي الأمر، أو وضع اجتراري أي يكرر ما يقوله أولو الأمر والمستشارون ويدعو إلى تصديقهم، أو وضع انتظاري أي كان مرشحا لأن يعتبر أو يستشار أو يجتر، أو وضع احتقاري أي كان يحتقر هؤلاء جميعا لأنهم يسعون إلى أوضاعهم ويحتقرونه لأنه يستنكف، أو وضع اصطباري أي كان يسلم لهم ويصبر على بلواهم ويعطيهم ضرعه البكيء ليحلبوا علالته حتى ينز بالدم دون مري أو إبساس. فلما لم يجدروا اسمه في أي وضع بين الأوضاع مروا به على قوائم الذين كانوا تحت راية الهوية يمجدون الخانق ويلعنون الخافق، والذين كانوا تحت راية العولمة يعزّرون المارق ويطوقون الآبق، والذين كانوا تحت راية الأصالة يوقظون بالوخز الدناصير، أو كانوا تحت راية المعاصرة يتأبنون زوج الأم، أو كانوا وكانوا وكانوا تحت رايات كثيرة يفعلون

ويتركون، فما وجدوا للأبجيم الناشز ذكرا في كل القوائم.

وبعد التشاور مع السيرافيم وهم رؤساء الملائكة، صدرت التعليمات بمحاكمته، فعقدوا له محاكمة استعرضوا خلالها حياته البيضاء كثلج الغربان، والباردة كثلج الثلاجات، والشاذة كثلج الصحراء، وحكموا عليه بالعودة العاجلة إلى الدار العاجلة، ولكنهم نسوا أن يعيدوا تركيب جيناته الوراثية بما يتلاءم وأوضاع العالم الذي سيولد فيه. وهكذا نزل إلى رحم الأم الجديدة كما كان قد نزل إلى رحم الأم القديمة أبجيما كامل الأوصاف مكتمل الجينوم.

لُولُّو

إلى الأستاذ عبد الغني أبو العزم

المذكرات:

I. ضوء ساطع باهر، يكاد يخطف البصر، ربما لم يكن نابعا مباشرة من مصدر ضوء،ربما كان انعكاسا على سطح معدني، صينية نحاس مثلا. أمد يدي إلى الضوء الساطع الباهر. لأتلمسه؟ (حاسة اللمس عندي حينئذ هي الحاسة الأولى). لآكله؟ (كنت أدفع بكل شيء لمسته إلى فمي، هل كان جوعا حاضرا؟ أو إرهاصا بجوع آت؟). لأتعرف عليه؟ ما هو: شيء أو شخص؟ سطحه: خشن أو أملس؟ ناعم طري أو صلب؟ حرارته: ساخن أو بارد؟

ولكن يدي لم تصل. كنت أقْصر أوْ كان أعلى. ولم أمَلّ. كنت أمد يدي باستمرار نحو الضوء الساطع الباهر. وكان الكبار حولي يفرحون لاهتمامي ويُنَوِّهون بحركتي. ولكنهم لم يقربوا الضوء إليّ، ولم يقربوني نه، ظلوا فقط

يفرحون ويُنَوِّهون، ويشيرون لي إلى الضوء وهم يقولون: «لُوللّو، لُوللّو». عرفت اسمه على الأقل «لُوللّو». ولكن هذا كل ما عرفت عنه، لم تفتُر قطّ رغبتي في لمسه. بل ظلت هذه الرغبة الحارة تتقد وتستعِرُ في عروق كفي حتى اليوم.

II. كان يأخذ بيدي ونحن نسير إلى الزاوية. وكان يوصيني: «أنا، اباك، يمكن أن لا تثق بي. أنا رجل من عامة الناس خطّاء تواب خطّاء.. جمر البارحة نحن، كلنا منطفئون. أما الشيخ فوجهه كالكوكب الدري يوقد من شجرة الله فلا يخبو أبداً. إنه رجل مقدس. وهو أحد الأبدال الأربعة لهذا الجيل على الأرض، فعليك أن تحبه وتقدسه لكي تغرف من بحره. لكي تقبس من نوره وتتنوّر. أنا أعرف عنادك. أنت ورأسك الصحراوي. أنا أريك النجدين، وأنت تختار. ها نجد الشيخ، نجد العلم والولاية والنور. وها نجد الشيطان، نجد السخط، والعياذ بالله، نجد الشقاوة والنار. هل تسمعني؟ عليك أن تختار. الآن وإلى الأبد».

واخترت. هل هذا اختيار حقا؟ وثِقتُ بأبي الخطّاء التواب، ودخلت معه إلى الزاوية.

كان المجلس غاصا بـ «الفقراء» ذوي الجلابيب البيض والعمائم البيض. وفي قلب المجلس كان الرجل الأخضر يجلس: عمامة خضراء. عِبَاءة خضراء. سبحة خضراء. ووجهه المدور مقصوص اللحية (حَشَّ الفلاح للعشب). كدت أتصور اللحية خضراء أيضاً كالعشب لولا أنّ وجهه خارج اللحية المشذبة أحمرُ قانٍ يكاد الدم يتفجر منه. هل هذا هو النور؟

III. انتظرت عدة سنوات وأنا أقرأ في الزاوية القرآن والمتون، قبل أن يُنعم عليّ الشيخ بالدخول إلى حلقته الداخلية: حلقة تنعقد في الليل، بعد

أن ينصرف طلبة النهار، ولا يحضرها إلا المريدون المرضيّ عنهم. المريدون الذين يتوسم فيهم الشيخ مخايل النجابة. كنت أسمع عن هذه الحلقة من قبل، وأتخيلها جنة صغيرة فيها كل ما تشتهيه النفس وتلَذه العين وتلعب به الأطراف. وحين دخلتها فوجئت بعالم آخر. صحيح أن فراش غرفتها وثير، وأن ماء الورد يُرش على المريدين، ومجامر الند والبخور توضع في زوايا الغرفة ووسْط الحلقة. وصحيح أن الأكل فيها لذيذ، والحديثَ هامس باسم. لكن هذا كله مجرد مقدمات. الأساس في الحلقة هو الوِرد الذي يبدأ بعد هذه المقدمات. الوِرد من إبداع الشيخ نفسه، إذ بعد القرآن، والمتون التي ألفها العلماء القدامى، يأتي وِرد الشيخ: أذكار خاصة يتردد فيه اسم الله كثيراً، وبإيقاع خاص، تتحرك معه أجساد المريدين في رقص هادئ يتحرك بالتدريج ويتحرر حتى يصبح «جذبة» محمومة معروقة مذهولة تتساقط معها / منها أجساد المريدين واحدا بعد الآخر في حالات إعياء وإرهاق وإغماء. ولا يبقى إلا الشيخ الأخضر جالسا هادئا مبتسما يوزع البركة بأنامله السمينة يمينا ويسارا وهو يردد اسم الجلالة في فمه النديّ المعطر كأنه يمضغ حلوى، وسْط مريديه المتساقطين بأفواههم الجافة وحلوقهم الناشفة وعرقهم الساخن.

في بداية الأمر، كنت أردد الوِرد بإخلاص ونظام، وأرقص مع الراقصين وأتساقط معهم ليلة بعد أخرى. كان الإيقاع اللاهث والهاءات المختلطة والأنفاس المبهورة والجماعة والأضواء والأصوات والحركات والتكرار... كل ذلك كان يصيب الجسد بالحمى، ويذهل المريد الوافد، مثلي، عن الزمان والمكان والحضور، فلا يبقى منه / فيه إلا صوتٌ يتردد في لهوجة، وجسد يتحرك في عنف، وعقل يغْرُبُ في أفق الغرفة الخضراء المضمخة حتى يغيب.

ولكني، مع الوقت، سئمت ذلك كله، وتطلعت إلى ما وراءه. وكنت

أجيب الشيخ حين يسألني عن فتوري:

– لا أدري. أحس بالحاجة إلى شيء آخر أكبر أو أعمق، أدق أو ألطف ربما. شيء آخر على كل حال.

وما زال الشيخ بي يحاورني ويداورني ويقلب أفكاري وخواطري حتى حدثته عن (النور).

النور الذي تراءى لي في طفولتي الأولى. النور الذي حدثني أبي عن وجوده في الشيخ، والذي ظللت أطلبه وأتطلع إليه منذ دخلت الزاوية قبل سنوات عديدة. النور الذي قرأت سيرته في كتب الأولين منذ هبط من السماء إلى الأرض... ثم تنقل بين الأنبياء والأولياء والعلماء. فهل لشيخي علم به يا ترى؟ وهل لي إليه سبيل؟

ابتسم الشيخ في تسامح العارفين الواصلين، ووضع يده السمينة الطرية البيضاء على كتفي وهو يقول:

– أنت من أهل الحديقة.

– أية حديقة؟

– الحديقة الداخلية للزاوية. تعال.

IV. كان يأخذ بيدي ونحن نسير إلى الحديقة. وكان يوصيني: «أنا مجرد بابٍ يا ولدي. يتساقط دوني المظلمون المنطفئون. وينفُذ من خلالي الواصلون. المستنيرون. وأنت منذور للدخول. فادخل. وفتح لي باب الحديقة، فدخلت.

لم تكن حديقة في الحقيقة. لم تكن بها أشجار ولا ألعاب كما كنت أنتظر. وإن كان يشيع في فضائها حفيف خفيّ ومرح خفيف، تشعر بهما بالحدس ولا تدركهما بالحس. هي قاعات واسعة يفضي بعضها إلى بعض.

تتناثر في زواياها الأرائك والوسائد وتتوسطها فسقيات الماء وحلبات الرقص. ويضيئها نور مجهول المصدر، هادئ ولطيف ومريح للعينين والأعصاب، كأنما هو نور قمر صبيّ لما يكتمل بعد بدراً.

وشيئا فشيئا، ومع مرور الوقت، تتحرك موسيقى خافتة لا تكاد تتبينها الأذن حتى تتعودها، كأنما هي جزء من وجود الحديقة، كأنها حركة هذا الكون الداخلي (هل أقول الباطني؟) الغامِض المجهول.

وشيئا فشيئا، ومع مرور الوقت، تتبين العين أشخاصا جالسين أو مستلقين أو متحلقين، يشربون أرحقة خاصة في كؤوس خاصة، ويتبادلون النظرات العطشى والبسمات الرَّيَّى والكلمات المهموسة. وفجأة رأيتُها. لم تكن طفلة ولم تكن فتاة. كانت امرأة مكتملة الخلْق ناضجة الأنوثة لا تلبَس إلا إزارا أحمر رقيقا شفافا يختلط لونه حين يلتصق بالجسم بلون البشرة فلا تذكر أيُّهما لأيِّهما. ويُهَفْهِفُه أحيانا نسيم داخلي تبثه حركاتها الراقصة فيفيض عن الجسم وينفصل عنه ليعود إليه. كأنه ليس ثوبا. كأنه زَبَد الأنوثة الجياشة يمتد على ساحل جسمها ويَنْجُزُ تحت أشعة ذلك القمر الغلام.

قد يكون دهر مر عليّ وأنا مشدود كالمسحور إلى الجسد الأحمر الراقص. حتى حين غاب. متى غاب؟ — ظللتُ مشدوداً إلى صورته في ذاكرتي الجديدة أتأمله وأتملاّه في الفضاء الفارغ إلا مني، ومن الصورة المتحركة في خيالي. وحين عاد — متى عاد؟ — دخل، دون أن أحس، في صورته المتموجة الحمراء، وتابع الرقص أمامي.

وظل هكذا أياما يحضُر حاضراً، ويحضُر غائبا، وهو في كل ذلك يقترب مني، ويتكشف لي جسداً جسداً جسداً... بَشَرةٌ دانية مبتعدة، وشعرا غامراً منهمراً، ووجها غريبا ككل فاتن، أليفا ككل حميم، وثغرا مفترا فباسما فهامسا

لي أنا، لي أنا، لي أنا يقول: تعال معي. فتعاليتُ. وهربنا معا من الحديقة.

V. كانت تأخذ بيدي ونحن نخرج إلى العالم، وكانت توصيني:

«الإنسان خُلق ليعيش، لا ليدفِنَ نفسه في زاوية أيا كانت. اخرج معي إلى العالم الكبير، وجُل في أرجائه، ولا تنس أنك رجل وأني امرأة. ولا تنس أن تنسى ما عدا ذلك، كلَّ ما عدا ذلك».

فخرجت معها وجلتُ كأنني لم أخرج ولم أجُلْ، لأنني كنت، وأنا مسافر معها، مسافرا فيها. كانت المرأة الحمراء جسدا محضاً. أو هكذا بدا لي في البداية. لكنه جسد متنوع. جسد حافل بالهضاب والوديان. بالعشب والنوّار. بالأحجار النفيسة والكنوز الخفية. والأشكال الفاتنة والأوضاع المثيرة.

كلا. لم يكن جسدا فقط. كان كرنفالاً من الألوان الوامضة المتموجة الرجراجة الحمراء الصفراء، الحمراء السوداء، الحمراء الزرقاء. الحمرة غالبة مستقرة، والألوان الأخرى تشتعل وتخبو حولها باستمرار كأنها مركبة فضائية تقترب من كوكب المريخ.

ولم تكن جسدا فقط، كانت تستبطن داخله عالما آخر من العواصف دوّخني وأنا أحاول الدوران معه والتأقلم مع متغيراته السريعة والمفاجئة.

قلما يئست من أن أصل إلى حد من حدود هذه المرأة الحمراء (هل كان له حدود؟)، وأرقني تقلب العاطفة وتعقد العلاقة واضمحلال الهوية، تراجعت.

تركتها دون وداع، وعدت إلى قريتي مريضا بالحمرة كثور إسباني. كلما رأيت شيئا أحمر استوفزت وقَفَّ شعري وجحظت عيناي وانتصَبت قرون استشعاري، وتهيأت لِلْهُجُو.. للهرب، فلم يكن قد بقي في جسمي موضع إلا وفيه أثر أحمر للمرأة الحمراء. تراجعت تراجعت تراجعت حتى انتبذت مكاناً

قصيا عن القرية، وعكفت في كوخ بسيط على حروحي أداويها، وعلى نفسي أواسيها، وعلى مُنَمْنَمَتِي أرسمها.

المنمنمة:

صفحة كتاب. مجرد صفحة. لكن كأنها قطعة حياة. قطعة ظاهرة من حياة أكبر منها تمتد عن يمينها ويسارها وفوقها وتحتها. لا يحدها إطار. لا خطٌّ يحيط بالمرسوم على الصفحة، ولا بياضَ بجوانبها ولا رقمَ ولا عنوان. مجرد صفحة مرسومة. والرسم على طول الصفحة زاخر بالوجوه والأشياء، غني بالتفاصيل الدقيقة التي يحتاج بعضها إلى النظر الثاقب المتفحص ليبدوَ أوضح أو أجمل أو أدلّ أو أنفذ أثرا.

أول ما يبدو من الرسم وجه أنثوي باسم. أول ما يبدو لأنه ربما مركز الجذب في الرسم رغم أنه في الجانب الأيمن. مركز الجذب لأنه وجه أنثوي ربما، أو لأنه يأخذ على الصفحة مساحة أكبر من أي وجه أو شيء آخر في الرسم، أو لأن تفاصيله واضحة حية من النظرة الأولى، وحتى بدون تفرس أو تحديق، أو لأن في عينيه نظرة غاوية غواية عجيبة، لأن نظرة العينين ليست مباشِرة بل مُواربة، فكأنهما تنظُران عَرَضاً أو تنتظران عَرْضاً، وكأنهما واثقتان من قوة جذبهما بحيث لا تحتاجان إلى رفع النظرة أو توسيعها أو تسديدها.

وعلى الجبين عصابة صفراء عليها خربشات دقيقة سوداء كالنمل بل كالذّرّ، لا تكاد تُرى إلا بالتمعن. هل هي كتابة فتحتاج إلى مِجْهر لقراءتها؟ أو هي لعب جمالي بدرجات اللون الأصفر في مساحة محدودة؟ أو هي ظنون المرأة / هواجسها / نواياها / فخاخها / مخاوفها... تطل سوداء من عصابتها الصفراء كما لو من زجاج نافذة شفاف؟

ومن العصابة الصفراء يخرج يهطل يتدفق شلال شعرها الأحمر القرمزي.. غير أنه لا يتدفق عموديا كالشلال، بل يهطل متفرقا منتشرا كالمطر في يوم ريح، يحس الناظر أن في الرسم، وراء الرسم ريحاً رُخاءً تعبث بالشعر المسترسِل الغنيّ المخبَّل المخبِّل الجارح المجروح عبثاً لطيفا، فترسله إلى اليمين، وقبل أن يستقر يبدو لها فتحاول إرساله إلى اليسار، فيسكُنُ متحركا بينهما وفي اتجاهيهما معا.

وتحت خُصُلات الشعر الأحمر وبينها تتناثر الأشياء والكائنات الحية، كأنه دمها الذي به تحيا أو دمُها الذي منه تموت. جسد المرأة لا يحتل المساحة المناسبة لوجهها وشعرها. هل يمتد تحت الرسم أو أن المرأة تضائله لئلا تفتن به، أو تضائله لتفتن به؟ جسد شاحب في بذلة رقص وردية كأنها انعكاس غارب للون الشعر على البشرة. جسد يتراجع لتتقدم من حوله الأشياء والكائنات الأخرى: سبحة كهرمان في لون قريب من لون عصابة جبين المرأة. وسائدُ متدرجة في اللون من البني البارد إلى الأحمر الساخن. قط (أو قطة؟) لا يبدو منه إلا وجهه الأسود ذو الغُرة البيضاء في هيئة المجْهش بالموء، كأنه يختنق وسْط المنمنة المكتظة، ويتوسل إلى الناظر أن يمد يده ويفتح الرسم ليحرره. ثمار فاكهة بألوان مختلفة (حمراء صفراء خضراء) ملقاة على البساط البني في عفوية شبعى. وكؤوسٌ شفافةٌ بمحتويات حمراء وسوداء قائمةٌ على طاولات صغيرة أو مطروحة مُهَراقة على البساط. وآلة موسيقية مقلوبة لا يستطيع الناظر أن يميز إن كانت عوداً أو كمانا أو نوعا خاصا من أنواع أحدهما غيرَ معروف إلا لدى الخاصة، لونها أصفر شاحب، وعلى ظهرها ـ بطنُها إلى الأرض ـ يقف طائر غريب له منقار ببغاءَ وعَرْفُ هدهدٍ وريش طاووس وساقا ديك تنشبان براثنهما في خشب الآلة الموسيقية كأن الطائر يخشى السقوط، أو كأنه يتهيأ

لأذان الفجر، أو كأنه يهم بالطيران. وعلى البساط هناك وهناك أوراق دالية خضراءُ تتعاقب خضرتها وتسترسل حتى تذوب في خضرة عمامة شيخ في خلفية الرسم على اليسار. شيخٌ لأن له عمامةً، ولأن له لحيةً وحاجبين (ملح وفلفل). رغم أن شفتيه المزمومتين كالمحتجتين على ما يجري تبدوان عاجزتين أمام عينيه الخضراوين الفاجرتين لأنهما تنظران إلى المرأة أمامه في وقاحة ساخرة تجمع بين اقتحام الشبِقِ واحتقار الملول. وفي أقصى اليسار من أعلى ضوءٌ صغير أصفرُ لا يكاد يضيء إلا نفسه. قل هو النور المرتدّ، النور المستنير لا النور المنير. النور النرجسي في أقصى أنانيته واعتزاله ولا مبالاته بالآخرين. هل هو نور مقلوب؟ هو (رون) إذن لا نور. كالثقب الأسود في فضاء المنمنمة ازدرد نفسه وأَفَل دون أثر إلا نقطة احتضار في الأفق الغربي.

تعليق الكاتب:

أيها الصديق العزيز. نقلت مذكراتك كما هي، ووصفت منمنمتك على الصفحة الأخيرة من المذكرات كما بدت لي. وليس لي على المذكرات والمنمنمة إلا

تعليق بسيط:

النور الذي عشت طَوال حياتك تطلبه هنا وهناك، لا يوجد إلا داخلك أنت، وقد رأيته أنا شخصيا يطل من عينيك ويديك وقلمك وتعلقتُ به أنا الآخرُ، وتبعتك من أجله. من يدري؟ قد أكتشف في آخر الأمر أن ما أطلبه يوجد بداخلي.

من يدري أيها الصديق العزيز؟ قد لا نكون، أنت وأنا، إلا أداة تساعد القارئ على اكتشاف نوره الداخلي الخاص.. من يدري؟

الضاية

اللقاء المتخيل:

أتصور اللقاء هكذا:

«أدخل من باب الخيمة فأجده جالسا على سجادة الصلاة، بيده سبحة صغيرة من الكهرمان، وشفتاه الرقيقتان تتمتمان بالأدعية، فتهتز لحيته البيضاء وعمامته البيضاء، ويستنير وجهه الأبنوسي، حتى إذا التفت إلى الباب ورآني، ارتفع حاجباه الأبيضان الغزيران من الدهشة والتساؤل، ورد السلام ببطء أولا، ثم رحب ودعا إلى الدخول، فأدخل وأقعد إلى جانبه على الأرض، وأقبّل يده المعروقة الحاملة للسبحة، فيستغفر الله في همس جاذبا إياها، وأقول له: أنا ابن فلان أخيك.

– أنت عسو. مرحبا بك. أصبحت رجلا الآن.

– لن أكون رجلا قبل أن تقبَلني وتثق بي، وتحكي لي قصة (الضاية) لأكون جديرا بحمل اسمك.

– استرح الآن، واقض معنا بضعة أيام تتعرف فيها على الرعاة والأغنام وجبال المنطقة ووديانها. ويفعل الله خيرا».

اندفع محاوري في قهقهة مهروقة لا تتوقف حتى دمعت عيناه، وقال:

– أنت تتصور عمك شيخا من شيوخ الصوفية؟ عبد القادر الجيلالي مثلا؟ أو عبد السلام بن مشيش؟ يا بني، ليس عمك إلا راعي غنم. وسأصور لك اللقاء الحقيقي بينكما كما سيجري: «لا تجده في الخيمة. ويقولون لك: إنه هنا أو هناك، وسيعود حتما بعد قليل، فتخرج بحثا عنه، وتجده غير بعيد، جالسا على صخرة عالية يرى من فوقها السفوح تحته، وهو يضفر من الحلفاء نعلا أو جرابا. وحين تسلم عليه لا يرد، ففمه مشغول بأعواد الحلفاء، ولكنه ينظر إليك ويتمعن فيك قليلا قبل أن تسكن يداه المتحركتان، ويُخرج من فمه أعواد الحلفاء، ويقول لك بصوت غليظ جهوري عال يفاجئك حتى تجفل:

– شكون انتا؟

– أنا ابن فلان أخيك.

– آه، الفقيه. سْمَعْتْ عْلِيكْ. آش جابك لهنا؟

– جئت إليك.. لتحكي لي قصة (الضاية) فيضحك عاليا وهو يقول:

– الضاية غالية.. أشنو جبتي ليا معاك؟

كان هذا مجرد تخيل لللقاء. لكني لم أذهب إلى الدوار فعلا للقاء العم. شغلتني شواغل العمل والأسرة، وإن كنت لم أصرف النظر أبداً. كنت فقط أؤجل اللقاء إلى عطلة الصيف.

في بداية شهر أبريل الماضي، كنت أتصفح جريدتي اليومية، حين صادفت على صفحتها الأخيرة قصيدة (الضاية). لم أعرف الشاعر حينئذ، لكني

عرفت فيما بعد أنه ينحدر من إحدى عائلات دوار عمي.

أعادتني القصيدة إلى حكاية الضاية بإلحاح. تقول القصيدة:

القصيدة:

«كانت كالمرآة الضاية

كنا نبصر فيها أنفسنا كل صباح

وظلال الغيم تهدهدها الريح ويُغويها الماء فتخفُقُ مثل رداءْ

والقمر المترجرج يلطُفُ يلطُفُ ينماث كسكَّرةٍ في الماءِ ويعقده الماءْ

وعلى الشطان الخضراءْ

يتسابق أطفال كالجنِّ

وخرفانٌ وكلاب سوداء وبيضاء ورقطاءْ

تصرخ تثغو تنبحُ: ماءٌ ماءٌ ماءْ

وعلى العشب الشبِق الريانْ

يتخاصر تحت الأشجار العشاقْ

تلتحم الشفة العطشى بالشفة الظمياءْ

تلتف الساق على لهَفٍ بالساقْ

تتوتر قوس قزحْ

ينفجر الرعد وينهمر الماءْ

قل هو الماء، إذا غاب تجلى في الحلم، وإن سال تجلى فيه الحلم، وإن فاض طغى وطفا الناس زَبَدْ.

لكن، حتى الماء له عمرٌ؛ لا يبقى شيء طول الدهر، ولا يبقى طول الدهر أحدْ.

ولُبَدْ

أفناه أبدْ

والضايات نساءٌ

يسبينَ ويفتِنّ ويَحملن ويُرضعن ويَكبرنْ.

الضايات يَشخْنْ

والضايات أخيرا يستسلمنْ

الضاية كالمرأة كانتْ . كالمرأة ماتتْ

ولها أكثر من بنتٍ، ولها أكثر من ابنْ

كنا نتفيأ في حضن الأم الأشجارْ

صرنا نحن الأيتامْ

نتوسد في صهْد الشمس الأحجارْ

من يُعطينا أما... أو حتى زوجة أبْ؟

من يعطينا حضنا... بالإيجارْ؟

بعد قراءتي للقصيدة ببضعة أيام، وفيما أنا أجهز نفسي للسفر إلى الدوار، جاءنا نعي عمي. ورغم أنني سافرت فورا، فإنني لم أدرك الجنازة. قدمت العزاء لعائلة عمي، وأدهشني أن أعرف منهم أنه كان يذكرني في أيامه الأخيرة، وأنه ترك لي (حكاية الضاية) مسجلة على شريط صوتي أنجزه أحد أبنائه. استمعت إلى الصوت، وتعرفت لأول مرة على صوت عمي المبحوح المشروخ، كأنه

صوت أحد شيوخ المرساوي.. صوتٌ شيخٌ وضعيفٌ ربما، لكنه ممتلئ وعميق، كان له عمق ضاية ممتلئة. يقول الشريط:

الحكاية:

«كان حتى كان، فقديم الزمان، كانت ضاية واسعة فوسْط الغابة. ديما عامرة، ديما فايضة صيف وشْتَا. ضاية تشرب منها الغنم والديب، السبوعا والطير، وبنادم حتى هو، ضاية كتعوم فيها الشمسْ والكمرا، والراجل ولمرا، والدرّي حتّى هوا. دازت على الضاية تلْتْ يبْسَات.

اللَّوْلَى دامت تلْتْ سنين. الثانية سبع سنين. الثالثة هي هادي. دازت اليوم أكثر من عشر سنين ومازال ما طاحت الشتا.

هاد اليبسة اللخْرَا طالت آولِدي: الأرض اللي كانت مرعى، ولاتْ قرعا، البهايم جافت، لا ذُكَر لا نثْوَا والنبات حتى هوا: لا شْجَرْ لا عُشْبَة، ولا حتى عَرْق للدّوَا. الضاية الخضرا، ولات رملة صفرا يغرفوها الكاميوات، وتحت الرملة يلْقاوْ رملات. والسما صاحية زرقا، لا تسول علاش ولا كيفاش تكول لحسوها الكلاب ولا المشاش. فالنهار صافية ضاوية تعمي العيونْ بْحَال إلى مْصَبَّنْها التلفزيون، وفالليل تخنزَرْ فيك بعيونها الكبارْ

نجوم الجوع أولدي هادُوك.

كبار وما يحشموشْ.

تحشم انتا وتحدر عينيك، ونجوم الجوع ما يرمشوش. جدودنا فاليبسة اللولى نحرو الجمال ورماوها فالضاية

ضحّاو ببهايمهم، عاد نزلت الشتا من السما ونبع من الأرض الما.

فاليبسة الثانية ما بقاو بهايم بقى غير بنادم

مدوخ بالشمس هايم.

والرجلة تبان فالحزَّا

جدك عسو فداك النهار بان

رمى الجلاب والرزا

وتقدم عريان... للبرهان.

الجماعة دبحوه، ورْمَاوَهْ فالضاية. ما طلع النهار حتى بانت الآية لْطَفْ الله وغْفَر الذنبْ

ونبع الما من هذا الجنب وهذا الجنبْ

حتى عمرت الضاية وفاضت.

من دَاك الزمان وحْنَا ولاد سيدي عسو

ما كَنْعَطْشوش

حيتْ حْنَا هُوما الْمَا.

هاد الجفاف آولدي اليوم ديالكوم

شوفو انتوما باش تقدرو تضحّيوْ إلى بغيتو الما».

العازفة الزرقاء

الأوركسترا كاملة على المسرح. المايسترو يدير وجهه إلى الجمهور، يلقي على القاعة الغاصة بالصمت والترقب نظرة متفحصة وإصغاء مرهفا يستقصى بهما أية حركة / نأمةٍ لم تسكنْ / تسكتْ بعد.

تسترخي قسمات وجهه المتفحص المصغي، يعبر مقدمة المسرح في خطوات عجلة إلى الكواليس على اليسار... دقيقة أو قرابة... ثم يعود بها: سيدة في حوالي الأربعين، تلبسُ ثوبا أزرق من قطعة واحدة يهبط من صدرها حيث منبت النهدين ضيقا إلى الخصر، ثم يتسع... يتواسع حتى تغطي حافته الرافلةُ القدمين فلا يبين منهما إلا رأسا الحذاءين الأسودين. أعلى الصدر عار إلا من شريط أزرق يحيط بالعنق ملتصقا بالجلد، والذراعان عاريتان. وفوق الرأس شعر أصهبُ مسرحا من اليمين إلى اليسار، ومتصاعدا في الكثافة من الأمام إلى الوراء حتى ينتهي بما يبدو لمة معقودة خلف الرأس. في شحمتي الأذنين حليتان لاصقتان بهما لا يكاد يميزهما إلا لونهما الأزرق الفاتح. وعلى العينين نظارتان بيضاوا الزجاج، بإطار مشرب بالحمرة يكاد يذوب في لون الجلد

العاري على الوجه والصدر والذراعين.

يقود المايسترو السيدة الزرقاء إلى مقدمة المسرح حيث تنحني أمام الجمهور المصفق، فتبدو من خلفها الأوركسترا الباذخة بمختلف الآلات الكلاسيكية مع غلبة الكمانات.

تجلس السيدة في مواجهة المتفرجين، على يسار المايسترو المولي ظهره لهم. تمسك بيدها اليمنى آلتها: آلة نفخ بمفاتيح، تشبه السيدة في شكلها الخارجي: لونها رمادي مائل إلى الزرقة، رقيقة الأعلى، لكنها تتسع بالتدريج مع اتجاه العين نحو نهايتها السفلى، وبيدها اليسرى تنزع السيدة النظارة من فوق عينيها، وتضعها على منضدة صغيرة بينها وبين المايسترو، يرفع المايسترو يده اليمنى الممسكة بعصا القيادة، يبدأ العزف.

في عنفوان العزف، وفور أن تصل الكمانات إلى قمة الجبل وهي تلهث، يشير المايسترو بيدها اليسرى الهابطة إلى السيدة الزرقاء، كأنما ليساعدها على الصعود إلى قطار. تقف السيدة، وتبدأ النفخ في آلتها الزرقاء الشبيهة بها. تخرج النغمات حيية خجولا في البداية وسط صخب الكمانات. لكن، شيئا فشيئا، تتسيد الالة الزرقاء المسرح، تكاد تنفرد بآذان القاعة لولا أن أصوات الكمانات المتراجعة لم تصمت تماما، خفتت فقط.

الصوت الأزرق يتصاعد... يتراقص... والسيدة تتواجد... تندمج... تغمض عينيها الحسيرتين وهي تنفخ في الآلة محركة رأسها مع النغم في حركة دائرية من اليمين الهابط إلى اليسار الصاعد ثم اليمين الهابط... والنغمات العذبة تنبجس من الأسفل كأنما تغترفها العينان المغمضتان من قاع نهر عميق، وتصعدان بها مع الرأس نحو اليسار العالي، ثم تهبطان بها من حاااااالق علي... على النظارات المتلهفة الفاغرة زجاجها الرملي فوق المنضدة الصغيرة

بجوار الحذاء الأسود للعازفة الزرقاء. يتراجع زفير الآلة الزرقاء أحيانا، لتتصاعد أصوات الكونترباصات والكمانات... تتصاعد محايدة ملساء كهفهفات أثوابٍ أو رفرفات فراشات، فتغطي الزفير المشتاق أو العاتب أو المجروح، حتى لينبهم المعنى الذي أوحى به، وينداح الإحساس الذي ركزه. لكنه هناك بعدُ... خافتٌ أو هامس أو متوار متوارب... هناك بعد حيّ ويتنفس أو يتنهد أو يتهيأ للصدح الصدع الصدم... ها هو ينطلق... ينخرط في حوار ساخن مع هفهفات الحرير ورفرفات الفراش. تهيمن أنفاس العازفة الزرقاء على المسرح، تُبندل حركة رأسها: «السانية» من اليمين الهابط إلى اليسار الصاعد ثم اليمين الهابط... مغمضة العينين محرورة / ممرورة النفَس كأنما تستقي أنغامها من جوف مجروح... تصعد بها من يمين الدرك الأسفل للألم البشري إلى يسار السّدرة العليا للبوح الإنساني، ثم تهبط بها من حاااالق على النظارات العطشى فوق المنضدة الصغيرة، فيبدو العالم من ورائها أزرق كأنما كله بحر... أو كله سماء.

تتهاطل النغمات على النظارات... يصفو العالم... تغفو الطبيعة... يطفو الإنسان... يزنّر خصرَ الكون حزامُ فاطمة الزهراء. تسكن حركة يد المايسترو الممدودة في الأعلى. تسكن كل الحركات على المسرح...

تتحرك القاعة في عاصفة من التصفيق والقيام والابتسام المعجب المبهور.

أدار المايسترو وجهه إلى الجمهور الواقف المصفق، مد يده تلقائيا إلى العازفة الزرقاء عن يمينه... ولكن يدا لم تمسك يده...

التفت، فلم ير العازفة بجانبه، لم يرها واقفة ولا جالسة ولا نائمة ولا باكية ولا عازفة ولا صامتة ولا حتى منطرحة جسما بلا روح.

لم ير في مكانها الخالي إلا نظارة بدون عينين، وآلة نفخ بدون شفاه. ومع

التفاته كان الجمهور يلتفت، وكان العازفون يلتفتون، ومعه أيضا كان غياب العازفة يخرسهم.

وفي الصمت الشامل العميق، لم يكن يُسمع إلا مزيج خافت من الزفير الناعس والهفهفات الرفرفات العابرة والحفيف الخفيف، يشيع في فضاء القاعة: مزيج خافت يتفاعل ويتداخل وتمّحي حروفه وحافاته فيمْلاسُّ ويَعْذَوذِبُ وهو يتلاشى ويتسرب مع الأوكسجين، إلى رئات الحاضرين.

وَإِنْ...

قالت بنات العم: يا سلمى، وإن

كان فقيراً مُعْدِماً؟ قالت: وَإنْ..

– على الدّص، لا يملك حتى ما يُنقّي به أسنانه.

– وإن.

– ومنحوس، ضَكَعْ. حاول أن «يحرق» خمس مرات ولم يفلح.

– وإن.

– أنت لا تعرفين أنه مطلّق، سبق له أن تزوج وطلق، وله مع مطلقته ثلاثة أطفال.

– وإن.

– وحش ساديّ. يضرب النساء بعنف، ويلتذ برؤية دمائهن تسيل بل ويشرب منها.

– وإن.

– ويسكنه عفريت اسمه (وإن) هو الذي ربطك به هذه الربطة «الزغبية»، وسوَّكَ فمك الجميل بهذه الكلمة الببغاوية.

– وإن.

– أنت لست سلمى أنت (مرضى) وتحتاجين إلى طبيب لا إلى زوج.

– وإن.

– لو كان على الأقل شابا، أو وسيما، ولكنه . سبحان من خلقه . كهل بشع، مربع مستدير، كأنما ولدته أمنا الغولة.

– وإن.

– لن نعرفك إذا تزوجتِه، سنصلي عليك صلاة الجنازة، ونَدفنُك في مقبرة النسيان.

– وإن.

– قولي لنا على الأقل: ما الذي يجعلك مربوطة به هكذا؟

– أحبه.

– وإن.

– وإذا لم أره مرة في اليوم على الأقل تفشل ركبتاي، ويهبط قلبي إلى معدتي، وتدور بي الأرض وأسقط ما في يدي.

– وإن.

– وإذا رأيته تفشل ركبتاي، ويهبط قلبي إلى معدتي، وتدور بي الأرض، وأسقط ما في يدي.

– وإن.

– وإذا رأيتُه، وإذا لم أره، وإذا كلمته، وإذا كلمني، وإذا لم نتكالم، وإذا لمْتُنَّنِي فيه، وإذا عذرتني، وإذا... وإذا لم... فأنا هويت... وانتهيت.

– وإن... وإنَانِ... وإنُونَ... وإناتْ.

نُوضِي اتِّي يا سلمى، جمعي الذهب اللي فَالدّار وهَرْبِي عَدُّو. نُوضْ اتّا يا صاحبها، خليها فالأوطيل، وهْرَفْ عَ الحْصِيّصَة وعَلَّقْ. حَكا مَا حَكّا نبيع الذهب ونحركو جميع، تحركك نار جهنم إن شاء الله.

نوض اتّا يا بّاها سخط عليها وتبرًّا منها. نوضي اتِّي يا بنت الناس يا للي وليتي بنت الزنقة: لا حنين لا رحيم، لا بو لا صاحب، لا ذهب لا فاميلا. يا للي وليتي حْكَايَة بحال ميلودة بنت ادريس اللي دّاوْها البّاليس. أش تديري ما تديري، دقي على الحاجة مولات الإمارات.

– إنه حمام يا سلمى. ولن تخرجي منه.

– وإنْ.

زفزاف

.1

أجلس أمامه على الطاولة، في سطيحة على البحر. هو يشرب قهوته ويدخن، وينظر بعيدا في اتجاه الأفق: حيث يلتقي الماء بالسماء، يمسك السيجارة بيده اليمنى، وبها أيضا يمسك فنجان القهوة من عروته فيرشف رشفة، ثم يضعَ الفنجان على الطاولة.

بيده اليسرى يمشط لحيته من أسفل، ويمسح شاربه. أنا أجلس أمامه على الطاولة. وجهي إليه وظهري إلى البحر. أنا أعرف أنه ميت، وأراه أمامي حيا، دون أن أدهش أو أعجب أو أتساءل. كأن كل ذلك طبيعي. وهو يقول لي كأنه يتابع حوارا سابقا:

«ثم إن المطموس لا يفتح».

وأنا أفهم أن المطموس تعني الذي ختم الله على قلبه فلا يعي شيئا، وأفهم أن (لا يفتح) تعني: لا يفتحُ الله عليه، ولا يفلح في شيء.

وأفهم أنه يشرح لي أسباب تصرف شخصية من شخصيات قصة له بعنوان (زفزاف) فأقول له:

«لكن الطامس يفتح».

وكنت أقصده هو بكلمة (الطامس). فرمى ببصره المدى البحري خلفي، وأخذ يتكلم في غموض وفي خفوت. ولكني فهمت أنه يعتبر شخصية قصته مغلقة كالقمقم المرصود، ولا يمكن أن يفتحها حتى علاء الدين. وفهمت أنه يعني نفسه حين ذكر علاء الدين.

قلت له بعد تردد: «إنني أفكر في أن أكون أنا علاء الدين» فضحك ضحكته المتميزة حتى استلقى إلى الوراء في كرسيه البحري المستطيل وهو يشير إلي بيده اليمنى ويمشط باليسرى لحيته الخفيفة، قبل أن يقول:

– أنت؟

قلت له غاضبا: سأريك، وافقت.

في الصباح، بعد أن أفطرت، فكرت طويلا في الحلم الغريب ثم أخرجت من المكتبة قصة (زفزاف)، وأعدت قراءتها.

.2

«... وجلس أمامي دون أن أدعوه وقالي لي:

– الله يخليك آسي محمد، اكتب لي رسالة إليها.

قلت له وأنا أرشُفُ قهوتي:

– لو كان الخوخ يداوي...

– ومع ذلك، أنت كاتب كبير، وتعرف تلك الكلمات التي «تهر»

القلب، كثّر لي منها، و«دَرِّخْ» الرسالة بشيء من الشعر وكلمات الأغاني. وثوابك عند الله.

– لا تدخل الله في الموضوع. هل تظن أن الله يرضى عن كتابتك الرسائل إلى بنات الناس؟

– وماذا أفعل آسي محمد؟ قتلتني. حابت لي الذبوح.

– اسمع، أنت صاحبي، ولك عليّ النصيحة. اذهب إلى الفقيه ليكتب لك (حرز المحبة) وسيجيبها لك بسبيبة، وإن كانت مربوطة فستقطع السلاسل.

– أنا المربوط آسي محمد، الله يجيبك على خير.

– اذهب إلى الفقيه، فهو الذي ياتيك بها، أو على الأقل يحل رباطك، أو اذهب إلى أي مكان آخر، ودعني أختل بصباحي. وكلت عليك الله، أطرت من رأسي كل ما حلمت به وفكرت فيه هذا الصباح.

أولاني ظهره غاضبا، وخرج.

أما أنا فتابعت تفكيري في قصة (زفزاف). ولكن المربوط الزغبي تسلل إليها من حيث لا أدري. دخل مغمورا في حشد الكومبارس، ثم أخذ يبرز على خشبة القصة بالتدريج. كانت الشخصية الرئيسية الأولى تتجاهله. لكن الشخصية الرئيسية الثانية كانت تحدجه بنظرات غاضبة بل كانت تفكر في الخروج عن النص، لتلقينه أدب الشخصيات القصصية المحترمة. بينما كان هو يصر على التقدم، ويعاود المحاولة حين يُقمع ويُرد إلى الكواليس، وأخيرا نجح في الوصول إلى مقدمة الخشبة، ووقف أمامي وهو يقول: «الله يخليك آسي محمد، اكتب لي رسالة إليها».

حين انتهيت من قراءة القصة، فكرت في إعادة كتابتها بطريقتي، وكانت

النتيجة كما يلي:

.3

«... وجلس أمامي دون أن أدعوه، وقال لي:

– الله يخليك آسي محمد، اكتب لي رسالة إليها.

قلت له وأنا أرشف قهوتي:

– لو كان الخوخ يداوي..

ومع ذلك أنت كاتب كبير، وتعرف تلك الكلمات التي "تهر" القلب. كثر لي منها، و«درح» الرسالة بشيء من الشعر وكلمات الأغاني. وثوابك عند الله.

– لا تدخل الله في الموضوع. هل تظن أن الله يرضى عن كتابتك الرسائل إلى بنات الناس.

– وماذا أفعل آسي محمد، قتلتني.

ولكي أتخلص من إلحاحه، كتبت له الرسالة التالية:

«سيدتي،

مرآتان هما عيناك

أقرأ في عمقهما

في عمق العمق مرايا خلف مرايا، شَعْرُك / ثغرُك / صدرُك / قدُّك / كُلُّكِ

مرآة أنت.

على صفحتها تنعكس جميلات التاريخ من عهد جلجامش.

ها أنذا جئت أخيرا أيتها المرآة

بقلمي

أفتح في السطح الصلب الأملس نافذة وأحرر كل الصبايا السبايا

منك... ومنهن أحررك

فاكشفي عن ساقيك

وسيري».

طويت الرسالة، ووضعتها في الغلاف المتنبر الذي وضعه أمامي على الطاولة، وأغلقت الغلاف، بادرني قائلا:

– ألا تقرأ علي ما كتبت.

من الأفضل أن لا تعرف شيئا عن الرسالة الآن. سأقول لك ما فيها حين ياتيك الجواب.

بعد أسبوع، جاءني وهو يلوح برسالة مغلقة. أخذتها منه، وفتحتها. جلس إلى جانبي لكي يقرأ الرسالة معي. لكن الغلاف كان فارغا لا رسالة فيه.. قال لي:

– ما معنى هذا؟

– معناه أن القمقم مفتوح، وأن العفريت طار «كيف الطوير».

ابتسم الرجل، وأخذ مني الغلاف الفارغ الأبيض، مدده بين يديه فامتد. مططه فتمطط. الغلاف الأبيض الفارغ الصغير أخذ يكبر بالتدريج. وشيئا فشيئا، أصبح جلبابا كاملا. لبسه الرجل، وشد على يدي شاكرا، وخرج.

4.

قرأت كل ما سبق على صديقي الناقد، فقال لي: إن هذا هو الفرق بين كتابته وكتابتك.. هو يكتب نصوصا مكتملة، وأنت تكتب نصوصا مفتوحة. هو يكتب نصوصا واقعية، وأنت تكتب نصوصا عجائبية. هو يفكر وأنت تحلم. وأنتما، على أي حال، خطان متوازيان لا يلتقيان في قصة.

سرحت ببصري بعيدا إلى ذلك الأفق البحري في ذاكرتي وقلت له:

– من يدري لعلمهما يلتقيان.

5.

أجلس أمامه على الطاولة في مقهى الماجستيك، أعرف أنه ميت، وأراه أمامي حيا، فأتذكر الحلم القديم، وأغتنم الفرصة قبل أن أفيق، فأقرأ له ما كتبته تنويعا على قصته «زفزاف». وفيما هو يتأمل ما كتبت، أحكي له ما قاله صديقي الناقد، فيضحك ضحكته المتميزة، ويستلقي بكرسيه إلى الوراء حتى يكاد يسقط، فأبادر والنادل إلى الإمساك به، لكنه يتابع ضحكته وهو يشير إلي ويقول:

– الفرق بين كتابتي وكتابتك؟ إن صديقك الناقد المسكين لا يعرف أنك أنت أيضا كتابتي.

بْحَالْ خُوكْ

كنا في المقهى، وكان أحد الأصدقاء قد سألني عما حدث لأخي، فأخذت أروي الحكاية مرة أخرى:

كان أخي يجلس على طاولة المقهى مع بعض أصدقائه، ورغم أنه يدخن، فإنه تضايق من رجل يجلس وراءه على طاولة قريبة، وينفخ في قفاه دخان سيجارةٍ كريهاً. سعل أخي وزحزح مقعده قليلا، إلا أن الدخان الكريه لاحقه، وجاءه من ورائه وعن يمينه وشَمَاله، في عينيه وأنفه وفمه، في حلقه وبلعومه ورئتيه، في روحه. فانتفض واقفا والتفت إلى الرجل قائلا في سخط: «لا تنفث دخانك في روحي..». الغريب أنني وأنا أحكي كنت أسمع بجانبي، على طاولة قريبة، رجلا آخري يحكي لجلسائه، كنت أسمعه بوضوح يتابع حكايته قائلا:

«... سعل أخي وزحزح مقعده قليلا، إلا أن الدخان الكريه لاحقه، وجاءه من ورائه وعن يمينه وشماله، في عينيه وأنفه وفمه، في حلقه وبلعومه ورئتيه، في روحه...».

فسكتُّ مندهشاً، والتفتُّ إليه. كان هو يتابع حكايته، بينما أصدقائي يحثونني على متابعة حكايتي، فتابعت:

«رد الرجل على أخي بعنف، فتطور الأمر إلى عراك بالأيدي، وأصيب أخي بجرح غائر في خده الأيمن، ربما من كسور زجاج، فحمله أصحابه فوراً إلى المستعجلات. لكن المشكلة أن الطبيب لم يكن موجوداً ليخيط الجرح، ولم تكن المعالجة التي قام بها الممرض كافية، فظلوا أكثر من ساعة في انتظار الطبيب...».

توقفت عن متابعة الحكي. كانت دهشتي تتطور إلى نوع من الضيق، وأنا أسمع الحاكي المجاور يتابع قائلا:

«.. بجرح غائر في خده الأيسر، ربما من كسور زجاج، فحمله أصحابه فورا إلى المستعجلات...».

استحثني أصدقائي: وبعد؟ هل جاء الطبيب؟ قلت: «نعم، جاء الطبيب أخيرا، وهل تدرون من كان؟ لقد كان نفس الرجل الذي تعارك معه أخي. اندهشا معا: أخي والطبيب، ولم ينبسا بكلمة، قام الطبيب بعمله على أحسن وجه: طهر الجرح وخاطه... وفقط بعد أن انتهى، مد يده إلى أخي قائلا:

– أعتذر إليك. لست أدري ما أصابني. لقد كنت في حالة غير طبيعية.

ابتسم أخي، ومد علبة سجائره إلى الطبيب قائلا:

– لا نتحدثْ في الأمر، خذ سيجارة.

أجاب الطبيب في حزم: كلا. سأنقطع منذ اليوم عن التدخين.دعك أخي العلبة ورماها قائلا: وأنا أيضا.

ارتفع ضحك أصدقائي، وتنوعت تعليقاتهم. لكنّي كنت أسمع بوضوح،

مع ذلك كله، الرجل المجاور يتابع حكايته: «... دعك أخي العلبة ورماها قائلا: وأنا أيضا».

سكت الرجل، فالتفتّ إليه عابسا. كان ينظر إليّ مبتسماً، ثم أشار بسبابته نحوي وهو يقول في بساطة: «بْحَالْ خُوكْ».

أبريل 2007

سعدون

إلى أطفال المغرب

حين كنت طفلاً صغيراً، أهداني خالي قفصا كبيرا جدا، فيه عصفور صغير جداً. ريشه ملون بالأزرق والبنفسجي والأسود. منقاره أصفر. ورجلاه حمراوان.

كان العصفور الصغير يتجول في خفة ومرح في مملكته الواسعة، ويقفز فوق الأسلاك الداخلية وهو يزقزق ويغني كطفل، أما حين يقترب من القضبان الخارجية فقد كان يصمت ويتأمل كشيخ حكيم. ولأنني فرحت به جدا، فقد سميته (سعدون)، وصرت لا أفارقه أبدا ما دمت في البيت. وحتى حين أنام، كان ينام معي في نفس الغرفة. أنا في سريري الصغير، وهو في قفصه الكبير. وحين أفيق في الصباح، كان غناؤه أول صوت أسمعه. كنت أطعمه وأسقيه. وقضيت زمناً طويلا في تعلم لغته: حين كان سعدون يجوع كان يزقزق هكذا «وَجْ وَجْ» فأطعمه البسكويت فوراً. وحين يَشْبَع كان يزقزق باختصار: «وَجْ» فأفهم أنه يريد ماء، فأسقيه. وحين يشبع ويرتوي، كان يرفرف في سماء القفص

وهو يردد: «وَجْطْ وَجْطْ» فأعرف أنه يقول لي: «أُحبكَ. أُحبكَ»، فأرد عليه بدوري «وجط وجط» فيطير فرحا في فضاء القفص، ويغني لي أغنيته الخالدة. كانت أغنية مركبة وطويلة، فهمت مع مرور الزمن أنها تتحدث عن بلاد بعيدة وجميلة، لابد أنها بلاده التي جاء منها. كانت أغنية مؤثرة، ظلت تحفر في نفسي حتى فتحت باب القفص ذات يوم، وأخذت الصغير سعدون في كفي، ووضعته على حافة النافذة. حركته بإصبعي فطار قليلا، وعاد إلى حافة النافذة، قلت له «وجط وجط» فأجابني «وجط وجط» ثم غاب في الفضاء.

بعد أسبوع أو قرابة. أفقت ذات صباح على غنائه الجميل. فتحت عينيّ فرأيته على حافة النافذة. أشرت إليه بيدي، فقفز إلى حضني وهو يردد: «وجط وجط»، ثم بدأت طيور أخرى تدخل من النافذة. عصافير صغيرة وملونة وتوجطط. عشرة، عشرون، مائة، ألف، آلاف. امتلأت غرفتي بالعصافير التي أحاطت بي وحملتني على بساط من الريش الملون، وطارت بي في الفضاء ساعات وأياما حتى بلغنا جبل قاف، حيث تقيم الطيور الجميلة. وحين وصلنا، كنت أنا بدوري قد أصبحت عصفورا صغيرا ملون الريش. ولم يبق مني في بيت والديّ إلا جسمي. أما روحي فهي حتى الآن في جبل قاف، وهي التي كتبت هذه القصة، وتقول لكم في آخرها: «وجط وجط».

أمِّي

إلى خيريز

1. كنت أرضع من ثديها، وهي تحضنني بيديها معا، وتنظر إلى وجهي وتتملاه. توقفت عن الرضاعة، ورفعت عيني إلى وجهها الأبيض الحاني، فابتسمَتْ وغمزَتْني بعينها اليسرى. ابتسمتُ وغمزتُها بعيني اليمنى. انتزعتْ ثديها من فمي ضاحكة وهي تقول: كبرتَ الآن، حان وقت الفطام. ووضعتْ على فمي كأس شاي محلى بكثير من السكر. شربتُ جرعة، فشرِقْتُ. صفعتْني على قفاي، وأسرعَتْ لتأتي بالماء. لكن الوقت كان قد فات.. كنتُ أنا قد مِتُّ.

2. كانت تمسك لوحي، وهي الأمّيّة، وأنا أعرض ما حفظتُ عن ظهر قلب: «تبارك الذي بيده الملك، وهو على كل شيء قدير...» فإذا نسيتُ، فعدتُ إلى الوراء، أو قفزتُ إلى الأمام، استوقفتْني باسمة، وهي تهز سبابتها في وجهي وتقول:

– اخطأتَ.

– كيف عرفتِ؟

– من شفتيك ومن عينيك ومن هزة رأسك، حتى لو أغمضتُ العينين عرفتُك، إذْ تخطئ، من صوتك من أنفاسك لا تتَذَاكَ عليّ، أنا أمك.

3. كانت تقرأ ، وهي تجس جبيني المحموم، ما كانت تحسبه سورة الفلق. كانت تدخل جملا في جمل، وتغير في كلمات. قلت لها: أنتِ تحرفين الكلم عن مواضعه.

فأجابت في حزم: للا ميمونة بلغت الولاية وهي أمية لا تقرأ ولا تكتب. كانت تنشر «هيدورتها» على البحر وتصلي فوقها مرددة عبارة

واحدة فقط:

«الله يعرف ميمونة، وميمونة تعرف الله».

4. كانت تبكي، أو تضحك؟ تنشج؟ تجهش؟ لا أدري، كنتُ أنا مضطجعاً أتناوم. مددتُ يدي مفتوحة على اللحاف، وأنا مغمض العينين. انتبهَتْ أمسكتْ بيدي وانحنتْ، قبلتْها، ووضعتْ فيها كسرة خبز يابسة، وانصرفتْ.

5. لم أفاجأ بما تصنع، فقد كنتُ أعرف أنها تداوي أمراض الفم التي تسمى «الخايبة». لكنني لم أعرف الطفل الذي كانت تداويه. أجلسته على حجرها، ووضعت على فمه منديلا أحمر متشبعا بزيت الزيتون، وأخذتْ تمرّر على المنديل عود حطب مشتعلا ذهابا وإيابا وهي تتلو أدعية غير واضحة. قلت لها: من هذا الطفل يا أمي؟ قالت: المغرب.

6. أخرجتُ قدميها الصغيرتين من «الشربيل»، وقبلتُهما، فشممتُ روائح الجنة.

7. قلت لها:

ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ ـ لكان أباكِ الضخمَ كونُك لي أمَّا

فابتسمت في تسامح وهي تقول:

– دعك من المتنبي، فهو لا يليق بك.

– من يليق بي إذن؟ المعري.

– ربما، لكن الأحسن من هذا وذاك أن تكون كما أنت: ابني.

8. غرفتْ من قِدرٍ أسود شيئاً أزرق يعلوه البخار، كان له طعم «أضغاص»: لبا البقر الساخن.

– أضغاص نعم، قالت مبتسمة، أضغاص الشعر. هذا أول شعر عربي: لقاحك ضد الرداءة.

ملعقتين أكلتُ: ملعقةً للتعرف، وأخرى تداويتُ منها بها.

9. قالت لي: نساء أعمامك يعيرنني بك. أبناؤهم بنوا دورهم، وأنت ما زلت تعيش في بيت الكراء. قلت لها باسما:

– ما فائدة الدار في هذه الدار يا أمي؟ أنا أبني قصرا في الجنة منذ زمان، ولابد أنهم قد «ضربوا الضالة» الآن.

– تذكرْني إذن وأنت تدخل الجنة.

– يا أمي. أنا أمزح. إذا كان أحد منا سيدخل الجنة فهو أنت

فلا تنسيني.

احتضنتني باسمة وهي تغني: أنساك؟...

10. كانت تبكي وتنتحب، وجسدها الصغير كله يهتز. رفعتُ صوتي أنا

الآخر بالبكاء. سكتتْ وسكنتْ، كفكفتْ دمعها، وأخذت تمسح دموعي، وتربت على رأسي وتقول: لا تخف يا بني، إنه البرد فقط يبكيني.

كنتُ أعرف أنه ليس البرد. لكني لم أعرف ما هو.

11. قلتُ لها وهي تموت:

– أوصيني.

– أوصيك بنفسك. فأنا أعرف أنك ما أكثر ما تنساها.

– ألا توصينني بإخوتي وأخواتي.

– هم أذكياء، ويعرفون كيف يعيشون. أنت الذي لا تعرف كيف تعيش. أنت حسرتي.

ها أنذا يا أمي أبحث عن نفسي فلا أجدها. منذ زمان أبحث، منذ ذهبتِ، ألا تكون نفسي هي أنت؟

12. قلتُ لها: اشتقتُ إلى النوم في حضنك.

فاستلقت على السرير، وفرشتْ لي ذراعها. كانت ذراعها يابسة ودقيقة، فنقلتُ رأسي إلى كتفها. يابسةً كانت هي الأخرى ومتخشبة. قلت لها: لماذا أنت يابسة وباردة هكذا؟ أجابتني من فمها الدائم الابتسام:

– لأني ميتةٌ يا بنيّ.

يتضمن هذا الكتاب

المجموعات القصصية الآتية:

النظر في الوجه العزيز

الغابر الظاهر

صياد النعام

ققنس

قالت نملة




9 789954 996522

الثمن: 60 درهما